عمار علي حسن

خبيئة العارف

الطبعة 3

رواية

الدار المصرية اللبنانية

عمار علي حسن

خبيئة العارف

رواية

القسم الأول

خُطَى العَرَّاف

1

نامت أضواء الشارع المزدحم بالبشر والسيارات تحت قدميّ «ماهر السعدي»، وهو يدخل الممر على مهل مطوحًا جسده المنهك بعد يوم عمل شاق. نظر إلى باب المسجد المغلق، وواجهة «دار الكتاب الصوفي» التي تطل منها أغلفة ملونة عليها كلمات يكاد يحفظها من كثرة مروره إلى جانبها، وتطلعه إليها. وقف في مكانه دقائق لائذًا بالصمت، وتلفت حوله فلم ير سوى عينيَّ قطة تجرحان العتمة الراقدة تحت الجدران. قال لنفسه وهو يتنهد في حرقة:

ـ لعل الكنز هنا تحت هذه القطة النائمة، أو بين الحجرين الكبيرين، أو حتى تحت سجاد المسجد، أو وسط صالات البيت، وربما في الشارع تحت عجلات السيارات وأقدام العابرين.

وقفزت إلى رأسه من قلب الزمن البعيد حفرة تتلألأ، وعيون تتسع وتبتلع الفراغ، وأعناق ممدودة إلى قلب الأرض الواعدة بالثراء، وأيد على الجيوب الخاوية، بينما أُلقيت الفؤوس على حواف كومة التراب الليّن المستديرة، وتناثرت الأحذية القديمة إلى جانب الجدران، بعضها تغطيه الجلابيب المهترئة، وبعضها تتشممه الصراصير

وأسراب النمل، وهي تهرع مبتعدة حتى لا تدهسها الأقدام، أو تمزقها سنون الفؤوس الحادة، التي مزقت الكثير من دود الأرض.

أغمض عينيه فرأى شبحًا لرجل بهيّ الطلعة، يمشي على مهل، ومن ورائه أشباح لأناس تتبعه إلى حيث يذهب، وخلفهم شارع عريض، تصب فيه حارات وأزقة، على رؤوسها أشجار البلح والكافور، كثيفة الأوراق، والتي تسوَّد وتبيَّض بلا انقطاع، حين تطل من بين فروعها شمس كسيرة، تجاهد سحبًا حبلى بماء غزير، تدفعها ريح قوية.

كان يشعر أن رذاذًا يضرب وجهه، مؤذنًا بهطول المطر. فتح عينيه، فملأهما البلاط البني، الذي يتمدد في جسد الممر، ويطوق أحواضًا مستطيلة بها شجيرات، تهتز خفيفًا في نسائم المساء الطرية.

لم ير، حين أغمض عينيه، أحدًا يحفن من الحفرة المملوءة بالذهب، ويملأ جيوبه، أو يرمي السبائك إلى شخص آخر يقف عند الحافة، ويضعها في جوال، فأدرك أن كل ما قيل له يحتاج إلى تدقيق. ووجد نفسه يسخر من ذلك العرّاف والساحر الذي أطلق بخوره، وملأ أذنيه بكلام معسول، جعله يظن أن كل شيء سيأتيه سهلًا:

ـ قف في الممر، وردد الكلمات التي حفظتها عني، وأنت مغمض العينين، وسترى كل شيء، ويكون بوسعك أن تحدد مكان الكنز في يسر ... يا ليتك تجده تحت قدميك.

سمع صوت أقدام تقترب منه، ففتح عينيه، فإذا بشابين يعودان في آخر المساء، وهما يترنحان من تأثير الحبوب المخدرة التي يعرف

أنهما قد أدمناها. وقفا أمامه، ونظرا في عينيه طويلًا، وتمتما بحروف لم يتبينها. دارا حوله، فجفل منهما، بعد أن سمع قصصًا كثيرة عن المدمنين من الشباب الذين يسرقون الناس. لكن يبدو أنهما كانا قابضين على قليل من الوعي، فعرفاه، ومد أحدهما يده وصافحه، فصافحه الثاني، وأعطياه ظهريهما، ومضيا يتأرجحان، ثم انعطفا يسارًا، وغابا في انحناء الزقاق المؤدي إلى البيوت الخلفية.

وجاء كلب يجري خلف آخر يريد أن يعقره، وهو يراوغه، صعدا إلى أحواض الشجر وهبطا بسرعة شديدة، حتى خرجا إلى شارع «مجلس الأمة» ومالا إلى اليمين، ثم اشتبكا في عراك ضارٍ، قضَّ مضاجع كلاب أخرى نائمة إلى جانب الجدران، فهبت نابحة، وراحت تتقافز وتشتبك، ثم لم تلبث أن هدأت، وانصرف كل منها إلى طريق. واحد فقط سار نحوه، ومرّ من جانبه ساكنًا، حتى وقف هناك تحت لمبة مضاءة بنور أحمر، وراح يتطلع نحوه، ويهز ذيله ولسانه.

عاد هو إلى الدوران حول نفسه، ثم أغمض عينيه، وردد ما حفظه مرة ثانية، على أمل أن تأتيه الأسرار المدفونة هرولة. كان يردد بإخلاص شديد، حتى اهتز جسده، فوجد نفسه يجلس إلى جانب الجدار غارقًا في الأسى والحيرة والعجز.

أسند رأسه إلى الحائط، وارتفع صوت أنفاسه اللاهثة، رغم أنه لم يبذل جهدًا بدنيًا مفرطًا، حتى يعلو صدره ويهبط على هذا النحو، لكنه

الإنهاك الذهني والنفسي الذي أصابه، بعد أن أعياه التفكير، وأضنته الحيل، وراوغه الأمل غير مرة.

اقتحم أذنيه اصطكاك درفتي نافذة بالحائط، وأتاه صوت شيخ الطريقة لينًا، وهو يقرأ سورة «الواقعة» التي سمعه يقول إن قراءتها كل ليلة تنجي من الفقر. ولما ضاق ذات ليلة بما سمع، وهو يضع يديه في جيوبه الخاوية، قال له الشيخ في هدوء:

ـ فقر الروح أشد وأنكى.

لكنه ظل طيلة السنوات الفائتة يربط ما سمعه بالوصول إلى هذه الخبيئة، التي قرأ أن أحد المريدين رآها بعد أن حفر وإخوانه عميقًا لدق طلمبة تسقيهم ماء عذبًا، لكن الشيخ الكبير «أبو العزائم» رفض إخراجها حتى لا تغلب الدنيا قلوب الذاكرين.

تعامل في البداية، مع ما قرأه عن الكنز الضائع على أنه حكاية من تلك التي ينسبها أبناء الطريقة إلى مشايخهم ليخضع الناس لكراماتهم العفية، لكن الشكوك بدأت تساوره في ظنه هذا، ووجد ما جعله يدرك أن الأمر ليس لعبة للتسلية ولا شائعة ترددها الألسن بلا وعي، بل هناك بالفعل ذهب، يرقد بسلام في هذه البقعة التي استوى فوقها بيت عال به دار ضيافة، ومسجد، ومستوصف، ومكتبة وجمعية أهلية ومركز لمكافحة الإدمان، وممر إلى الشارع الخلفي، وتراب يعلق بأحذية القادمين إلى الحضرات ودروس العلم وأنس الصحبة الطيبة.

أغمض عينيه فرأى «خلف المناوي»، وهو يجري في هذا المكان، قبل تسعين سنة، مرفرفًا من فرط الفرحة، نحو «الشيخ أبو العزائم» قائلًا:

ـ ذهب يا مولانا .. ذهب كثير.

ظن وقتها أن شيخه سيهب واقفًا، ويرقص مثله، ويرفع جلبابه عن ساقيه ويطلقهما نحو مكان الحفر، وهو يشير إلى مريديه أن يأتوه بأجولة ليملأها بالذهب، ولكنه وجد وجهه قد اكتسى بغضب شديد وأسى، وقال:

ـ لا تركبك أوهامك يا «خلف».

طأطأ رأسه، ورد بصوت خفيض:

ـ ليست أوهامًا، لقد مسكته بيديَّ هاتين يا سيدي.

وبسط كفيه، وراح ينظر فيهما، ثم رفع بصره ليجد عيني الشيخ مغرورقتين بالدموع، ويده تمتد إلى عصاه. نهض ومشى يتوكأ عليها، وهو يغمغم، ويرسل بصره إلى جوف السماء، ويعيدهما إلى موضع ستدوسه قدماه، حتى بلغ كومة الترب اللدن الخارج من بطن الأرض.

كان الرجال يقفون وقتها حول الحفرة العميقة، وقد ألقوا الفؤوس والكواريك، وعيونهم مفتوحة، وفي أعماقها يطل نور أصفر مبهر، وينعكس على الجباه المعروقة، ويذوب في الفضاء المسكون بالدهشة والتوجس.

مر الشيخ من أمامهم وكأنهم غير موجودين، ثم جثا على ركبتيه، وحفن ترابًا من على أطراف الكومة اللينة، ورماه على وجوههم فأغلقوا جفونهم على ذرات منه، وراحوا يدلكونها بسرعة، ويجرحون بأظافرهم الخشنة الظلام الذي غشيهم في وضح النهار، فيسيل سواده على قلوبهم، ليمحو أي أثر للأصفر الثمين، الذي تلألأ في عيونهم قبل قليل.

أتاهم صوته كالرعد:

ـ لا يملأ عيونكم سوى هذا التراب.

ولما فتحوها تمكنوا من الإبصار مجددًا، ليجدوه قد نزل إلى قلب الحفرة، وراح يخمش جدرانها فيسقط الطين الناشف على ما رأوه ذهبًا، ثم صرخ فيهم من أسفل:

ـ انظروا.

رموا أبصارهم إلى حيث هو، فلم يروا سوى طين في طين. وعندها سألهم:

ـ هل ترون ذهبًا؟

أجابوا في صوت واحد:

ـ لا.

وقف في مكانه، وقال لهم بصوت جهير:

ـ شبّه الشيطان لكم الطين ذهبًا، فاحذروا الغواية، ولا تخوضوا في هذا مرة ثانية.

ولما سحبوه بحبل متين إلى حيث هم، راح يضرب كفًّا بكف وهو يتصفح وجوههم جميعًا، وقال:

ـ أردنا ماء للاغتسال والوضوء، حتى نحلق طاهرين في السماء البعيدة، ولم نسع لمالٍ يجعلنا نزحف على بطوننا فوق التراب.

وقال «خلف» من جديد:

ـ نصيبنا من الدنيا يا مولانا.

هز رأسه وقال:

ـ نصيبك يُصيبك، فلا تطمع فيما ليس لك.

صمت برهة، ثم سأل:

ـ هل الفقر مكتوب علينا يا سيدنا؟

ـ مكتوب علينا غنى لا تدركه.

وأشار إليهم بيده فهرعوا إليه، مشى فمشوا خلفه صامتين، حتى وصل إلى الحصير العريض، وجلس فجلسوا.. رفع يده إلى حيث يتصاعد الدخان، فجاء القائمون على الخدمة، وعلى كفيَّ كل منهم خوان كبير فوقه أطباق اللحم المسلوق والأرز والفتة والخبز. تركهم يتلمظون حين صعدت الأبخرة إلى أنوفهم، وتحركت بطونهم الجائعة

تطحن الخواء، ورفع غطاء الإناء، وخطف قطعة لحم، ولوح بها في وجه القطط التي أخذت تتجمع حولهم، فهاجت وماجت، وذهبت عيونها إلى حيث تقف يده في الهواء. فلما رماها على الأرض هرعت إليها، وانخرطت في عراك ضار.. نظر إليهم مبتسمًا، ثم أشار إلى أفواه القطط المفتوحة، وإلى أنيابها المشرعة، وقال:

- عرض الدنيا يثير الشحناء بين المتكالبين عليها.

لم يفهموا قصده للوهلة الأولى، وامتلأت عيونهم بالسؤال، فلم يترك حيرتهم تطول، بل قال بصوت مفعم بالخشوع:

- لا فرق بين قطعة لحم وسبيكة ذهب.

انتهوا من طعامهم، فأمرهم بردم الحفرة، والحفر في مكان آخر، لكن «خلف» لم يكف عن الغمغمة، بينما فؤوس إخوانه تأكل الأرض ممتثلة لأوامر الشيخ الكبير.. كان يضرب في تكاسل، ويفلت من غمغمته كلام:

- رأيت الذهب، ولن أكذب عينيَّ. ومسكته ولن أُكذِّب يديَّ.

لكن أحدهم لكزه في جنبه، وقال:

- عيناك ويداك تكذبان ... طالما الشيخ قال هذا، فهو الصادق وأنت من الكاذبين.

ابتلع لسانه وقتها، ولكنه لم ينس ما رآه أبدًا.

حكى «خلف» لابنه ما جرى، فحكاه لحفيده «عليوة» الذي هو زميل «ماهر السعدي» في العمل، ولا يكف عن ذكر ما قاله جده، وهو من أوائل مريدي الشيخ الكبير، مؤسس الطريقة، وتاركها وراثة في أسرته، وآخر عنقودها يمضي أحيانًا في الممر الضيق، وهو ذاهب إلى بيت زميله، غير عابئ بالكنز المدفون.

لكن بعد مرور كل هذا الزمن، التفت «عليوة» ذات يوم إلي «ماهر»، وقال له:

- لا يوجد ما يجعلني أنكر أن الكنز لا يزال مدفونًا في المكان، الذي اتخذتموه مقرًا للطريقة «العزمية».

تطلع إليه، وهو غارق في شرود بعيد، فواصل:

- أنت قريب الشيخ، وواحد من مريديه .. لن يقنعه سواك.

لم يبق في رأس «عليوة» شيء من أوراد الشيخ الكبير، ولا من كل ما سمعه عن مناقبه، وتعامل مع جده على أنه رجل ساذج، أطاع الشيخ فضيّع على أسرته ثروة طائلة.

رفع عينيه إلى سقف المكتب ذي الجدران الكالحة، وقال بصوت مخنوق:

- ضاق بي العيش، وكان بوسع جدي أن يشتري أرضًا ترمح فيها الخيل ولا تصل إلى آخرها، ووكالات تجارية، ومصانع سكر، ومحالج قطن، لو أراد.

ضحك «ماهر»، وقال ساخرًا:

ـ ومن كان سيترك جدك يستأثر بالكنز؟

الغريب أن «عليوة» غرق في الندم والحنق والجدية حتى ناصيته، وأصبح يفكر ليل نهار في الخبيئة. فعلى مدار شهرين من تعرفه على «ماهر»، بعد نقله إلى مقر هيئة تابعة لنظارة الأوقاف، لا يتحدث معه إلا عن الثراء المخبوء تحت التراب. لفت انتباهه في البداية اسم «ماهر»، وسأله:

ـ هل أنت قريب عائلة «أبو العزائم"؟

ابتسم له وأجابه:

ـ بوسعك أن تقول هذا، اعتبرني قريبهم.

ووجده يقول له ذات يوم:

ـ علينا أن نصحح الخطأ الذي وقع فيه أجدادنا.

نظر «ماهر» إلي وجه «عليوة» الذي اكتسى شرهًا ظاهرًا، وسأله بصوت خفيض:

ـ أي خطأ؟

ـ خطأ نسيان نصيبهم من الدنيا.

أدرك ما يرمي الوصول إليه، لكنه كان بحاجة إلى معرفة الطريقة التي يحقق بها هذا التصحيح. وقبل أن يطرح «ماهر» عليه سؤالًا جديدًا، أفاض هو في الإجابة:

ـ نهدم البيت والمسجد، ونحفر في كل الأرض لنجهزها لبناء جديد، أعلى وأكثر تنظيمًا... فبعد العثور على الكنز، سيكون كل شيء أفضل، وأفخم.

غرس ماهر عينيه في عينيَّ صاحبه، وقال في غيظ:

ـ من المؤكد أنك مجنون.

هز «عليوة» رأسه في غيظ أشد، وقال:

ـ لا يوجد هنا مجنون غيرك. كبار الموظفين ينهبون أموال الأوقاف، حتى امتلأت جيوبهم وكروشهم، وأنا وأنت نسير في الشوارع بحذاءين ممزقين.

نظر إلى حذائه الأجرب، وقال له:

ـ تكلم عن نفسك، فأنا من أسرة لا تهمل في هندامها.

صرخ مطوحًا يده في الهواء:

ـ لا تسفه كلامي، وتذهب بي إلي حارات جانبية .. ابق في صلب الموضوع.

قهقه حتى اهتزت المكاتب الصدئة، ورفرفت بعض الأوراق الموضوعة عليها، وقال له:

ـ ما تريده مستحيل.

ـ أعتقد أن الكنز تحت المسجد، وهذا أسهل.

- بل أصعب. فمن ذا الذي يتحمل هدم مسجد يا غشيم.

نفخ في ضجر:

- سنبني آخر أعظم منه.

ترك «ماهر» صاحبه يغلي، ومضى صامتًا، وها هو يقف في مواجهة المسجد المغلق، ويهُمُّ أن يفتحه، ويمسح أرضه بعينيه، ويتطلع إلى اليوم الذي يمكنه فيه أن يرفع السجاد والبلاط ويحفر، حتى يصل إلى الذهب. لكن من ذا الذي يتركه يفعل كل هذا؟

سيتصدى له المصلون والمريدون وشيخ الطريقة، الذي ينساب صوته نديًا يملأ الممر طلاوة، ويجعل خطى «ماهر» تتمهل، والخشوع يراوده عن نفسه.

بالأمس تحدث عن الكنز مع الشيخ، فنظر عميقًا في عينيه، وقال:

- لا أخالف جدي الكبير، وشيخنا جميعًا، فقد كان أدرى بما فعل.

نظر إليه مندهشًا، وقال:

- إذًا أنت تعرف أن هناك كنزًا يا مولانا؟

- وصلني ما جرى في الزمن الأول، كما وصل زميلك، ثم وصل إليك.

- لكنك لم تخبرني به.

- لأنني على طريق جدي الكبير.

اقترب منه، وهمس في أذنه:

- جدك وجدي ماتا يا مولانا منذ ثمانين سنة، والدنيا تغيرت، وأنت درست علم الجيولوجيا في الجامعة، وليس أمر دفائن الأرض بخاف عنك.

وضع الشيخ كفيه على منكبي «ماهر»، ونظر في عينيه طويلًا، حتى استقرت ملامحه في أعماقه، وراح ينشد من قصائد الشيخ «أبو العزائم":

"كشفوا الرموز عن الكنوز الخافية
فتلألأت دررُ المعاني الصافيةْ
ومحوا طلاسمَ وصفِ ذاتي فانجلت
أنوارُ باطنِها ولاحت باديةْ
ثم انمحى هذا الشهودُ بمظهرٍ
متزيِّنٍ بعقودِ غيبٍ غاليةْ"

خلع عينيه من عيني الشيخ، وأمال كتفه إلى الوراء، فانزلق كفا الشيخ على ذراعيه، ثم سقطا، فسحبهما إليه، وهو يداري غضبًا تدفق إلى سحنته، وسأله:

ـ هل فهمت ما أنشدت؟

ابتسم وقال له:

ـ لم أفهم سوى موضوع «الكنوز الخافية».

زاد غضبه قليلًا، وقال:

ـ لكنها كنوز غير التي تريدها.

ثم سأله:

ـ أتعرف لمن هذا الشعر؟

ابتسم وأجاب في فتور:

ـ أنت لا تنشد سوى أشعار جدك.

تحول غضبه إلى سخرية منه، وقال:

ـ أشعاره التي ملأت دواوين، ولا تحفظ منها بيتًا واحدًا.

ـ لو كتب شيخنا الكبير قصيدة في فضائل الذهب، كنت حفظتُها عن ظهر قلب.

صمت برهة، وبدا الشيخ وكأنه قد لام نفسه على سخريته من «ماهر»، فسأله بصوت خفيض:

ـ هل ينقصك شيء؟

أجاب دون تردد:

ـ الكثير .. الكثير.

قام من مكانه، وابتعد عنه خطوات، ثم التفت إليه، وقال:

ـ نرث ما تركه لنا المورثون، وما تركوه غير ما تبحث عنه.

كلام مكرر يقوله الشيخ لـ «ماهر» دومًا، ولا يرغب في فهم أغلبه، وحين تُضيِّق الحياة الخناق عليهَ تتحطم الحروف، ثم تتفتت تحت قدميه في زحام الذين ينهبون أسفلت الشوارع؛ سعيًا وراء أرزاقهم.

الممر الذي تركوه بين البيوت ينبئه بأن شقته لا تزال مكانها، ينغلق بابها على زوجة وولدين وثلاث بنات. أفواه مفتوحة، وعيون تحط على جيبه الخاوي، فراتبه الضئيل لا يكفي ما يحتاجون إليه، ولولا ما يساعده به شيخ الطريقة، ما كان بوسعه أن يواجه نفقات معيشته.

في المكاتب لا يكف بعض الزملاء عن الحديث عن مديري العموم ووكلاء نظارة وقف البلد المتعاقبين، الذين يستولون على الكثير من أموال الوقف، فيثيرون غيظه الشديد.

كان عليه في هذه اللحظة أن يخلع كلام الشيخ من رأسه، وود لو تغور الكلمات في قاع بعيد، أو تذوب في الهواء، أو تصير خيط دخان يتلاشى كأنه لم يكن.. المهم ألا يسمعه، فهو الذي يمنعه من أن يحقق ما يصبو إليه. يقول له كلما حدثه عن ضيق ذات اليد: «الغنى في الاستغناء»، و«الغنى غنى النفس»، لكن نفس «ماهر» تتوق دومًا إلى المال، قدر توق الشيخ إلى التحليق خارج الدنيا بأسرها، حين يغيب في الحضرة، ويتطلع مريدوه إليه في هيبة وخشوع.

خلع كلامه من رأسه بالفعل، بل خلع البيت والمسجد، واستعاد الأرض الخلاء. في الحقيقة لم تكن خلاء، بل كان قصرًا يسمى «سراي الحنفي»، يطل على «عطفة الفريق» في «سوق مستكة»، استأجره الشيخ الكبير «أبو العزائم» من نظارة الأوقاف، ثم اشتراه.

ياااااااااه، هذه النظارة مربوطة بأقدامه، البيت كان لها، وهو الآن موظف بائس في إحدى إداراتها العتيقة. لكن ما ليس له ولا للشيخ الجديد للطريقة علاقة به هو صاحب هذا القصر، قبل أن يؤول إلى الأوقاف، ، فقد كان واحدًا ممن غزوا هذا البلد ونهبوه، قائد تركي يدعى «الفريق باشا»، لم ينشغل به أحد من شيوخ الطريقة ولا مريديها، فكل ما يهمهم أن قدميّ جدهم «أبو العزائم» قد دبتا في هذا المكان، فحلت فيه البركة.

ما بقي في ذاكرتهم كان صورة القصر، فهو عدة مبانٍ تحط على أرض تربو على فدان، ويتوسطها ميدان فسيح. وكان باب القصر عاليًا عريضًا، شُيِّد من أحجار مستطيلة ضخمة، ما إن يقتحم عيون العابرين حتى يحل في نفوسهم الاطمئنان والأنس والراحة ممزوجة بمهابة وإكبار.

كان يظل مفتوحًا حتى الثانية صباحًا أمام كل القادمين من أحباب الطريق، والغرباء أبناء السبيل، ومن لا مأوى لهم.. يدخلونه ولا يصدهم حارس ولا بواب؛ فالشيخ «أبو العزائم» أمر، وليس بوسع أي من مريديه أن يعصي له أمرًا:

ـ لا تردوا أحدًا، ولا تغلقوا الباب إلا بعد انتصاف الليل بساعتين.

كل هؤلاء كانوا يجيئون ويذهبون، وهم يدبون فوق الكنز الدفين. بعضهم يعلم، وأغلبهم لا يعلم، فالشيخ قال لمن حضروا ليلة الذهب:

ـ لا تقصوا ما رأيتموه على أحد.

لكن صدر «خلف» كان يضيق بالسر، ويَثقُل عليه كتمانُه. ولما لقي الشيخ وجه ربه فكأنما خفتت لديه رهبة حضور العارف ونفاذه إلى نفسه، فباح لبعض إخوان الطريق ونفر من أبناء قريته بما ناء بحمله زمنًا، همس به أولاً، فووجه بالدهشة والإنكار والتماع الأعين إكبارًا أو رغبة أو طمعًا أو اتهامًا بالخرف أو الضلال، وإن لم يعهد كل هؤلاء على محدِّثهم كذبًا أو سفهًا أو خفة عقل... إلخ.

وهمس أحدهم في أذنه ذات يوم بسؤال:

ـ من أدراك أن الكنز لا يزال في مكانه؟

رفع «خلف» رأسه فبان في عينيه شرود وأسى، وأجاب في هدوء:

ـ في مكانه .. أنا ردمت الحفرة بنفسي.

ـ ربما أخذ شيخكم الذهب بعد أن أعمى عيونكم بالتراب الذي أهاله عليها.

صرخ «خلف»:

ـ لا تقل هذا على شيخنا يا رجل.

اقترب منه أكثر، واستمر في الهمس:

ـ بدلًا من أن تصرخ في وجهي، كان عليك أن تسأل شيخك من أين له بالمال الذي يجري في يده؟

ـ قطع الله لسان من يرمي شيخي بسوء.

ـ أنت من فتحت باب الظنون.

ـ أظن في نفسي، ولا أظن في شيخي.

ـ إن كان الأمر كذلك، فعلامَ تندم؟

ـ يعضني الفقر فأتمنى لو كان الشيخ قد تركني أحفن من الذهب حتى أكتفي.

ـ كلنا حولك فقراء، ولا نحلم سوى بملء بطوننا.

أطرق «خلف» صامتًا، ثم راح يهز رأسه، لينفض منها كل ما سمعه، وهام على وجهه فوق الجسر الذي يربط قرية «المطاهرة» بالقرى الأخرى، ينقل قدميه بصعوبة فوق التراب الناعم، الذي ألهبه القيظ. كان تائهًا، يملأ عينيه من الزرع الممتد، الذي تحط السماء على طرفه البعيد، ثم يرفعهما إلى قلب الشمس المتوهجة، فترتدا إليه كسيرتين مغمضتين.

في لحظة العتمة تلك، كان يرى وجه الشيخ «أبو العزائم» مبتسمًا، وفي عينيه ألق وامتنان. يسأله سريعًا، قبل أن يعود إليه بصره:

ـ لماذا لم تنس أنت نصيبك من الدنيا؟

وجاءته الإجابة أسرع مما قدَّر:

ـ أنت لا تنظر إلا إلى الصورة.

ـ لا أرى غيرها يا شيخي.

ـ غيرك يرى.

وظل «خلف» يسأل بعدها إخوانه من المريدين عما يرونه في شيخهم، وحين يجلس هو إليه يدقق النظر في وجهه وهندامه، ويتوه في ظنون لا يعرف كيف يخرج منها. وكان الشيخ «أبو العزائم» يرمقه من طرف خفي، ويعرف الكثير مما يدور داخله، لكنه لا يسأله عن شيء.

وحكى «خلف» لابنه أن الشيخ لم يطرده من الطريقة، رغم أنه كان يرى الدنيا تطل من عينيه. هكذا قال له ذات مرة، ولكنه وعده بأن كل ما يشغله سيتبخر ويذوب كأنه لم يكن. وكان هو حين يجلس وحيدًا، يرى شيئًا ملونًا يخرج من جبهته، ويمضي في الهواء حتى يستوي أمام ناظريه، وهو يرقص ويدور، ويخرج منه نورًا مبهرًا، يبدأ خيوطًا رقيقة، ثم يستغلظ، ويصير قضبانًا عريضة تتلألأ، تتشكل في مستطيلات ومربعات ودوائر، عليها كؤوس وأطعمة، تمتد إليها أيدي فتيات

كاسيات عاريات فائقات الحسن، وفجأة تتحول كل هذه الأشكال إلى سواد من غبار، لا يلبث أن تأخذه ريح تهب بلا هوادة، ولا يبقى سوى الفراغ.

أنصت «ماهر» إلى «عليوة»، ثم سأله:

ـ ألم ير جدك قبل أن يذوب كل شيء أمام ناظريه من الشخص الذي مد يديه، وغرف الذهب؟

أجاب ضاحكًا:

ـ أبلغني أبي بأن جدي قال وهو في النزع الأخير إن حيرته لم تتبدد بعد.

وكان على «عليوة» و«ماهر» أن يقتلا الظنون، التي راحت توخز رأسيهما بلا هوادة.

2

لم يجد «ماهر» و«عليوة» طريقًا لتبديد الحيرة، سوى الثرثرة والغرق في الأمنيات الكاذبة.. يقضيان أغلب الوقت بالمكتب في حديث حول الكنز المطمور تحت الأرض والزمن، يشكو كل منهما إلى الآخر قلة حيلته وهوانه على الظروف القاسية التي أوقعت الجميع بين شقي الغلاء والفساد.

أنصتا طويلًا إلى الساعي البدين، وهو يحكي عما وجده في قريته حين عاد إليها في زيارة خاطفة.

قال الساعي، وهو يضع فنجانيّ قهوة على مكتبيهما الصدئين:

ـ الناس اتسعرت.

تطلعا إليه متسائلين، فراح يشرح لهما، وهو يضرب كفًّا بكف:

ـ الناس عضهم الفقر، ولم يجدوا شيئًا فوق الأرض، فنزلوا تحتها يفتشون عن أي رزق.

ـ رزق؟!!

سأله «ماهر» و«عليوة» في نفس واحد، فأجاب الساعي:

ـ يُنَقِّبُونَ عن كنوز دفنها الفراعين من آلاف السنين.

سأل «ماهر» من جديد، لكن في لهفة أشد:

ـ هل وجدوا شيئًا؟

قهقه حتى كاد يسقط على قفاه، وأجاب:

ـ جاري حفر أرض بيته عشر ليال كاملة، حتى وصل إلى سابع أرض، ليلقى حجر صوان كبير، له سنون كقرون البقر.

نَقَّل «ماهر» بصره من وجه الساعي إلى وجه «عليوة»، وقال:

ـ يبدو أن كنز الشيخ الكبير لن يزيد عن هذا أبدًا، قطعة حجر ملفوفة في الطين.

طوح «عليوه» يده في الهواء، وقال وهو يغالب مسحة غضب، تغضن بها وجهه العريض:

ـ من المؤكد أنه ليس كذلك.

عندها سأله «ماهر» في غيظ:

ـ ما الذي يجعلك واثقًا إلى هذا الحد؟

أجاب على الفور:

ـ أبي أكد لي ما قاله جدي له. وصف لي ما سمعه حتى جعلني أراه.

وقف الساعي مندهشًا مما يدور بينهما من حديث، ثم شخص ببصره؛ ليثقب وجهيهما المكسوين بجدية ظاهرة. ولم يلبث أن انتابته موجة عارمة من الضحك، وقال:

ـ أتمنى لو كان هذا الكنز في مبنى النظارة أو في العمارة، التي بها هيئة الأوقاف، فيهدمه ناظرنا الطامع، ونحصل على إجازة طويلة مدفوعة الأجر.

رفعا بصريهما إليه، وغرقا في الضحك، وانهمرت القهقهة من الباب المفتوح إلى المكتب المجاور، فهرع إليهما زملاؤهما متطلعين إلى ما يجري. لكن «ماهر» غمز بعينه إلى «عليوة» ثم سألهم:

ـ هل سمعتم عن آخر نكتة؟

هزوا رؤوسهم، وقال أحدهم:

ـ لا يوجد في هذا البلد أكثر من التنكيت.

وقال آخر:

ـ أضحكونا معكم، ولكم الثواب.

فسألهم «ماهر» ضاحكًا، وهو يحاول أن يطيل الكلام حتى يتذكر شيئًا يقوله:

ـ كم تدفعون؟

ـ ندفع؟!!

تساءل اثنان منهم تباعًا، فأجابهم:

ـ نعم، فحتى الضحك في بلدنا صار له سعر بعد تعويم الجنيه.

وعلق «ماهر» بعد أن زفر في حرقة:

ـ عوَّموا الجنيه فغرقنا نحن.

لم يضحك أحد، بل انفتحت في رؤوس الجميع نوافذ الأسى، ففتش «ماهر» في رأسه عن أية نكتة قديمة يرددها على مسامعهم، لكن ذاكرته لم تسعفه بشيء. لم تأت إليها سوى حفرة عميقة على ضفافها أكوام من التراب اللدن، لا تخفي سباتك لامعة تكاد تضيء، وعيون مغبرة لرجال متعبين يفتحونها ويغمضونها على عجل بينما شفاههم تتلمظ كأنهم مقبلون على وليمة شهية. ورأى عمامة خضراء تهتز في نسائم طرية، ثم تحط فوق الحفرة فتغطي كل ما حولها.

ورآه «عليوه» غارقًا في شروده، فأراد أن يقول أي شيء للزملاء المنتظرين ضحكات مجانية. مسح وجوههم بعينيه، وقال:

ـ لا نكتة ولا يحزنون، لكننا تخيلنا لو أن ناظر وقف البلد عرف أن كنزًا تحت أرض هذا المبنى، وقرر أن ينبش عنه، فتهاوت الجدران المتآكلة فوق رؤوسنا، ونحن منكبين على الأوراق والأقلام والأختام.

ضرب أحدهم جبينه بكفه، وسألهما ساخرًا:

ـ هل أنتما متأكدان أن الساعي لم يضع لكما في القهوة حبوب هلوسة؟

وقال آخر:

ـ نظارتنا تعوم على كنز فوق أرض البلد كلها، من شرقها إلى غربها، يغرف الناظر وأعوانه منه، كما غرف سابقوهم، لكنه لا يفنى.

همَّموا للانصراف لكن «ماهر»، الذي عاد من شروده، استوقفهم قائلًا:

ـ جئتم وتذهبون بلا شيء .. سأحكي لكم حكاية رواها لي شيخ الطريقة العزمية، نقلًا عن مؤسسها الشيخ الكبير.

صمت برهة، وهو يجمع نثار ما يريد أن يحكيه حتى اكتملت الحكاية في رأسه، فعاد بظهره إلى المقعد الخشبي، الذي يئز تحته، لكنه قبل أن ينطق، قال له أحد الزملاء:

ـ هل كان الشيخ الكبير عابدًا أم قاصًا؟

ـ كان عابدًا وعالمًا وقاصًا له في الحكايات باع طويل.

لكن أحدهم، قال:

ـ الملفات غطت المكتب .. لدي شغل كثير، ولا وقت لديّ لسماع حكايات.

وانصرف، وخلفه الجميع، ومشى الساعي وراءهم رافعًا صينية القهوة على كفه، ثم أغلق الباب بأطراف أصابعه، مُحدثًا أزيزًا ملأ آذان «ماهر» و«عليوة»، اللذين أدركا أنهما ضيعا أغلب وقت هذا اليوم في

الحديث عن الكنز المدفون، وكان عليهما أن ينجزا الكثير من الملفات المرصوصة فوق مكتبيهما، فانكبا على العمل بنهم، كأنهما قد خلقا له فقط، حتى حلت الثانية بعد الظهر، فقام كل واحد منهما يشد منكبيه، وهو يشعر بجوع شديد.

اتفقا وهما يهبطان السلالم إلى شارع «التحرير» أن يتناولا غداءهما خارج البيت. وما إن دارا في ميدان «الدقي» حتى ملأت أنفيهما رائحة الشواء المنبعثة من حاتي «عظمة»، فسارا إليه، وجلسا على طاولة من تلك المرصوصة في القوس الجنوبي الشرقي للميدان ينتظران قدوم النادل.

كان الجالسون مقبلين على الطعام بشهية مفتوحة، وفوق رؤوسهم تطير سحابات دخان كثيف، لكنهم لم يعبأوا سوى بملء بطونهم، حتى إن أيًا منهم لم تلفت انتباهه نظرات «ماهر» ولا الابتسامة الساخرة المرسومة على شفتيه.. أخذ يتمتم في نفسه وهو يراهم على هذا النحو: «كأن الإنسان خلق ليأكل»، ثم شرد في دائرة الحيرة التي ترسم نفسها أمام ناظريه باستمرار:

«بطن تجوع ولا بد من طعام، والأطعمة عند الجزارين والفرارجية والسماكين والبقالين وباعة الخبز والخضار والفاكهة، وكل هؤلاء يريدون المال، والمال في الجيب، والجيب لا يستقر فيه إلا راتب ضئيل آخر كل شهر، فما عسى واحد مثلي أن يفعل سوى أن يسرق أو يرتشي.. لست خبيرًا بالسرقة، ولست في وظيفة تتيح لي أن آخذ رشوة

من أي أحد، لكن هناك طريقة أخرى، إنه الكنز، ذلك الحلم الذي يرفرف في رأسي ليل نهار، حين أجده سأغرق في بحر من المال، وعندها آكل وأشرب كل ما أشتهي، وقد أفتري على زوجتي الصالحة، وأتزوج عليها ثلاث فتيات فاتنات، أو أربعة بعد أن أطلقها».

وبينما تاه «ماهر» في دائرته المحببة إلى نفسه، انشغل «عليوة» بالرد على مكالمة رن لها هاتفه المتحرك. بدا على وجهه انزعاج شديد، وراح يتساءل:

ـ معقول .. معقول .. لا يمكن .. لا يمكن.

لم يجزع «ماهر» لما سمعه، إذ إن شروده اللذيذ لم يكن قد انتهى كاملًا، كما أنه يدرك أن صاحبه ينطبق عليه المثل الشائع: «يعمل من الحبة قبة»، وطالما صرخ في هاتفه أو اندهش ثم اتضح أنها مسألة فارغة. وكان يقول له أحيانًا، حين يجد أن ثورته ورعبه لم يكن لها أي سبب:

ـ أنت ممثل كبير.

وأحيانًا كان يخشى أن يكون حديث «عليوة» عن الكنز مجرد استجابة لهذه النزعة الدرامية، في فتح كل باب غريب ومدهش ومثير.

لهذا ترك وجهه معلقًا على نوافذ الدهشة والانزعاج، وراح يمد بصره إلى عمق الشارع حيث المحلات ولافتاتها مختلفة الألوان

والأحجام والأشكال. وحط عينيه على ظهر رجل يقف هناك أمام واجهة زجاجية لمحل مجوهرات، يده في جيبيه، وعيناه مصوبتان بعناية إلى المشغولات الذهبية.

رفع يده في وجه «عليوة» كي يأخذ بصره ناحية ذلك الواقف في ردائه الرمادي كتمثال من البرونز، ولكنه سمع جملة جعلت يده تتجمد مكانها:

ـ الخبر وصل ناظر وقف البلد، هكذا أبلغني سكرتيره.

ـ أي خبر؟

ـ خبر الكنز.

ـ ماذا تقول؟

ـ ما سمعته.

مط «ماهر» شفتيه، وهز رأسه في استهانة، وسأل:

ـ وما المشكلة في هذا؟

جاءته إجابة «عليوة» صاعقة:

ـ أنسيت أن البيت الكبير مؤجر من الأوقاف؟

ـ لا .. لا، ليس هذا بالضبط. شيخ الطريقة أكد لي أن جده اشتراه، بعد أن ظل يؤجر المكان سنوات.

ـ هل معكم أوراق تثبت هذه الملكية؟

ـ طبعًا .. وحتى لو لم تكن هناك أوراق، فقد اكتسب العزميون ملكيته بالتقادم.

طوح «عليوة» يده في الهواء، ثم رماها إلى جانبه، وشرد قليلًا، وعاد:

ـ هناك شيء غريب في كلام سكرتير ناظر وقف البلد.

ـ غريب؟!

ـ قال لي عبارة في وسط الكلام، لم أنتبه إليها في حينه، لكنها الآن تزيد من قلقي.

ـ أية عبارة؟

ـ الجالس على الكرسي الكبير مهتم بالموضوع.

صمتا معًا، وشرد كل منهما في مخاوفه، فتبدد الجوع، وقاما بمضغان المرارة التي نشبت في حلقيهما، ومضيا إلى نهر الشارع، وعبرا إلى الرصيف الآخر.

كانا تائهين يتخبطان في المارة، لكنهما لا يريان من الوجوه سوى وجه واحد جامد على استدارته، وغارق في المكر والدهاء والحيلة، إنه وجه ناظر وقف البلد الذي لم يدخلا مكتبه من قبل، وها هما قد فهما أنهما سيدخلانه في الغد، أو بعد غد على أقصى حد.

3

لم يُخلص الساعي سوى لما اعتاد عليه، يلملم الأخبار المتناثرة في مكاتب الموظفين، ويسكبها في أذنيّ رئيس الهيئة، بعد أن يضيف إليها من عنده ما يثير. قال له وهو يضع كوب الينسون الساخن على مكتبه العريض:

ـ حكاية اليوم مختلفة كثيرًا.

رفع عينيه من تحت نظارته السميكة وقال:

ـ هات ما عندك.

حكى كل شيء، وزاد عليه الكثير، حتى تصور الجالس على مكتبه، من فرط اندهاشه وتأثره بما سمع، أن الكنز صار قريب المنال. وما إن انصرف الساعي حتى رفع رئيس الهيئة سماعة الهاتف، وقال لناظر وقف البلد:

ـ وجدتها.

كان بالأمس جالسًا أمام الناظر يضع إصبعيه في أذنيه وهو لا يكاد يصدق ما يسمعه، فقد عرف أن الجالس على الكرسي الكبير بات مشغولًا بإخراج ما في باطن الأرض من كنوز، بعد أن فشل في توظيف

ما فوقها لتجاوز الأزمة الاقتصادية الطاحنة التي تمر بها البلاد. تصرف على هذا النحو بعد أن رأى في منامه، وهو الذي يصدق ما يحلم به ويجري خلفه فور استيقاظه، رجلًا يرفل في جلباب أبيض واسع، ويمسك عصا بيمناه، ويرفع يسراه نحو السماء البعيدة. كان يمشي على مهل، ثم يقف في أماكن يختارها، ويضرب قدميه في الأرض فتنفلق، وتخرج منها شرائح سميكة وسبائك ومشغولات ذهبية. تقف في وجه الريح، ثم تتمايل لترقص فرحًا بخروجها من سجن الأرض إلى العيون، التي تتابعها في لهفة، والأيدي التي تمتد إليها محاولة أن تقبض عليها.

تكرر الحلم في منامه، وكان يرى الرجل ذا الجلباب الأبيض يمشي على الرمال، وفي الشوارع والحواري، وعلى سطوح البيوت، وأحيانًا في الهواء. وكلما سار ترك وراءه أفلاقًا وحفرًا محشوة بذهب يخطف لمعانه الأبصار.

كان الرجل يجثو على ركبتيه، ويمد يده فيقبض على مختلف أنواع من الذهب المستسلمة تحت قدميه، ويرفعها في وجه الجالس على الكرسي الكبير، ويقول له:

ـ تظن هذه طريق قصيرة سهلة، وأن عليك أن تسلكها قبل فوات الأوان، لكن تمهل، فكنزي غير كنزك.

حين حكى ما رآه لمدير مكتبه، كاتم أسراره، أطرق صامتًا، وهو يحاول أن يخفي غضبه المكتوم، ثم قال له في هدوء:

ـ لم أسمع عن أحد جلس على الكرسي الكبير قبلك، وسار على هذا الدرب.

غمز له بطرف عينه، وقال بصوت متهدج:

ـ حاولوا وفشلوا؛ لأن عناية الله لم تكن معهم، أما أنا فالله يرعاني.

وعبثًا حاول أن يثنيه عن هذه الطريق، خوفًا من أن يصل الخبر إلى معارضيه، فيجدونها فرصة أخرى للسخرية منه. ولم تمر سوى أيام قلائل، حتى كانت سيارة فارهة تحمل ساحرًا مغربيًّا شهيرًا تدخل من باب القصر.

كان قد استعان بعرافين من البدو والصعيد، وجاءوا إلى القصر في خفاء، واصطحبهم ليلًا متنكرًا في زي غريب، وقدمه من معه من الحاشية على أنه «خرتي» محترف، ووسيط وسمسار يعمل مع تجار آثار كبار. قرأوا وتلوا وتمتموا وأطلقوا البخور، وأغمضوا عيونهم وتاهوا بعيدًا وعادوا، لكنهم لم يعثروا على أي شيء.

اقترح عليه ناظر المتاحف أن يبدأ رحلة البحث في الأماكن، التي ورد ذكرها في الكتب، وقال:

ـ من بينها ما حدد أرضًا بها كنوز ... هذا سيختصر الطريق.

وعرف عدد من النظار يعنيهم الأمر، ما تم الاستقرار عليه بعد طول بحث، فكان كل منهم يبذل قصارى جهده، في سبيل الوصول إلى

مكان أي كنز في أي كتاب، أو على لسان أي شخص مشغول بالكنوز، ولديه دلائل على ما يقول.

وانهال موظفون في النظارات المعنية على النظار بمذكرات مكتوبة عن أماكن كنوز سمعوا أو قرأوا عنها، لكن مصير كل هذا كان سلال المهملات، بعد أن تشككت اللجان، التي فحصت الأوراق، في عدم جديتها.

ورنت الهواتف الأرضية والمحمولة في المكاتب الفخيمة لستعجل أي خبر عما يبحث عنه الجالس على الكرسي الكبير، لكن كانت الردود تأتي دومًا خجولة خافتة تائهة، تترك الباب مواربًا أمام مزيد من الحيرة والخوف، ولا تقطع بشيء ذي بال.

4

عـاد «ماهـر» إلى مقـر الطريقة ينقل قدميـن متعبتين على أسـفلت متـرب غارق في رماد ما بعد الغروب. وقف تحت ظل الشـجرة، التي تبـدو كعلامة اسـتفهام في وجـه الممر المبلط المؤدي إلى بيت شـيخ الطريقة. وضع يده على جذعها المتشقق، الذي اتخذه النمل أعشاشًا، فلمـا قرصته نملات تدافع عن بيتها، رفعها على عجل، وفركها بشـدة حتى احمرّتْ، وراح يبللها بلعابه، لعل الألـم يغادره.

كان الشارع يغص بالعابرين. بعضهم كانوا خارجين للتو من محل «خيـر زمـان» وفـي أيديهم أكيـاس بلاسـتيكية مملوءة بسـلع متنوعة. بعضهم كان قادمًا من سـوق الخضار والفاكهة المجاور.. هناك الذين يسرعون الخطى في اتجاه شارع «بورسعيد» حيث المقاهي والمطاعم ومحـلات الملابس، وهناك من ينعطفون إلـى الممر ثم يصعدون إلى المسـتوصف. واحد فقط كان خارجًا من المسجد، يتوكأ على عصاه، تقـدم بخطى وئيدة حتى وقف أمـام «ماهر». رفع عينيه إليه وقال له في هدوء:

ـ متى تلبس الخيش وتأتينا؟

شعر باشمئزاز، ونفخ في وجه الرجل متسائلًا:

ـ خيش؟!!

ولوى عنقه حتى لا يراه، بينما كان الرجل متطلعًا إليه. وفجأة وجد نفسه مشغولًا به إلى أقصى حد، حين قال له:

ـ أتبحث عن الكنز؟

اتسـعت حدقتاه، واكتسـى وجهه عجبًا، وزال عنه اشـمئزازه، ورد في لهفة:

ـ هل تعرف مكانه؟

هز الرجل رأسه وأجاب:

ـ نعم.

أراد أن يحضنه بقوة، لكنه خشي على جسده النحيل أن يتفتت بين ذراعيه، فاكتفى بمد يده ليضعها على يد الرجل، وقال:

ـ قل لي أين هو، ولك منه نصيب.

أغمض الرجل عينيه، وارتسـمت على شفتيه ابتسامة هادئة، ثم مد يده ووضعها على صدر «ماهر»، وضغط قويًا، ثم قال له آمرًا:

ـ احفر هنا.

تاه قليلًا فيما سـمع، لكنه اسـترد وعيه بشـعور سـاخر من الرجل، فمـد يـده ورفع اليد الموضوعة علـى صدره، وتركها تهتـز في الهواء،

ثـم تخمد إلى جانـب صاحبها، الذي هز رأسـه، وانسـحب خطوتين إلى الخلف، وأعطى ظهـره لـ «ماهر»، ومضى على مهل صامتًا، حتى ابتلعتـه قطـع الظلام الرابضة تحـت الجدران، قبل أن يغيـب تمامًا في انحناء الشارع الطويل.

تابـع «ماهـر»، والحيـرة تأكلـه، انسـحاب الرجـل مـن أمامه حتى اختفائه، ثم أخذ يهذي:

"ماذا قال هذا الرجل الخرف؟ خيش وليف وأشـياء لا يمكن أن ألبسـها، ولـم يكتف بهذا، بل وضـع يده على صـدري وطلب مني أن أحفـر، هههههـه .. كأنني سـأخضع لمشـرط جراح فـي عملية قلب مفتوح، أو بين يدي واحد من هؤلاء الجهلة، الذين يريدون أن يشـقوا صدورنـا ليبحثوا عن الإيمـان .. لكني لم أر هذا الرجـل من قبل، فأنا كثيـرًا ما أتيت والناس خارجين من المسـجد، أعرف وجوههم جميعًا .. هذا الرجل لم يصادفني، يبدو أنه غريب من أهل الريف يزور أقرباء لـه، وإلا ما لبس الخيش الذي يعرفه أهـل الريـف جيدًا، ويصنعون منه أجولـه يملأونها بالقمح والفـول والذرة، وغيرها مـن المحاصيل ... لكن سـمته يبين أنه من زمان آخر .. شـيء يجنن، من هو؟ ومن أرسله لي؟»".

كـف عـن هذيانـه، وألقـى الـكلام الذي سـمعه من الرجـل تحت قدميـه، وداس عليه بلا تـردد. دخل الممر يضرب البـلاط البني فانتبه الغبار الراقد عليه، فهاج متصاعدًا نحو الأشـجار القصيرة المشـذبة..

اقتحمت عينيه أغلفة الكتب الواقفة في واجهة «دار الكتاب الصوفي»، تزدهي في ضوء لمبات استيقظت لتسهر الليل، فدخل من فوره.

لـم تكن هي المرة الأولى التـي يدخل فيها هذا المكان.. كان دومًا ينظر باستهانة إلى الكتب الموضوعة على طاولة مستطيلة تتمدد بطول المكان، وكذلك إلى كتب أخرى واقفة على أرفف خشبية قديمة. يقرأ العناوين وأسماء المؤلفين على عجل، وهو يضع كفيه في جيبي بنطاله، ثـم يعطيها ظهـره، ويخرج صامتًا، مادًّا بوزه إلـى الفراغ المحبوس في الممر.

هـذه المرة وجد يده تمتـد إلى بعض الكتب لترفعها، ثم راح يقلب صفحاتها بأصابعه الملدوغة، ويدس عينيه بين السطور. أخذه ما يقرأ، رغـم أنه لـم يفهم الكثير من العبارات المصاغة فـي عناية، حتى أنه لم يشعر بالرجل الصامت، الذي يجلس في الركن ناظرًا إليه.

كانت عيناه قد توقفتا دهشة عند صورة في كتاب عن الشيخ الكبير. صـورة قديمـة بلا ألـوان، يجلس فيها «أبـو العزائم» علـى مقعد عال، ويقـف رجال إلـى جانبيه وخلفه، بعضهم معمم، وكثير منهم حاسـرو الـرؤوس، تتفـاوت أعمارهـم، ثلاثة شـبان، وخمسـة كهـول، وثلاثة شيوخ، وطفل صغير يقف عند الطرف باسمًا.

كان يعرف صورة الشـيخ جيدًا، وطالما أحب أن ينظر إلى ملامحه المحددة الوسـيمة، التي يمتزج فيها الحزم باللين، والبهاء بالغموض. لكنها هذه المرة لـم تشـغله إنما صورة رجل يقف في المنتصف، وراء

هامة الشيخ تمامًا، وعيناه ذاهبتان إلى البعيد، وعلى شفتيه ابتسامة رضا مشرقة، يكاد يضيء لها ثوبه الداكن وعمامته التي باتت رمادية في صورة، تعود إلى عام 1930، كانت خضراء على الأرجح.

وضع عينيه في عيني الرجل فشعر أنه ينظر إليه مليًا، ويرسل إليه وحده هذه الابتسامة العذبة.. مد إصبعه ووضعه على وجهه، وتمتم: «إنه يشبهه .. قد يكون هو .. هو فعلًا».

سمعه الرجل الجالس في الركن فقام إليه، يتعثر في جلبابه الفضفاض. سار على مهل، ورغم أن قدمه ضربت سلة المهملات فوقعت واصطدمت بإحدى أرجل الطاولة فأحدثت صوتًا مسموعًا إلا أن «ماهر» لم ينتبه إليه.

نظر الرجل إلى الصورة من خلف كتف «ماهر»، وقال له:

ـ من الصور النادرة لشيخنا الكبير.

عندها انتبه إليه وأدرك أنه موجود، رغم أن هذا الرجل صار من مقتنيات المكان، بعد أن توحد مع الكتب التي يبيعها شحيحًا إلى من يطلبها، ولا يفارق مكانه منذ أن يبدأ عمله قبيل صلاة الظهر حتى بعد صلاة العشاء بساعة أو اثنتين على الأقل.

رفع «ماهر» وجهه إلى الرجل، وقال:

ـ أهلًا يا «عبده».

تقدم حتى حاذاه، وقال له:

ـ ليس من عاداتك أن تقف طويلًا أمام الكتب.

التفت «ماهر» إليه وسأله، وهو يمد إصبعه إلى الصورة:

ـ من هذا؟

صمت «عبده» برهة، وقال:

ـ واحد من مريدي الشيخ الكبير.

أعاد «ماهر» النظر إلى الصورة، وسأل من جديد:

ـ هل لا يزال حيًا؟

قهقه «عبده» وكانت المرة الأولى، التي يُسمع له صوت مرتفع، وقال:

ـ الشيخ توفاه الله سنة 1937 يا أستاذ.

لم يشعر «ماهر» بحرج من جهله، وعاد يسأل:

ـ هل لهذا الرجل أبناء؟

حك «عبده» ذقنه بطرف إصبعه، وصمت برهة، ثم نطق بصوت خفيض:

ـ أعتقد أن الإجابة عند شيخ الطريقة.

عاد يدقق في الصورة، وأغلق الكتاب، ومضى نحو الممر مشغولًا بما رأى.

قطع خطوات قليلة ثم عاد مسرعًا، وقال لـ «عبده»:

- أريد شراء هذا الكتاب.

دفع ثمنه جنيهات قلائل، والتقط الكتاب بين أطراف أصابعه، وتصفحه على عجل، وهو يمضي عائدًا إلى بيته، حتى أتى إلى الصفحة التي تحمل الصورة، وعاد يتأملها في عجب.

«شيء غريب أن يكون هذا الرجل قد غادر الصورة وجاء إليَّ أمام الممر، ليغرس يده في صدري، ويطلب مني أن أحفر فيه بحثًا عما أريد».

راح يحدث نفسه بصوت مسموع، حتى أن القطة المنكمشة إلى جانب الجدار فتحت عينيها واسعتين، ونظرت إليه في توجس.

«هي صورته، لكن لا يمكن أن يكون هو، فالصورة النائمة في قلب الكتاب تعود إلى تسعين سنة على الأقل. ربما الذي أتى إليَّ هنا قبل قليل هو ابنه، أو حتى حفيده وجار عليه الزمن فصار على هذا النحو المتهالك .. ابنه أم حفيده، الخبر عند شيخ الطريقة».

استمر في التحدث إلى نفسه، ولم يكف عن الكلام، حتى وضع قدميه على أول درجات سلم البيت، في طريقه إلى شيخ الطريقة. رآه الرجل العجوز الذي يجلس في مدخل البيت دومًا لاستقبال الزائرين، فأومأ له برأسه محييًا، لكن «ماهر» كان لاهيًا عن كل ما حوله إلا الصورة التي ملأت رأسه، وتراءت أمامه على الأرض والجدران.

وجد شيخ الطريقة يجلس إلى مكتبه منكبًا على أوراق وكتب أمامه، بعضها متراص بانتظام، وبعضها مبعثر، وفي يده قلم من الحبر الجاف، ينظر في الورق بإمعان، وينقل ما يكتبه على ورقة بيضاء. بدا على وجهه إرهاق وحيرة وغضب مكتوم، ومع هذا استمر فيما يفعله، ولم يأبه بمن دخل عليه.

شعر «ماهر» أن الشيخ ربما لا يكون مستعدًّا للإنصات إلى أسئلته، التي لا تتوقف في الفترة الأخيرة عن الأيام القديمة للشيخ الكبير، والبيت الذي كان «سراي» وسيعة الأرجاء، تملأ عيون الذين يطلون عليها.

كان الشيخ يعرف أن «ماهر» إن جاء فلن يذهب إلا إذا أخذ ما يريده، لهذا لم يستمر في إغفاله طويلًا. وضع القلم، ونحَّى الأوراق جانبًا، ورفع إليه عينين متعبتين، وسأله بصوت متحشرج:

- خير يا «ماهر"؟

تقدم «ماهر» في هدوء، ومال على يد الشيخ وقبَّلها، وأطال في قبلته، فأدرك الشيخ أن السؤال الذي سيسمعه هذه المرة سيكون صعبًا، وإجابته قد تستغرق وقتًا أطول مما يظن.

عاد إلى الخلف، وراح ينظر إلى المقعدين المتوازيين أمام المكتب، فأشار له الشيخ أن يجلس فجلس من فوره.. فتح الكتاب الذي يهتز بين أطراف أصابعه، حتى وصل إلى الصورة، ثم مدها نحو الشيخ، وسأله في رجاء:

- من هذا الرجل؟ .. الرجل الذي يقف خلف الشيخ الكبير.

مد شيخ الطريقة يده، وقرَّب الكتاب من عينيه وغرسهما في الصورة، ورد على السؤال بسؤال:

- تقصد صاحب العمامة؟!

- نعم هو.

صمت برهة، وأجاب:

- أظنه الشيخ «مندور».

سرت دفقة من خيبة الأمل في نفس «ماهر"؛ فهو لا يريد ظنونًا، إنما حقيقة جليّة لا تقبل الجدل.. تمتم في سره: «تظن»، وحرص على أن يبلع الحروف حتى لا يسمعها الشيخ. وغرف على قدر ما يستطيع من مخزونه العامر بالحيلة، وقال:

- أريد أن أعرف اسمه ضروريًا.

ارتسمت ابتسامة خافتة على شفتي شيخ الطريقة، وقال:

- على الأرجح أنه هو، ولكن زيادة في التأكيد، فأنت تحتاج إلى أن تسأل «سيد الكفراوي»، فهو أكبر مريدي الطريقة سنًّا.

- حاضر، سأفعل.

وقبل أن يهم بالخروج، وجد شيخ الطريقة يقول له:

- ما شاء الله يا «ماهر» أصبحت تهتم بقراءة الكتب.

أراد أن يقول له إنها المصادفة وحدها التي دفعته إلى شراء هذا الكتاب، لكنه نطق بأمر مختلف:

- القراءة مفيدة يا مولانا.

هز شيخ الطريقة رأسه، ونظر إلى جانبه، والتقط كتيبًا صغيرًا، وقال:

- إن كنت قد عزمت على أن تمضي في الطريق، فابدأ بهذا.

ومد إليه كتيبًا ذا غلاف يمتزج فيه البنفسجي بالأحمر والأبيض والبرتقالي الخفيف، ومكتوب عليه «دروس في قصص»، وتحته اسم المؤلف.. ما إن وقعت عينا «ماهر» على الاسم «السيد محمد ماضي أبو العزائم» حتى شعر برجفة، ولم يعرف هل مصدر الرهبة التي انتابته أنه رأى اسم الشيخ الكبير، الذي يشعر بتهيب مريديه وتبتلهم وهم يأتون على ذكر اسمه ويحكون طرفًا من سيرته؟ أم لأنه توقع أن تكون هناك قصة عن الكنز في هذا الكتيب، توفر عليه الجُهد والسُّهد والعناء؟

قلَّب الكتاب على عجل حتى وصل إلى الفهرس، وراح يقرأ: «الناسك والمخترع» .. «السياسي والحكيم والغشيم» .. «ريانة الشرقاوية وزبيدة المصرية» .. «العالم والتاجر والفلاح» .. «المقتصد والمسرف والفاسق» .. «الجبان والمتوسط والمتطرف» .. «المجذوب والسياسي» .. «الصالح واللص والسُّكَرِي» .. «الفلاح

المصري والتاجر الهندي والمخدوع العراقي» .. «الفلاح والحكيم» .. «السائح في الأرض والسابح في السماء» .. «الجنة العاجلة والجنة الآجلة».

اجتاحه إحباط شديد، لكنه واسى نفسه:

ـ قد يكون قد تطرق إلى ما يشير إلى الكنز داخل أي من هذه القصص. لكن خاطرًا أشد لسعه، وجعل حدقتيه تتسعان، حتى ظن شيخ الطريقة أن جنونًا قد مسه، فنظر إليه في جزع، وقال:

ـ نظرة واحدة في الكتاب فعلت بك كل هذا، فما بالك لو قرأت هذه القصص واتعظت بما فيها.

لم يجد ما يرد به سوى الصمت، ومضى يتخبط في هذا الخاطر الذي اقتحمه بقسوة. وكما دخل يهذي، خرج يهذي، حتى أن الرجل الجالس في مدخل البيت ضرب كفًا بكف، وقال في نفسه: «الرجل دماغه فوّت».

كان هذيانه هذه المرة عما اكتشفه أخيرًا من أن الشيخ الكبير كتب كل هذه القصص، بل عرف قبل دقائق، أن له أيضًا مسرحية، اسمها «محكمة الصلح الكبرى»، وراح يقول: «ما أدراني ألا يكون الكنز مجرد قصة من هذه القصص، أو مسرحية تقادم عليها الزمن، وصدق بعض المريدين أنها حقيقية، مثلما يصدقون أشياء كثيرة، لم يكن لها أي وجود».

ما إن دخل إلى البيت حتى ألقى جسمه على السرير، رافضًا أن يلتفت إلى زوجته، التي جاءته لتسأله عما إذا كانت تضع الطعام على المائدة أم تنتظر بعض الوقت. وقفت بالباب، ولمحت كتابين على الوسادة، فقالت ساخرة:

ـ إذا كانت القراءة تجلب لك الاكتئاب، فلتستمر على حالك القديم.

وكانت قد لاحظت انشغاله وشروده وتأخره خارج البيت في الأيام الأخيرة، لكنه اعتاد أن يكتم كل ما يتصارع في رأسه عنها، ولا يبوح إلا لصاحبه «عليوة».

نام على ظهره، وراح يُقلِّب سطور القصص من جديد، وهو يردد في سره: «كنز .. كنز .. كنز»، لكنه بدا كمن يبحث عن إبرة في كومة قش. لا شيء عن هذا الذي يشغله. وما إن أتى المغرب حتى هبط سريعًا إلى المسجد يبحث عن «سيد الكفراوي». لم يكن يعرف سحنته على وجه الدقة، وكان يشتبه في أنه الرجل الذي صافحه عند الضريح قبل أسبوعين. سأل عنه حتى استدل عليه، فاقترب منه، ومد إليه الصورة النائمة في قلب الكتاب، وحط إصبعه على من يريد أن يعرف اسمه، فابتسم الرجل، وبانت أسنانه المثرمة، وقال:

ـ «عامر المهيلمي»، كان أخلص وأتقى من مروا عليَّ في عمري كله.

أشرق وجه ماهر بابتسامة عريضة، وسأل:

ـ هل له أولاد؟

هز «الكفراوي» رأسه، وأجاب:

ـ كان عقيمًا.

عاد «ماهر "يسأل، وهو يغالب لهفته:

ـ هل له أخ يشبهه؟

ـ كان له أخ لا يشبهه كثيرًا، ومات منذ سنوات بعيدة.

انتظم في الصف الأول للصلاة، وأداها شاردًا في صاحب الصورة، وموزعًا بين السحنة التي رآه عليها، وتلك التي تبتسم بين دفتي الكتاب. وأثناء التسليم، لمح بطرف عينه ضريح الشيخ الكبير وابنه. مربع تشع منه أنوار خضراء، وعلى جدرانه نقوش بديعة، بينها حوامل قصيرة رفيعة عليها مصاحف ذات جلود خضراء أيضًا. قام إليه، بعد انتهاء الصلاة، ووضع يده على فتحة صغيرة، وحملق في الضريح ذي الشاهدين الملتصقين، وقال في سره:

ـ آه لو أسمع هاتفًا من هنا يخبرني أين الكنز الذي ارتضيت أن تهديه للطين والعتمة.

وبرق في رأسه من جديد وجه «المهيلمي» فاعتبر أن الشيخ قد أرسل له إشارة بالفعل، لكنه يبدو عاجزًا عن فك شفرات ما سمع، بل أشد عجزًا عن فهم ما جرى كله.

«هل خرج من قبره، وجاءني ليقول لي أن أحفر في صدري؟ أم أنه لا يزال حيًا؟ يا لغبائي! أيكون حيًا كل هذه السنين؟ ربما طيفه، لكن كيف يأتيني طيف رجل لا أعرفه؟ ربما يكون هاتفًا ناداني من داخلي، وتصورت أنه يقف أمامي. وقد أكون قد رأيت الرجل في الحلم. لكن أي حلم هذا؟ كنت عائدًا من مكان عملي والشمس لا تزال تملأ الدنيا نورًا».

راح «ماهر» يكلم نفسه من جديد، والحيرة تتخبطه، ولم يكن أمامه من سبيل سوى أن يزيح عن رأسه كل ما يتعلق برؤية الرجل، وأن يركز أكثر على ما سمعه منه.

وهاتف «عليوة» بعد العشاء، وطلب منه أن يأتيه مسرعًا إلى مقهى، بجوار المدرسة «الخديوية»، اعتادا أن يلتقيا فيه، فجاء يلهث وعلى وجهه صفرة. وما إن جلس إليه حتى قال:

ـ كان يمكنك أن تخبرني في التليفون بما تريد، وترحمني من المشوار.

ـ لا ينفع.

تعجب من قوله، فهو لا يكف كل يوم عن الثرثرة معه عبر الهاتف، وزادت ثرثرته بعد أن أخذهما معًا حديث، انتهى بانعقاد عزمهما على أن يجدا الكنز، الذي تركه الأجداد وراء ظهورهم. لكن «ماهر» اقترب منه ليُفهمه:

أن هاتفينا مراقبان، بعد أن وصل أمر الـ... إلى ناظر وقف

ليوة» حتى أزَّ مقعد الخيزران من تحته، ...

ن هذه الوساوس والهلاوس التي تطارد...

نه أكثر وهمس في أذنه:

قل إن الرجل الجالس على الكرسي الكبير مهتم

قلب «عليوة»، وبلع ريقه وأجاب:

قال لي سكرتير ناظر وقف البلد.

كلامه صحيحًا، فلابد أن يكون تليفوني وتليفونك

رة» وعيناه ذاهبتان إلى لوحة ورقية ساكنة ... إطار خشبي
بع فيها أسعار المشروبات الساخنة و... الباردة والنرجيلة
شيئًا، ثم عاد من شروده وقال:

أن نقطع الحديث عن الكنز، وفي الصباح ندعو زملاءنا
وا منا كلامًا عنه، ومعهم الساعي، ونفهمهم جميعًا أننا كنا
ية للتسلية.

ر» رأسه موافقًا على كلامه، ثم قال له:

ـ دعوتك لأمر آخر.

وحكى له عن «المهيلمي» الذي مات منذ سنين طويلة، لكنه أتى وغرس إصبعه في صدر «ماهر» وطلب منه أن يحفر فيه. وصف كل شيء كما جرى، وأضاف ما فعله هو في سبيل التحقق من هذا الشخص، ثم قال:

ـ جاء ليزيدني حيرة وذهب صامتًا.

نقر «عليوة» على الطاولة بأصابعه مرتين، فجاء النادل معتقدًا أنه يناديه، لكنه كان يعبر عن فكرة برقت فجأة في رأسه، لم يستطع عليها صبرًا. قال متهللًا:

ـ حدد الرجل مكان الكنز، وأنت لا تدري.

نظر إليه «ماهر» ساخرًا، وقال وهو يضع يده على جبهة «عليوة":

ـ تخاريف محموم.

لكنه أزاح يده، وصرخ في ثقة:

ـ الكنز في قلب البيت.

قهقه «ماهر» ولكزه في جنبه قائلًا كي يخفض من صوته:

ـ وما هو قلب البيت يا فالح؟

ـ نحفر في المنتصف.

ـ منتصف ماذا؟ إن البيت صار بيوتًا ومسجدًا ومستوصفًا ودار حضانة ومكتبة وجمعية خيرية وممرًا وشارعًا.

ـ لن نعجز عن معرفة قلب البيت وقت أن كان «سراي الحنفي».

وسحب «عليوة» رشفة من كوب الشاي الساخن، فأحدث صوتًا يمتزج فيه الصفير بالشخير، ونظر إلى عمق الشارع؛ حيث تتزاحم السيارات عند مسار الرجوع، وبعضها يتمهل ليسمح للسائرين على أقدامهم بأن يعبروا إلى الضفة الأخرى، وغرق كل هذا في مختلف الألوان، التي تنبعث من واجهات المحلات المتتابعة على الجانبين.

5

كان هناك من يذهب ويحفر ويعود بلا شيء، فيتلقى ناظر وقف البلد مكالمة غاضبة من القصر، توبخه على التسرع في الإبلاغ عما لا وجود له، وتلومه على أنه لم يدقق معلوماته، قبل أن يزعج الجالس على الكرسي الكبير بأخبار فارغة.

هذه المرة يتم استدعاؤه على عجل، ويقال له إن الأمر يتعلق بكنز بيت «أبو العزائم»، الذي يثرثر الموظفون عنه في هيئة الأوقاف، ويقول بعضهم إنه يحوي قضبانًا من ذهب صاف تكفي، إن تم العثور عليها، لحل كل مشكلات البلاد.

ظل طيلة الطريق يشاكس عمامته، يرفعها ويضعها، ويكبسها فوق رأسه، ثم يزحزحها إلى أعلى، ويخلعها ويضعها على فخذه الذي كان يرتجف، ثم يعود ويرتديها، ويرسل نظرات عجلى إلى الشارع المزدحم بالسيارات، ويستحث السائق على أن يُسرع، فيتلقى أوامره صامتًا دون أن يعرف كيف يسلك سبيله بسلاسة وسط الضجة والزحام ورذاذ المطر، الذي يتكاثف على الزجاج الأمامي للسيارة السوداء الفارهة.

في سرّه راح ناظر وقف البلد يلعن الشيخ الكبير وأنجاله وآخرهم شيخ الطريقة، الذي لا يكف عن انتقاده أقوال الناظر وأفعاله، ويتهمه بنهب مال الوقف، وأنه لا يملك خطة لمواجهة المتطرفين، ويحرص دومًا على تأكيد أنه لم ينصت إلى ما نصحه به منذ سنتين، حين أرسل إليه كرتونة ضخمة تحوي كتب وقصص وأشعار الشيخ الكبير، ومعها رسالة قصيرة:

«إذا أردت أن تجدد الخطاب الديني، كما أسمعك تقول في كل مكان، فعليك بإرث شيخنا الكبير، ففيه كل ما تبحث عنه».

لكن ناظر وقف البلد أودع ما تلقاه في مكتبة الوزارة، ولم يكلف نفسه حتى بالنظر إلى عناوين الكتب.

في الطريق، تلقى الناظر مكالمة من القصر تستعجله. وما إن انتهى حتى صرخ في السائق، الذي لم تكن له من حيلة سوى أن يكرر على مسامع الناظر ما سبق أن قاله دومًا:

ـ لماذا لا يفتحون لمعاليك الشوارع، كما يفعلون مع نُظَّار آخرين.

لم يرد ناظر وقف البلد عليه كعادته:

ـ لست ناظر الداخلية.

بل زفر في غضب، وقال له متوعدًا:

ـ لا تضيع الوقت في الكلام، ابحث عن طريق مختصرة.

عاد السائق يناكف، كما يفعل في بعض الأحيان:

ـ يا دكتور، أنت تقول لي حين أسرع والطريق مفتوحة أمامي:

«العجلة من الشيطان»

وأحيانًا تقول منشدًا:

يا مسرع السير أبطيه

وامشي خطاوي خطاوي

من كان له رزق يأتيه

ولو كان في بحر داوي».

لم يسايره، كما كان يفعل دائمًا، إنما نهره هذه المرة:

ـ ركز في الطريق، وأسرع.

وانشغل بمحاولة استدعاء أي شيء عن عناوين كتب ودواوين شعر «أبو العزائم»، التي أرسلها له شيخ الطريقة، لكنه لم يكلف نفسه عناء النظر إليها. بدا نادمًا، فلو أنه طالعها سريعًا لكان من الممكن أن يحط ناظريه، ولو مصادفة، على أي شيء يتعلق بالكنز أو غيره، بما يجعله قادرًا على الرد على بعض الأسئلة، التي يتوقع أن توجه إليه، أو حتى أن يدور حولها بأشباه إجابة، فلا يبدو أمام الجالس على الكرسي الكبير كأي تلميذ خائب.

راح يستجمع من متاهات الذاكرة كل ما يعرفه عن شيخ الطريقة، الذي يخالفه الرأي والموقف في أغلب الأحيان، فربما استطاع بهذا أن يجد ما يقوله. وجاءته من قعر النسيان عبارة سمعها منه وهو يتحدث في برنامج تلفزيوني:

«معنا كنز عظيم لا يدرك قيمته سوى من كلف نفسه عناء البحث والتأمل».

كان يتحدث يومها وفي يده كتاب صغير الحجم، غلافه أزرق، لكن الكاميرا اللعينة لم تقربه إلى المشاهدين. لو كانت قد فعلت لتمكن ناظر وقف البلد، الذي كان يجلس وقتها إلى عشاء دسم في شقته، التي تطل على الفرع الأصغر للنيل بحي «المنيل» في القاهرة، من التقاط العنوان. وعصر رأسه ليأتي به دون جدوى، فهاتف سكرتيره ليجري إلى المكتبة، ويخرج الكتاب من بين رفوفها العامرة بكتب الفقه وتفاسير القرآن والسير والتصوف، ويقرأ له شيئًا منه، يعينه، حتى على أن يحوم حول إجابة أي سؤال يُطرح عليه.

عند باب القصر وجد سيارة فارهة أخرى تتأهب للدخول. حملق فيها ليتبين من بداخلها، لكن الزجاج المعتم حال بينه وما أراد. فتح نافذة سيارته، وأشار إلى ضابط على كتفيه نسر وثلاث نجوم، يقف كعمود رخام وخلفه عشرة جنود مدججين بالسلاح، فأتى إليه متثاقلًا. مد يده ليصافحه وهو يسأله:

ـ من يركب السيارة التي سبقتني في دخول القصر؟

هز العميد رأسه، وقال:

ـ لا أعرف.

نظر إليه متعجبًا، وقبل أن ينطق بشيء قال له:

ـ حتى لو أعرف، فلا يمكن أن أخبرك .. هذه تقاليدنا، فأرجو أن تفهمها.

هز ناظر وقف البلد رأسه، وهو يكتم غيظه، ثم أغلق الزجاج، وأشار إلى السائق فدخل إلى القصر متمهلًا. طلب منه أن يتبع السيارة التي أمامه ففعل، والتي لم تلبث أن توقفت هناك عند الباب الرخامي، وهبط منها رجل يرتدي قفطانًا يمتد حتى الكاحل، له كُمّان واسعان، ومطرز بخيوط ذهبية وفضية، كان ينتعل بُلغة بيضاء، لها بوز حاد. بدا الزي دالًا على هوية الرجل، فقال ناظر وقف البلد في نفسه: «لابد أنه مغربي .. على الأرجح هو ساحر مغربي».

أجلسوه نصف ساعة ينتظر، وحين دخل إلى المكتب الفسيح، وجد الجالس على الكرسي الكبير والساحر جالسين، الأول على مكتبه الفخيم، والثاني أمامه على الكرسي العالي المُذَّهب. أشار له أن يجلس قبالة الساحر، فجلس ناظر وقف البلد، وقلبه يرتجف، فترتعش أصابع يديه، إلا أنه هدأ، وتهللت أساريره، حين قال له:

ـ ولاؤك للدولة صار مضرب الأمثال، ويا ليت الجميع مثلك.

بلع ريقه، وقال بحروف تكاد ترقص في فمه:

ـ كلنا فداء البلد.

فتح الطريق لكلام أكثر وضوحًا:

ـ البلد في ضائقة، وعلينا أن نأخذ بكل الأسباب.

هز رأسه مؤمِّنًا على ما سمعه:

ـ مفهوم فخامتك .. مفهوم يا أفندم.

أشار بيده نحو الساحر، الذي كان يتابع الحديث صامتًا، وقال:

ـ جاء إلينا ليساعدنا، ونحن نُعوِّل عليه كثيرًا.

قام ناظر وقف البلد وصافح الساحر، ثم عاد إلى مكانه، وراح يتطلع إليه، فوجده يسأله:

ـ هل قلت إن الكنز موجود عند «أبو العزائم»؟

هز ناظر وقف البلد رأسه، وأجاب:

ـ أبلغوني بهذا، والعهدة على الرواة.

ابتسم الساحر وقال:

ـ هو لنا، كان منكم وأتى إلينا، ومنا وأتى إليكم، فحمل إلى هنا ما منحناه إياه، كما حمل أجداده إلينا ما منحتموه أنتم لهم.

لم يفهم لا الجالس على الكرسي الكبير، ولا ناظر وقف البلد ما قاله الرجل، فتطلعا إليه، فوجداه يقول:

ـ أصل «أبو العزائم» جاء من «عين ماضي»، وهي الآن في الجزائر، إنها بلد مولانا التيجاني .. بلد الزاوية العظيمة التي سحرت الرحالة والمؤرخين. والعين كان يملكها بني هلال أولاد يعقوب، الذين أتوا من المدينة المنورة، وساروا نحو بلاد الأندلس في طريق مهدتها الجيوش الفاتحة، فسكنوا سرقسطة، عاشوا وتزوجوا وأنجبوا، فلما دارت الدوائر على المسلمين هناك هربوا مع الهاربين، إلى «عين ماضي» .. كان الشيخ أحمد عويسي التيجاني عائدًا من الحج فوقع في هوى هذه البقعة الساحرة، فاشتراها من بني هلال، أبناء عمومته، وأسس قرية صارت الآن مدينة، وبني فيها قصرًا على غرار قلاع الشام، فهابه الناس وهاموا به في الوقت نفسه ... في هذه الأرض حلت بركاته، فصارت مقر الخيرات والنفحات، وظهر فيها فحول من الرجال، نبغاء وفقهاء ومن أهل الطريق.

لم يجد ناظر وقف البلد ما يقوله سوى:

ـ معرفة أصل الرجل قد يقربك من معرفة سر كنزه.

ابتسم الساحر وقال:

ـ الكنز الذي لاح لي غير الذي لاح لك.

ابتسم الجالس على الكرسي الكبير، وقال بصوت ممطوط متهدج:

ـ المهم أن هناك كنزًا.

6

في الوقت الذي كان فيه ناظر وقف البلد يتوجه نحو القصر مرتعشًا كان «ماهر» و«عليوة» يقطعان الردهة الطويلة الغارقة في نور مبهر يتدفق من النوافذ الغربية في طريقهما إلى مكتب مدير عام هيئة الوقف، وهما يغالبان الارتجاف، الذي جعل الضوء يرتعش أمام عيونهم الممتدة إلى لوحة مذهبة على الباب المغلق.

طرق أحدهم، ودخلا فوجداه واقفًا خلف مكتبه، ويده ممدوة إلى كومة أوراق أمامه يقلبها في عصبية شديدة. ما إن رآهما حتى قال لهما:

ـ ناظر وقف البلد يلح في طلبكما.

ثم جلس، وهو يمعن النظر إلى وجهيهما في تشف، وكأنه سيرسلهما إلى المقصلة، وأشار بيده نحو الباب في حزم مصطنع:

ـ تفضلا.

هناك أقعدوهما في غرفة الاستقبال، وقالوا لهما بلهجة جافة:

ـ ناظر وقف البلد استدعاه القصر الكبير، ولا نعرف متى يعود.

ازداد ارتعاشهما، وتبادلا النظرات في لوم، وتمنيا لو لم يأتيا في أي يوم على ذكر هذا الكنز. غاص كل منهما في أحزانه، وهو عاجز عن تفسير هذا النكوص الذي حدث له، فقبل سنوات قليلة تواعدا غير مرة في «ميدان التحرير» ووقفا يهتفان مع الهاتفين بسقوط النظام، وارتفع صوتهما في أروقة المصلحة، وجهرا بالحديث عن بعض العمائم الملفوفة على فساد وعفن، وعن الجيوب التي انتفخت من أثر النهب.

طالت الجلسة، وكان لا بد لهما أن يتخليا عن جزء من الخوف والحذر، فاقترب «ماهر» من «عليوة» وهمس في أذنه:

ـ منذ متى كانت الحكومة تهتم بالكنوز؟

كتم «عليوة» الضحك، وقال له:

ـ أغلب تجار الآثار من رجال الدولة الكبار.

صمت برهة وعاد يسأله:

ـ هل معنى هذا أن ناظر وقف البلد يتاجر في الآثار؟

تلفت حوله ليتأكد من أن أحدًا لن يسمعه، وأجابه:

ـ يبدو أن المسألة أكبر من هذا.

وبينما هما يتهامسان تقدم منهما موظف وقال:

ـ ناظر وقف البلد على باب المبنى، ويريد مقابلتكما الآن.

عاد إليهما الارتجاف، وجف ريقهما وكأنهما لم يتجرعا كل هذا الماء على مدار ثلاث ساعات من الانتظار، ثم وقفا وأصابع كل منهما

تمتد إلى زراير بذلته المفتوحة لتقفلها.

دخل ناظر وقف البلد من باب خلفي، وطلبهما على الفور، فوقفا أمامه بوجهين صفراوين وعيون زائغة. مال بظهره إلى الوراء، وطاوعه الكرسي، حتى كاد جذعه يستوي أمامها، ونظر إليهما، ثم قال:

ـ لا وقت لدي، أريد أن أسمع كل تفاصيل قصة كنز «أبو العزائم»، ودون ثرثرة.

تبادلا النظرات من جديد، ورأى ناظر وقف البلد ترددهما، ففتح هو باب الحديث:

ـ من منكما سمع عن موضوع الكنز أولا؟

لاذا بالصمت برهة، ثم نطق «ماهر":

ـ أنا يا معالي الناظر.

هز رأسه، وأشار إليهما أن يجلسا، ثم نظر إلى «ماهر»، طالبًا منه أن يحكي كل ما يعرفه عن الكنز، ثم حفزه:

ـ الكنوز مال عام، والدولة أقدر من أي شخص على استخراجها، وبالطبع لن تنسى نصيب من قام بالإبلاغ عنها.

بلع «ماهر» ريقه، وانفكت عقدة لسانه، فحكى كل ما يعرفه، فلما انتهى، طلب من «عليوة» أن يقول ما يعرف، فألقى كل ما في رأسه دفعة واحدة، وخرجا يتلفتان حولهما.

7

لم يكن ما سمعه ناظر وقف البلد كافيًا. وضع رأسه بين راحتيه، وأغمض عينيه محاولًا أن يتذكر كل التفاصيل؛ لعله يجد معلومة شاردة تقوده إلى منطقة أقرب في رحلة البحث عن الكنز المطمور. حاول وحاول، لكنه أخفق في أن يضيف جديدًا. ومع هذا لم يترك الأمر للذاكرة فحسب، فهناك من ينتظر الأخبار في القصر الكبير، لذا قام بتسجيل كل ما دار في اللقاء، منذ أن دخل «ماهر» و«عليوة» وحتى خرجا، ثم طلب سكرتيره، وأمره:

ـ خذ الشريط، وفرغ كل ما فيه، وهاته إليَّ.

جاءته الأوراق على عجل فقرأها بعناية. ووقع بصره على خطين كان عليه أن يسير فيهما على التوازي، لتكتمل لديه الصورة الأولى: وقف بيت «أبو العزائم»، وما يعرفه شيخ الطريقة.

لم يستغرقه التفكير سوى ثلاث دقائق، وبعدها طلب من رئيس قسم الأرشيف أن يبحث في الملفات القديمة عن هذا الوقف، وهاتف شيخ الطريقة طالبًا منه أن يأتي إلى مكتبه.

بينت الملفات أن الشيخ الكبير قد اشترى البيت بعد استئجاره سنوات، هكذا أبلغوه وهو في الطريق إلى بيت «أبو العزائم»، لأن شيخ الطريقة أبلغه بأنه يستعد للسفر إلى فرنسا بدعوة من مريديه هناك، ولا وقت لديه لهذه المقابلة إلا بعد عودته. لكن ناظر وقف البلد سأله في تودد:

ـ أليس لي عندك نصف ساعة فقط؟

صمت الشيخ برهة، وأجابه:

ـ إن أتيت إليك سأتأخر عن موعد الطائرة، وأنت تعرف أن الطائرات لا تنتظر أحدًا.

فوجئ بناظر وقف البلد يقول له:

ـ أنا الذي سآتيك.

مسافة قصيرة بين مبنى الوزارة وبيت «آل العزائم» لم تستغرق سوى ربع ساعة. وحين هبط ناظر وقف البلد من سيارته أمام المسجد، وجد ثلاثة من مريدي الشيخ في انتظاره. وما إن وضع قدميه على أول الممر حتى راح يطيل النظر إلى كل شيء: بلاط الأرض، والجدار الأيمن، وواجهة «دار الكتاب الصوفي»، وكذلك صف الأشجار القصيرة المشذبة، والقطط الرابضة، وكلب يجري نحو الشارع فزعًا، واللافتات المعلقة على واجهات: «الجمعية الخيرية» و«المستوصف» و«دار الحضانة» و«مركز مكافحة الإدمان»، والكشك الصغير الذي

يقف في الركن الأيسر، حارسًا يقظًا للحارة الخلفية، وبعض الأحجار الضخمة الملقاة جانبه.

وجد الشيخ يقف على باب مكتبه في انتظاره، فلما رآه أبدى له اعتذاره؛ لأنه كان مضطرًا لاستغلال الوقت في ارتداء ملابس الخروج من أجل استقباله، واستعدادًا للسفر أيضًا. مسح ناظر وقف البلد المكان سريعًا بعينين يقظتين، فامتلأتا بكعوب مجلدات الكتب، وراء مكتب من خشب الزان عليه لوح زجاجي سميك، وفوقه كتب وأوراق وأدوات مكتبية غالية الثمن. وفي الجهة الأخرى، تطل صورة الشيخ الكبير، وعن يمينها ويسارها صور الشيوخ الذين تعاقبوا على الطريقة منذ وفاته، وحولها أطر مذهبة، وتحتها خزانة مكدسة بكتب أخرى، وكنبة بنية اللون مكسوة بجلد ناعم، تحط على سجادة نفيسة.

دار في ذهنه على الفور سؤال: «من أين له بكل هذا؟ ألا يكون قد عثر على الكنز منذ زمن، فمكنه من بحبوحة العيش؟ الموظفان اللذان التقيتهما، قبل ساعتين، قالا إن شيخ الطريقة يعرف حكاية الكنز، كما إنه رجل درس الجيولوجيا، ومثل هذه الأمور تهمه».

في شروده القصير تابعه شيخ الطريقة، الذي كان غير مستريح لزيارته، ولا لسحنته، لاسيما في هذه اللحظة، التي بدا فيها كأنه من يكاد الجوع يقتله، ووجد أمامه فجأة وليمة عامرة بألذ طعام.

ابتسم الشيخ وقال له:

ـ إلى أين ذهبت يا معالي ناظر وقف البلد؟

بادله الابتسام، وأجاب:

ـ أفكر من أين أبدأ؟، فقد «جئتك من سبأ بنبأ يقين».

تطلع الشيخ إليه، وأشار له كي يأتي بما عنده، فلم يتأخر عليه، بل دخل في عمق ما يريد مباشرة:

ـ بلغ الجالس على الكرسي الكبير أن في بيتك كنزًا كبيرًا.

بدا الشيخ مأخوذًا بما سمع، فلم يبادله الكلام، ولاذ بالصمت، فواصل ناظر وقف البلد:

ـ لدينا ما يبين وجود خبيئة تنام تحت أرض هذا البيت، ولا بد من إخراجها، فخزينة الدولة خاوية، ونحتاج إلى كل مصدر يعينها.

ابتسم الشيخ، وقال متعجبًا:

ـ من المؤكد أنك تمزح.

اكتسى وجه ناظر وقف البلد بجدية صارمة، وقال وهو يكتم غضبه:

ـ هل أجيء إلى هنا لأهزر معك.

حاول الشيخ أن يبعد الحديث عن هذا الأمر قليلًا، حتى يستوعب ما سمع، فسأله:

ـ هل وصلتك كتب الشيخ؟

هز رأسه، وأجاب:

ـ نعم.

ـ وهل قرأتها؟

ـ لم أجد وقتًا حتى الآن، لكنني سأقرأها لاحقًا.

بدا للشيخ أن ناظر وقف البلد يعرف الكثير عما أثير عن موضوع الكنز في الزمن الأول للطريقة، لكنه لم يجد ما يقوله سوى:

ـ هذه حكايات تناقلها الناس، ولا نعرف لها أصلًا.

ابتسم ناظر وقف البلد وقال له في هدوء:

ـ لكنها مذكورة في كتبكم، وفي كتابك أنت شخصيًا عن جدك.

اتسعت حدقتا الشيخ، وهز رأسه، وسأله:

ـ ألم تقل إنك لم تقرأ ما أرسلته إليك؟

ـ هناك من قرأ وأبلغني.

ـ أنا نقلت من كتب، وهي استندت إلى حكايات تقادم عليها الزمن، وربما هناك من اختلقها، فلما تداولتها الألسن استقرت عند مريدي الطريقة على أنها حقيقة.

صمت ناظر وقف البلد برهة، وقال:

ـ لن تخسر شيئًا إن تأكدنا منها.

أشار الشيخ إلى الكتب الواقفة على أرفف مكتبته، وقال:

ـ أرسلت إليك كتب شيخنا الكبير، لتدرس ما فيها بنفسك، وعندها ستتأكد من أنني أقول لك ما أراه الحقيقة.

ـ لا نريد أن يقتصر الأمر على البحث في الكتب.

ـ لا يوجد عندنا غيرها.

ـ توجد الأرض، هي التي ستبين الصدق من الكذب.

انتفض الشيخ واقفًا:

ـ الأرض! أتعني ما تقوله حقًا؟

رد ناظر وقف البلد في هدوء:

ـ كل ما يعنيني هو الوصول إلى الكنز.

ـ أي كنز هذا الذي يجعلكم تفكرون في هدم كل هذه البيوت، وتشريد أصحابها.

ـ قد نجد ما نبحث عنه بعيدًا عن البيوت .. ربما يكون في أرضية الممر أو الشارع الخلفي، أو حتى المسجد ودار النشر.

ـ أنت تبحث عن وهم.

ـ لن نخسر شيئًا.

ـ نحن الذين سنخسر الكثير.

ـ الدولة ستعوضكم.

كاد الشيخ يفقد أعصابه تمامًا:

ـ الدولة تأخذ دائمًا، ولا تعطي أحدًا.

صمت ناظر وقف البلد برهة، ثم قال:

ـ هناك من سيدلنا على مكان الكنز بدقة، فإن وجدناه في مكان بوسعنا أن نحفر فيه بسهولة سنفعل ذلك، وإن لم نجد فقد نجد حلًا آخر.

ـ أي حل؟

ـ ننتظر حتى تصير هذه البيوت آيلة للسقوط.

قهقه الشيخ حتى اهتز المقعد تحته، وضرب جبهته بكفه، وقال:

ـ وهل الجالس على الكرسي الكبير، أو أنت، أو أنا، سنعيش حتى يأتي هذا اليوم؟

ـ نسجل ما نصل إليه في دفاتر، وتستفيد الأجيال القادمة.

أدرك شيخ الطريقة أن الحديث مع ناظر وقف البلد لن ينتهي إلى شيء مفيد، وقد أزف موعد السفر، فاغتصب ابتسامة من قلب شعوره بالاشمئزاز والغضب، وسأله:

ـ منذ متى كان الجالسون في كراسي حكم بلدنا يفكرون في الغد؟

تجاهل سؤاله، وأدار وجهه بعيدًا. اقترب الشيخ منه، وقال:

ـ لنترك هذا الأمر حتى أعود من السفر.

مد ناظر وقف البلد يده إلى عمامته فثبتها جيدًا فوق رأسه ثم قام متثاقلًا، وقال وهو يهز رأسه:

ـ على خير ... علي خير.

وعاد من بيت «أبو العزائم» كاسف البال، لأنه لم يخرج من لقاء شيخ الطريقة بشيء جديد. وكان عزاؤه الوحيد هو أنه قد هيأ الشيخ لانتظار أي إجراءات تُتخذ في قابل الأيام.

كان حراسه ينتظرونه تحت البيت، وهم يقلبون عيونهم في أعماق الحارة والممر وعلى شرفات البيوت وفي وجوه العابرين. فلما رأوه ساروا خلفه صامتين حتى بلغ السيارة التي كانت تنتظره أمام المسجد. فتح السائق له الباب، فركب ورمى ظهره إلى المقعد مغمضًا عينيه من الإرهاق. وقبل أن تمضي السيارة في طريق العودة سمع طرقات خفيفة على نافذتها المغلقة المعتمة. رفع بصره فرأى رجلًا طاعنًا في السن، ذا عمامة خضراء، في يده عصا غليظة مستوية، يتوكأ عليها، ثم يشرعها في الهواء، فتتعامد مع ألق عميق يشع من عينيه. ضغط الزر فصار وجهه يصافح وجه الرجل، الذي كان يميل إليه ويسأله:

ـ هل جئت من أجل الكنز؟

تهللت أسارير ناظر وقف البلد، وقال على الفور:

ـ نعم يا عم.

ابتسم الرجل وقال في هدوء:

ـ ذهب الكنز إليك ولا تدري.

انقبضت ملامح ناظر وقف البلد، وحملق في محدثه، وقال له ساخرًا:

ـ لا وقت لدي لحل الألغاز.

لم تفارق الابتسامة وجه الرجل، ونظر عميقًا في عيني ناظر وقف البلد، وقال:

ـ هو لغز على من لا يشغله إلا ما تحت قدميه.

ثم أشار بإصبعيه الوسطى والسبابة نحو السماء البعيدة، وقال:

ـ عليك أن تنظر هناك نحو تلك الخيمة الزرقاء الهائلة، التي نرتع تحت ظلها، فربما تجد ما تريده مدفونًا هناك وراء الحجب، وتردد خلفي:

نفسي هي الكنز فيها سر معناه

بغير كيف وفيها نور مجلاه

جهلي بها الحجب عن علمي بمبدعها

وعلمها كشف حجبي فهم معناه.

نظر ناظر وقف البلد مليًّا في عينيَّ الرجل، ودار في رأسه خاطر سريع: «الحجب والعلم والكشف .. لعله يحدثني عن الجن الذي يأتي بالأخبار من جوف الأعالي القاصية، وهذا ما نسعى إليه بالفعل، وإلا ما كنت قد رأيت اليوم الساحر المغربي».

عاد إليه وقال وهو يرفع عينيه إلى قلب الزرقة البعيدة:

- لا أرى شيئًا يا عم.

مد الرجل يده إلى داخل السيارة، وأمسك كتف ناظر وقف البلد، وقال له في هدوء:

- مثلك لن يرى.

تغضن وجه الناظر بغضب شديد، وضغط على الزر فأغلق النافذة، وأمر السائق:

- اطلع.

ضغط على دواسة البنزين، فأخذت السيارة في التحرك، لكنها كانت كلما تقدمت في اتجاه شارع «بور سعيد» بدا وجه الرجل ذي العمامة الخضراء يتسع ويملأ الزجاج الأمامي. فرك ناظر وقف البلد عينيه، وأعاد النظر، فوجد الوجه يزداد اتساعًا دون أن تفارقه الابتسامة. وسمع من يهمس في أذنيه:

- لا تشرب خمر الشيطان.

في عصبية ممزوجة برهبة، أمر السائق:

- توقف.

هدَّأ السرعة حتى أوقف السيارة تمامًا على الجانب الأيمن للشارع.

توقفت خلفه سيارة الحراسة، ونزل منها حارسان، وراحا يرسلان عيونهما في كل اتجاه، ويد كل منهما إلي جانبه، تتحسس مسدسه.

كان الوجه لا يزال يتسع حتى ملأ واجهة السيارة، وازداد بريق العينين، اللتين كانتا تحطان كل الوقت في عينيَّ ناظر وقف البلد، ولا تبرحانها، ويرى فيهما مزيجًا من مشاعر لا يعرف لها تفسيرًا.

نزل من السيارة، وتقدم خطوات، ثم استدار، فإذا بوجه السائق في وجهه، بينما اختفى الوجه المتسع، ولم يعد له أثر، ومات الضوء المبهر الذي كان خارجًا من عينين بدا عمقهما ممتدًا حتى حافة المجرة. تلفت حوله لعله يكون قد تسرب يمنة أو يسرة، لكنه لم يجده.

"من هذا الذي أتى بغتة وراح بغتة؟ .. لعله واحد من الدراويش الذين يمرون بشارع «بورسعيد» في طريقهم إلى مسجد «السيدة زينب» حيث مقامها المهيب. وقد يكون واحدًا من مجاذيب آل العزايم، أتى من قعر الريف البعيد. نعم هو كذلك فلهجته تدل على أنه قروي. لا .. لا، ليس هو كذلك، بل أعتقد أنه حارس الكنز، نعم هو كذلك، ألم ينطق كلمة كنز، واتكأ على الحروف؟ هو حارس من

الجان، وأتاني على هيئة إنسان حتى أستوعب مجيئه. لكن أية رسالة أراد أن يرسلها إليَّ أو بواسطتي إلى أحد غيري؟ لا بأس، لابد أن أكتب هذا في التقرير الذي سأقدمه إلى الجالس على الكرسي الكبير. لكن هل يستقيم أن أذكر لواحد في مكانه كلامًا عن شخص يظهر ويختفي على هذا النحو؟ سأقول ويصدقني، أليس هو الذي يؤمن أن ما يحلم به في الليل الأسود سيأتيه في بياض النهار؟ وما طريق البحث عن كنوز البلد، سوى استجابة لحلم ليلة شتوية باردة».

راح ناظر وقف البلد يحدث نفسه، بينما تمضي السيارة به عائدة إلى حيث أتى. رن هاتفه قبل أن يصل، رفعه في تثاقل وضجر، ونظر إليه في لامبالاة، لكنه انتفض فجأة في مكانه:

ـ تمام يا أفندم .. حاضر .. حاضر، أوامرك يا أفندم.

كان المتصل هو الجالس على الكرسي الكبير، يطلب منه أن يتواصل مع الساحر المغربي في شأن مهم، ويأخذ كلامه بجدية ظاهرة، وينفذ كل أوامره بدقة تامة.

8

في اليوم التالي، فوجئ «ماهر» و«عليوة» باستدعائهما إلى مبنى جهاز أمن السلطة. جاءهما الخبر وهما يغالبان التعاسة التي تأكل نفسيهما، بعد أن ذاع خبر الكنز ووصل إلى من لن يرحمهما، فسقطا في بئر عميقة من الخوف والكآبة.

تهامس زملاؤهم في المكاتب عن سبب الاستدعاء، واختلقوا أسبابًا، حتى وصل الأمر إلى الحديث عن خلية سرية تابعة لجهة أجنبية تسعى إلى قلب نظام الحكم، وإشاعة الفوضى في البلاد. هذا ما قاله مدير الهيئة مازحًا، حين سأله الساعي عن السبب، ولم يكن يعرف أن الإيماءات والإيحاءات والصور، التي صاحبت مزاحه تساقطت تحت قدمي الساعي، الذي سمع هذا منه متلهفًا، وراح يتنقل بين المكاتب، ويضيف إلى الكلام كلامًا.

أمام الضابط، جلس كل منهما على حدة، ليتلقى أسئلة ليس لديه إجابات عنها:

«من أين ينفق شيخ الطريقة على الحزب السياسي الذي يريد تأسيسه؟»

«هـل يقدم أمـوالًا إلى معارضي السـلطة الذين يدعوهـم إلى مقر الطريقة؟

«مـن أين يأتي بالمال الـذي يدفعه لقاء الولائم التي يقيمها في مقر الطريقة؟»

«من يقابل خلال أسفاره الكثيرة؟»

«ما تكلفة الكتب التي يطبعها باستمرار، ويوزع أغلبها على مريدي الطريقة وغيرهم؟»

انهمـرت الأسـئلة فـوق رأسـيهما، وتطابقـت الإجابـات إلى حد بعيد:

«لا أعرف» .. «لا أعرف» ..

«الشيخ ورث تركة لا بأس بها عن أبيه وأخيه»

«ميسورو الحال من مريدي الطريقة يتبرعون دومًا»

«لـم نـر فـي أفعال الشـيخ مـا يجعلـه أبـدًا موضع شـبهة فـي نظر مريديه»

«هو رجل وطني مخلص لبلده، ولم نسمعه يقدح في الجالس على الكرسي الكبير»

لكن هذه الإجابات لم تشف غليل الضابط، الذي سبق استدعاءهما بالقفـز إلى نتيجة تقول: «يبدو أن شـيخ الطريقة عثـر على الكنز، وباع

بعضـه، فصارت بحوزتـه أموال طائلـة، ينفقها في كل هـذه الأوجه»، ولهذا لم يقبل أية إجابة سمعها، وقال لكل منهما في نهاية التحقيق:

ـ أنت شريك الشيخ في الاستيلاء على الكنز.

وعـادت الأسـئلة تهطل من جديـد، واضحة وغامضة، مسـتقيمة وملتوية، سـهلة وصعبـة، ومتكررة بكلمات تتغيـر، وحروف كالإبر، فأرهقتهمـا تلـك التناقضـات، وذلـك القلـق. وكانـا منهكيـن قبلهـا مـن طـول الانتظار، إذ تُركا سـت سـاعات كاملـة قبـل أن يمثلا أمام ضابـط تخيـلاه ذا عينين زجاجيتين، وشـفتين مزمومتين على غلظة، لا تنفرجان إلا عند السـؤال أو التوبيخ، ووجه جامد كصخرة صماء، ويديـن لا تكفان عن الإشـارة بالتهديد والوعيـد. كان يكلمهما وهو ملفوف في طيات مظلمة، بينما عيونهم يملأها نور مبهر، يكاد يعمي الأبصار.

لـم يجد أي منهمـا طريقة تخرجه مـن هذا المأزق سـوى الكلام، لكنـه على كثرته لم يشـفع لهمـا. حاولا، دون جـدوى، إقناع المحقق بأنهمـا قد قالا كل مـا يعرفانه، واضطرا تحت الضغـط المتواصل إلى التفوه بعبارات، تغذي النتيجة التي قفز الضابط إليها:

«لدينا شعور قوي بوجود الكنز فعلًا» ...

وانتهيا في نهاية المطاف لتلقي أوامر زماها الضابط على رأس كل منهما، بصرامة شديدة:

ـ إياك أن تتحدث عن موضوع الكنز مع أي أحد كان، حتى إلى زوجتك وأولادك وأصدقائك.

انتهى التحقيق، وجاء رجل فارع الطول وأخذ كلًا منهما ليجلس وحيدًا لست ساعات أخرى في غرفة خاوية إلا من مقعد متهالك، كان يجبر من يجلس عليه أن يصلب جسده كخشبة، أو يقوم واقفًا إلى جانب الجدار، أو في منتصف الغرفة، كيفما يحلو له، وهذا كان الحد الأقصى من الحرية التي منحها الضابط.

بعد انتصاف الليل خرج كل منهما وحده من الباب المحفوف بالرهبة، ومضى وحيدًا يدوس على قطع الليل النائمة في الشارع، ويبطئ السير فيها، مستريحًا لظلمة، يظن أنها قد أخفته عن عيون تراقبه جيدًا، وتعد عليه خطواته الوئيدة.

أخذ كل منهما يستعيد ما جرى، وهو ينظر بانكسار من نافذة تاكسي، يجتهد سائقه ليشق طريقًا في الزحام، الذي لم يخف حتى بعد أن رحل الليل بعيدًا، وكأن هناك من يريد ألا يكون طريق العودة سهلًا.

عند الممر، وقف «ماهر» يترنح، ويجاهد حتى تندفع قدماه إلى الداخل. راح يتلفت حوله في النور والظلام، وهو يتمنى أن يظهر له في هذه اللحظة «عامر المهيلمي» ليقول له شيئًا يطمئنه، أو يضع يده على صدره ليهدئ من روعه. تمنى أن يراه ليرتمي في حضنه ويبكي، ويقول له إنه خائف .. خائف، بل مرعوب مما سيأتي، في بلد يمكن

لإنسان بسيط أن يقضي عمره في غياهب السجون لمجرد الاشتباه فيه، أو بعد تلفيق أي تهم.

كان الخوف يتصبب عرقًا على جبينه وعنقه، فوصل إلى أنوف الكلاب، التي يغريها النباح على الخائفين، فانتفضت من جانب الجدران، وهرولت نحوه تنبح. كان النباح عاليًا حتى أنه أفزع زوجته، التي كانت تقف خلف النافذة في انتظاره.. حاولت أن تطمئن عليه مرات ومرات، ولكن هاتفه ظل مغلقًا طيلة ساعات وجوده في مقر جهاز أمن السلطة، بعد أن أمروه بإغلاقه، ثم سحبوه منه، ليسلموه له وهو خارج، ونسي أن يفتحه، بل نسي كل شيء، إلا شبح الضابط الذي كان يتوعده بنظرات حسبها قاسية جدًا.

فكر في أن يصعد إلى شيخ الطريقة ويخبره بما جرى له، لكنه تنبه إلى أن الوقت قد تأخر، والشيخ يذهب إلى فراشه مبكرًا. لم يكن يدري لحظتها أنه ينام الآن، قرير العين، في «باريس»، غير عابئ بما قاله ناظر وقف البلد، وكان مطمئنًا إلى أن كل هذا سينتهي إلى لا شيء.

دخل شقته مطأطأ الرأس، ثم أناخ ظهره حتى شعر أن بطنه تكاد تلتصق بالبلاط البارد، ليرمي جسده على المقعد العريض في الصالة، ويقاوم الانهيار التام. لم يكن أمامه من سبيل، سوى أن يضن بأحزانه على زوجته، فقد أمروه بألا يتحدث مع أحد عما جرى له. جلست أمامه مندهشة راثية لحالة، وزادت دهشتها حين قال لها:

ـ كل كنوز الأرض لن تعوضني عن انكساري.

لم تفهم ما يقصده، وعبثًا حاولت أن يفسر لها ما نطق به. زاد في هذيانه فزادت حيرتها، ولم تجد أمامها سوى أن تأخذ بيده إلى مخدعه. كان يرتعش، ويتلفت حوله ببصر زائغ، ثم يحط عينيه على الجدار، يحملق فيه بإمعان كأنه يرى أشباحًا تكلمه، ويهز لها رأسه.

لم يكن سوى شبح الضابط مرسومًا في كل مكان حوله. كان يتشظى إلى أجزاء صغيرة، تتشقق فيسيل منها دم غزير، لا يلبث أن تشتعل فيه نار، وترتفع ألسنة اللهب حتى تبلغ السقف، وتمد أطرافها إلى الفراش، فيمد هو يده محاولًا أن يهشها.

فجأة يرى رجلًا بهي الطلعة، يقترب وفي يده عصا من الأبنوس، تلمع في ضي الجمرات المشتعلة. راح يضرب بها ألسنة النار فتخمد، ثم يلملم بطرفها أشلاء اللحم، فيلتئم جسد الضابط غارقًا في دخان فاحم السواد، ثم لا يلبث أن يختفي في الجدار حين ضربه الرجل المُهاب بعصاه ضربات ثلاث.

واتسع وجه الرجل، وطالت عصاه، وأطلق ابتسامة عذبة، أشرق لها المكان الغارق في العتمة. حملق «ماهر» بقوة، فعرف صاحب الوجه. كان قد رأى صورته في الكتاب، جالسًا على مقعد عال، وحوله رجال تنطق وجوههم بالرضاء والسعادة.

لم يكن سوى الشيخ الكبير «أبو العزائم»...

9

ظل ناظر وقف البلد ينتظر على باب مكتبه قدوم الساحر. كان يقاوم شعورًا بالقلق والمهانة، فهو من سمعه الناس كثيرًا في الإذاعة، ورأوه على شاشة التلفاز، وعلى منصات لقاءات الوعظ، يُكفِّر من يستعين بالسحرة في قضاء حوائجه، وإن رفق به، رآه فاسقًا، يرتكب معصية أو كبيرة من الكبائر.

قال لسكرتيره وكبار مرؤوسيه إن الرجل الذي ينتظر من علماء المغرب، وتذكر ما قاله له شيخ الطريقة حين التقاه:

ـ في المغرب فلاسفة وفقهاء ومفكرون ووعاظ نابهون، فلماذا لا تستعينون منهم إلا بالسحرة؟

لكن ناظر وقف البلد يدرك أن شيخ الطريقة لم يُؤمر مثله باستقبال الرجل، والإنصات إليه، وتنفيذ أوامره، ولم يقف مثله على سر الاستعانة بالسحرة المغاربة، والذي كشفه له مؤرخ وأستاذ جامعي، يُدعى «خيري محفوظ» قبل سنوات، حين كانا يشاركان في مؤتمر بمدينة «فاس» المغربية. يومها سأله:

ـ أتعرف سر تفوق المغاربة في السحر؟

رد الناظر على الفور:

ـ لا، فهذا لم يرد على ذهني أبدًا.

ابتسم وشرح له:

ـ بعد أن دخل العرب مصر انشغلوا بالبحث والتنقيب عن الآثار، طمعًا في الذهب، وعبثًا حاول «عمرو بن العاص» أن يثنيهم عن هذا، فلم يجد بدًّا من جمع البرديات والمخطوطات التي تركها الفراعنة، وفيها طرق عديدة لفتح المقابر، ودخول المغارات، واستخراج الدفائن من باطن الأرض. وأشار عليه البعض بحرقها، ولكنه رفض لأنها تحوي أشياء قيمة. فلما فُتحت بلاد الأندلس، ووجد الفاتحون إقبالًا من أهلها على إقامة المكتبات، وضع «ابن العاص» ما جمعه في سفينة، لتحملها إلى هناك، لكن عاصفة هوجاء ضربتها وهي في عرض البحر، فجنحت إلى شاطئ المغرب، فأخذ أهله ما فيها، وحفظوه ووعوه جيدًا.

وحين واجه ناظر وقف البلد الساحر بهذا لم ينف ولم يؤكد، وكان بين ذلك عوانًا، بل ضحك وقال له:

ـ أخذنا منكم السحر وأعطيناكم المتصوفة، وها هو الزمن يضع ساحرًا في وجه صوفي كبير، أتى أجداده إلينا مرورًا ببلادكم، فعمروا وأنجبوا، ثم رحلوا، لينتهوا إلى مصر، إنها لمفارقة عجيبة.

كان ناظر الوقف في عجلة من أمره، فتنحنح، وسأل:

ـ هل يوجد ما يدل على أن بيت «أبو العزائم» فيه دفينة ثمينة؟

خطف الساحر ابتسامة عجلى، وأجابه:

ـ أخبروني أن الكنز موجود.

ـ من الذين أخبروك؟

تجهم وجهه، وصمت قليلًا، ثم نطق:

ـ لا تسألني عن هذا فتلك أسرار غير مباح لي أن أكشفها لأحد.

ومرت برأس ناظر الوقف وجوه قارئي الطالع، وضاربي الرمل، وعارضي المندل والسحرة، الذين زعموا أشياء، وأخذوه وراءهم وعاد صفر اليدين. لوى شفتيه، وهز رأسه، وقال:

ـ المهم أن تكون قد عرفت مكان الكنز بدقة.

حرك قدميه في البلغة ثم ثبتهما، وهو يقول:

ـ سأعرف حين تلبي ما سأطلبه منك.

ـ ما هو؟

ـ أريد أن أعرف كل شيء عن الشيخ «أبو العزائم» .. كل شيء.

ـ بما يفيدك هذا؟

ابتسم من جديد، وقال:

ـ الشيخ الكبير لم يكن شخصًا عاديًّا، ولذا لن أبدأ معه من فراغ، هناك نقطة يجب أن ننطلق منها: أثر تبقى منه، أو قول مأثور له، أو بيت

شعر أتى فيه على ذكر ما يقود إلى مكان الكنز، أو حتى عبارة منسية، أو ساعة من نهار أو ليل وقع فيها شيء غير عادي له، أو مكان كان يستريح للجلوس فيه، أو بقعة من أرض الله كانت تروق له الإقامة فيها، أو رقم يتعلق بشيء يخصه، أو تاريخ لافت في حياته.

أنصت ناظر وقف البلاد برهة، بعد أن سمع ما قيل، وأدار وجهه بعيدًا، ثم عاد:

ـ كل هذا تطلبه، كأنك تسعى لتأليف كتاب عن الرجل!

زفر الساحر، لكنه امتلك زمام نفسه، وقال في برود شديد:

ـ ما عندي علم له أصول، يعتمد على أرقام وجداول معدة بعناية، ويستند إلى وقائع ورؤى .. عليك يا سيدي أن تقرأ شيئًا في علم الرمل، وعلم الأوقاف، فهذا ما برز عند الفراعنة والإغريق والفرس والبابليين والمايا والأنكا.

تمتم ناظر الوقف في سره: «أتسمى هذه علومًا يا ابن الهرمة؟»، لكنه اغتصب ابتسامة، رفرفت سريعًا على شفتيه، وقال:

ـ لا بأس، لكن ما تطلبه يحتاج وقتًا، فالرجل مات منذ ثمانين سنة.

هز الساحر أصابع يمناه الخمسة، وعاجله:

ـ هناك كتبه وسيرته، ويعيش على الأرض أحفاده وأحفاد مريديه، ولا تزال القرى التي حل بها والمدن التي أقام فيها باقية. من المؤكد

أن أحدًا من الأحفاد لديه مفتاح. ولذا علينا أن نترك كل من نصل إليه منهم يثرثر كيفما شاء، ثم يكتب ما يقوله، ويأتي إليّ، وحين أطالعه سأضع يدي على مفتاح الكنز.

هز ناظر الوقف رأسه، وكان عليه أن يظهر تعاونه التام مع الساحر؛ حتى لا يشكوه إلى الجالس على الكرسي الكبير، والذي كان ينصت إليه بإمعان، ويلبي أي طلب له، بعد أن أطلق يده، يفتش وينقب في الجبال والرمال والوديان والشوارع عن أي شيء تركه الأولون، يقيل البلاد من عثرتها.

لهذا قال له بصوت مفعم بالثقة:

ـ لا تقلق سيجري كل شيء على ما يرام.

هز الساحر رأسه مستحسنًا ما سمعه، وقال وهو يضغط على الحروف:

ـ اختر شخصًا أمينًا وكفؤًا، واحرص على سرية الأمر.

10

شغل ناظر وقف البلد رأسه بالشخص الأمين الكفء الذي يسند إليه هذه المهمة، فجاءه، بعد تفكير عميق، وجه الدكتور «خيري محفوظ»، ورآه هو الأصلح لأدائها، فهو له كتب عديدة في تاريخ التصوف والمتصوفة، ويعرف بعض خباياهم وحكاياتهم، وليس هناك من يقدر على المطلوب سواه.

لكن الناظر واجه مشكلة كان عليه أن يصل إلى قرار فيها، قبل أن يشرع في الاتصال بالرجل ليكلفه بهذا العمل؛ إذ لم يكن بوسعه أن يصرح له بالحقيقة، فتلك أسرار عليا للدولة، وهو مؤتمن عليها، وإن تسرب خبرها إلى الناس فقد يكلفه هذا منصبه، ويا ليتها تتوقف عند هذا الحد، بل قد يُفتح ملف فساده، ويُزج به في السجن، بعد تجريسه في عرض البلاد وطولها.

كان في حيرة من أمره، إذ كيف يطلب من «خيري محفوظ» أن يبحث وراء كل ما أراده الساحر، دون أن يعترف له بالحقيقة؟ كيف لمؤرخ كبير أن يتم توجيه طريقة عمله، وأسلوب كتابته، على هذا النحو الغريب، وهو من هو؟

لكن كان عزاؤه أن للرجل طريقة في الكتابة والبحث تقترب مما يصبو إليه ناظر الوقف، أو بالأحرى الساحر المغربي، فهو يجمع مادته من الكتب والوثائق وخرائط العمران والبشر وألسنة الناس، ويعرض كل هذا في سلاسة وبساطة آسرة. إنه دومًا أشبه بالنعامة التي تلتهم أخلاطًا من الحشائش والثمار والقش والرمل والحصى، وتهضم كل هذا في معدتها، فيصير عصارة تغذيها، دون أن تعاني وجعًا من جوع ولا تخمة.

ومن مزاياه أيضًا أنه لم يحصر نفسه في موضوع واحد، مثلما فعل بعض زملائه، إنما تجول في أيام التاريخ الحديث والمعاصر، يفتش في جنباتها ويستنطقها فتهديه حكايات ومأثورات ومواقف وأمثلة وأشعارًا وقرارات وسياسات، يمزجها على مهل، فنفهم معه التاريخ على أنه أعظم من أن يسجل تاريخ السلاطين والأمراء وقادة الجند والوجهاء.

وفي سطوره، يتحول هؤلاء من أبطال منفردين بالكلام والفعل إلى شخصيات عادية قد يجاورها أو يناطحها فران كان يتفانى في الخبيز ليأكل الناس، أو سقاء كان يحمل القرب من النيل في رضاء ليشرب العطشى في البيوت، أو حكيم يداوي المرضى، أو درويش يهيم على وجهه في الشوارع باحثًا عن الحقيقة في وجوه الناس أو وراء الحُجب. وفيما يكتبه تطل علينا وجوه، بعضها نعرف عنه أشياءً، لكننا معه، نعيد اكتشافها، ونشعر أننا لم نكن نعرف الكثير، وأحيانًا لا نعرف شيئًا. لكل

هذا وقع الاختيار عليه، وكان على ناظر وقف البلد أن يشحذ ذهنه كي يحصل منه على كل ما يريد، دون أن يهتك أسرار الدولة.

هاتفه، وضرب له موعدًا بعد ثلاث ساعات فقط، وقال له:

ـ مر على مكتبي بعد انتهاء محاضرتك بالجامعة، لأمر غاية في الأهمية.

كان يعرف عنه أنه من المتطلعين، الذين يمدون أبصارهم مرارًا إلى هواتفهم المحمولة، كلما تناثرت أخبار عن تشكيل حكومي جديد. فقد كان يطمع في تولي شئون التعليم أو الثقافة، ولذا قال له فور أن رآه:

ـ كلفني فخامة الجالس على الكرسي الكبير بأن أبحث عن رجل يقوم بمهمة، ولم أجد سواك ليقوم بها، فأنت لها.

تهللت أسارير «خيري محفوظ»، وسأل دون تردد:

ـ وهل فخامته يعرف أنني أنا الذي سأنجزها؟

دارى ناظر الوقف ابتسامة رفت على شفتيه، وقال:

ـ سأبلغه قطعًا.

هز المؤرخ الكبير رأسه، وقال في شغف:

ـ إليَّ بها، وأعد معاليك أنني سأبذل كل ما في وسعي، من أجل أن يروق ما سأنجزه لفخامته.

قال له ناظر وقف البلد مشجعًا:

ـ أتابع من سنين ما تكتب بإعجاب، وما نريده منك لن يخرج عما تهتم به.

مد المؤرخ وجهه وعينيه إلى ناظر الوقف، وسأله متلهفًا:

ـ وما هو؟

ـ كتاب عن صوفي كبير.

اتسع وجهه بابتسامة عريضة، وقال في ثقة:

ـ هذه لعبتي.

ـ أنا أعرف، لكن المطلوب هذه المرة قد تجد فيه بعض الاختلاف.

وحرص على ألا تفارق الابتسامة شفتيه وهو يقول:

ـ على الرحب والسعة، فالتجديد مطلوب.

ـ والجديد الذي نريده هو معرفة كل شيء عن الشيخ الصوفي، أقواله وأفعاله وحركاته وإشاراته، ما كتبه، وما كُتب عنه، وما قاله الناس عنه ويقولونه، والأماكن التي تردد عليها، والأصحاب الذين خالطهم، وائتنس بهم، وأولئك الذين ناصبوه العداء، وحاذر منهم.

ـ من هو؟

ـ الشيخ «محمد ماضي أبو العزائم».

نقر المؤرخ الكبير على المكتب بأطراف أصابعه، وقال:

ـ قرأت عنه وله أشياء قليلة متفرقة، لكن ما تطلبه معاليك يحتاج إلى قراءة متأنية وواسعة.

ـ هذه المرة ستقرأ وتسمع وتدون، ولا تترك شاردة ولا واردة.

ساد بينهما صمت، قطعه المؤرخ متسائلًا:

ـ وما حاجة الجالس على الكرسي الكبير إلى هذا؟

قهقه ناظر الوقف، ليعطي نفسه فرصة ابتلاع السؤال وتحضير إجابة:

ـ اعتدنا أن ننفذ أوامره، ولا نسأله عن سبب إصدارها.

هز المؤرخ رأسه:

ـ مفهوم .. مفهوم، لكنه أمر غريب أن يهتم من هو في مكانه ومكانته بمثل هذه الأمور.

تلفت ناظر الوقف حوله، وقال:

ـ اهتمامه بهذا يفوق ما تتصور، وليس لنا إلا أن نطيعه.

ـ لكن ..

قاطعه:

ـ لا تجادل وتضيع وقتي، فقد أرسلت خطابًا منذ ساعة إلى قصر

الحكم، اقترحت فيه اسمك للقيام بهذه المهمة، وأعتقد أن فخامة الجالس على الكرسي الكبير سيوافق على اقتراحي؛ لأنه كلفني بالاختيار أنت من ستقوم بالمهمة، سواء كنت مقتنعًا بها أم غير ذلك.

تنحنح الدكتور «خيري محفوظ»، وبلع ريقه، وقال:

ـ أنا فقط أريد أن أعرف أكثر عن حدود مهمتي، وغاية المنى والأمل أن أكلف بمهمة، أيًا كانت، ما دامت لحساب الجالس على الكرسي الكبير.

ضغط ناظر وقف البلد على زر أمامه، فجاءه مدير مكتبه هرولة، ورفع وجهه ليتلقى أمرًا جديدًا:

ـ اذهب إلى المكتبة واحضر كل ما فيها من كتب للشيخ «أبو العزائم».

ثم التفت إلى «خيري محفوظ»، وقال:

ـ أعتقد أن الشيخ «أبو العزائم» قد عمل في بلدان عدة، وستحتاج للسفر إليها، ونحن سنتكفل بكل نفقات الانتقال والإقامة ومصروف جيبك أيضًا، وبعد إنجاز العمل ستُصرف لك مكافأة مجزية.

أنصت الدكتور قليلًا، ثم قال:

ـ المهم أن يرضى فخامته عما أكتبه.

ـ أنا واثق من هذا.

أراد ناظر وقف البلد أن يقرب الدكتور «خيري» إلى ما يريده منه،

دون أن يُصرح له بأي شيء عن الدوافع والأسباب، فقال:

ـ سمعت فخامة الجالس على الكرسي الكبير يقول إن الشيخ «أبو العزائم» كان كنزًا عظيمًا، فيما قال وما كتب وما فعل وما تركه لأهل بيته وأتباعه.

ابتسم المؤرخ، وقال:

ـ هو كذلك .. هو كذلك.

ربت ناظر الوقف على يد المؤرخ وقال له:

ـ اكشف لنا هذا الكنز ... ليس له إلا أنت.

ردَّ على الفور:

ـ أتمنى أن أكون عند حسن ظن معاليك.

ابتسم ناظر الوقف وقال:

ـ دعك مني ومن ظني، المهم ظن فخامة الجالس على الكرسي الكبير.

وكعادة باحث محترف، وجه الدكتور «خيري محفوظ» سؤالًا إلى ناظر وقف البلد:

ـ متي يريد فخامته أن يكون ما أكتبه بين يديه؟

أجابه من فوره:

ـ أسرع مما تتصور.

صمت برهة، وقال:

ـ سأتفرغ لهذه المهمة، وسأعمل ليل نهار.

وخرج من عند ناظر وقف البلد، وخلفه الساعي يحمل كرتونة فيها بعض كتب الشيخ الكبير. وضعها في سيارة «خيري محفوظ» الذي كان مشغولًا بما تم تكليفه به، وراح يمشي خفيفًا، لا تكاد تحمله أعماقه من الفرحة والرهبة معًا.

وما أن أدار السائق محرك السيارة حتى أخذ يردد:

ـ «الشيخ كنز .. كنز الشيخ».

كررها مرات، وارتفع صوته، فظن السائق أنه يحدثه فقال له:

ـ أفندم.

وطرأ على ذهنه شيء، فأمر السائق:

ـ توجه إلى مسجد «أبو العزائم».

ثم وصف له الطريق، فقد تردد عليه مرات من قبل، حين كان يأتي موعد الصلاة، بينما هو يشترى حاجيات أسرته من محل «خير زمان» المقابل للمسجد.

وقف عند العتبة، ومد بصره إلى باحة المسجد، الذي كان فيه نفر قليلون، ثم خطا إلى الداخل، وهو يشعر أن الطريق إلى الضريح يطول تحت قدمين مثقلتين بالتوجس والرهبة والرغبة.

وصل إلى حيث يطل شاهد الشيخ غارقًا في نور أخضر ناعم،

تغشاه السكينة، وترمقه عيون الجالسين في تبتل. وضع يده فوق كوة مستديرة فتخلل النور أصابعه، ثم رمى عينيه إلى الداخل، وملأهما من الشاهدين المتجاورين، الشيخ الكبير وابنه، وسمع همسًا خفيفًا، لم يدر إن كان صادرًا منه أو آتيًا إليه من داخل الضريح، أو من أحد أركان المسجد:

ـ امضِ في طريقك، وأوغل فيه برفق.

ذرف دموعًا ساخنة عند الكوة، وفوق واحد من المصاحف المذهبة الموضوعة في مواجهة الشاهدين، وقال في صوت لم يسمعه غيره:

ـ ساعدني يا مولاي كي أكشف كنزك، فأنجو من عقاب ينتظرني، هو أقرب إليَّ من ثواب أنتظره.

ولم يكن يفهم ما هو الكنز الذي يسعون إليه، إلا أنه تلقى في الليل اتصالًا هاتفيًا من ناظر وقف البلد، قال له فيه:

ـ فخامة الجالس على الكرسي الكبير، أمرني بأن أبوح لك بالسر، ومن اليوم يعتبرك من رجاله المقربين.

وأفصح له عن كل شيء، بينما هو يتقافز فرحًا؛ لأن فخامته قد اعتبره مقربًا. مادت الأرض من تحته، وهو يسمع إطراء فخامته على لسان ناظر وقف البلد، فسقط غارقًا في الفرح والامتنان، ورأى نفسه على بعد خطوة واحدة من منصب رئيس الجامعة، الذي يتطلع إليه، أو ناظرًا للتعليم أو الثقافة، كما كان يحلم دومًا.

القسم الثاني

أوراق العارف

1

فخامة السيد الجالس على الكرسي الكبير..

تحية طيبة

أود ابتداء أنا الدكتور «خيري محفوظ»، وأعوذ بالله من قول أنا لاسيما في حضرتكم، أن أعبر لفخامتكم على عظيم امتناني وسعادتي بتكليفكم لي عبر ناظر وقف البلد بكتابة سيرة الشيخ «محمد ماضي أبو العزائم»، أو حكايته. أقول حكاية، وأعنيها، لأنني كتبتها على هذا النحو، حتى تكون طيعة سلسة أمامكم وأنتم تطالعونها كاملة، وتمنحكم متعة، تُسرِّي عنكم بعض شقاء يومكم الذي تقضونه في التفكير والسعي وراء مصالح البلاد والعباد.

أمعنت في هذا، وزدت عما اعتدته في كتبي السابقة، التي يسعدني أن أرسل إليكم نسخًا منها مع ما طلبتموه مني، وأتمنى أن يكون لديكم بعض وقت لمطالعة ولو عناوينها ومحتوياتها، وقد يجذبكم بعضها فتقرأونه كاملًا، أو على الأقل تأخذون فكرة عن طريقتي في كتابة التاريخ، والتي عرفت بها حتى أثارت عليَّ غضب بعض الأكاديميين، لكنني صممت على التمسك بها؛ لأنني أريد أن أفتح التاريخ أمام قراء

من غير المهتمين به، وهي طريقة أتمنى أن تروق لكم فتتاح لي فرصة تأليف كتب التاريخ لمختلف المراحل التعليمية، أو تأليف كتاب عن حياتكم، فنعمق حب الوطن وحبكم في قلوب الناشئة، ونواجه أهل الشر الذين لا عمل لهم إلا تدبير المكائد، والسعي في الخراب، كما تحدثوننا وتبصروننا دومًا بهم في كلماتكم التي أنتظرها، وأعيها، بل أحفظ مقاطع منها عن ظهر قلب.

وأنتهز هذه الفرصة الثمينة لأبلغ فخامتكم أنني من قرية بدلتا النيل، هي نفسها التي ينتمي إليها جدكم، قبل أن ترحل الأسرة الكريمة إلى «القاهرة»، ولا أقصد من هذا سوى أن أُبيِّن لكم أن هناك جذورًا مشتركة بيننا، ربما تُلهمني، عن بعد، بما تقصدونه بدقة من كتابة سيرة هذا الرجل الصوفي الذي أرى أنه لم يأخذ حقه من المعرفة والاهتمام، ليس لأن تلاميذه ضيعوه، بل لأن هناك من أراد طيلة العقود الفائتة التعمية على ما تركه من علوم.

وأشكر فخامتكم على كل ما وفرتموه لي من مدد مادي ومعنوي أعانني على أداء هذه المهمة على أفضل وجه ممكن، وإن كان هناك نقص فهو مني، أما ما يأتي منكم فهو، من دون شك، في سعي حثيث إلى بلوغ الكمال في كل شيء.

لن أطيل عليكم حتى لا أُضيِّع وقتكم الثمين، وها هو ما كتبته بعد رحلات وزيارات ومقابلات وتأملات وإمعان نظر في صفحات الوثائق والكتب ووجوه الناس. وقد وضعته أولا أمام معالي ناظر

وقف البلد، الذي طالما كان له رأي لا ينقطع فيما أطلعه عليه هاتفيًا، وبناء على هذا، كانت هذه الصياغة التي أتمنى أن تروق لفخامتكم، وتجدون فيها ما تصبون إليه، وهو خير لنا جميعًا.

خالص المودة والتقدير ...

خيري محفوظ

2

هـا أنـا، «خيري محفـوظ»، أرمي قدمـيَّ على مدخل قريـة «محلة أبو علي» أرفع عينيَّ إلى وجوه الناس؛ لأسـألهم عن مسـجد «سـيدي زغلول» وهم يتسابقون في الإشارة إلي الطريق، وبعضهم يمشي معي خطوات حتى ينتهي انحناء الشارع، ويرفع سبابته بين هامات البيوت، ويقول:

ـ هذه مئذنته.

لفـت انتباهـي درويـش يدور فـي شـوارع القرية، ينظـر إلي وجوه المارة في الشـوارع على مهل، والنسوة الجالسات على عتبات الدور، وينشد:

«تكالي على واحد أحد

مليش غيره حد

يعطي ولا يمنع

ويقسم الأرزاق

ولا ينساش حد».

أعجبني كلامه فاقتربت منه، ودسست يدي في جيبي وأخرجت ما قدرني الله عليه، ومددته إليه، فأمسـك كتفي، وداس عليه، حتى كدت أجفل منه، وقال لي:

«مددك كبير يا سِيِيد .. اوعى تتوه بين الرجال بكرة».

اعتبرته فألًا حسـنًا في بداية رحلتي، وتركته ماضيًا في طريقي إلى المسجد. وصلته متعبًا من شقاء السفر من «القاهرة» إلي «كفر الشيخ»، وهي مسافة ليست بالبعيدة لكنني كنت وقتها مريضًا، ومع هذا رفضت تأجيل مهمتي ولو لبضع ساعات.

أديـت صلاة قضاء الحاجة، وطلبـت من الإمام أن يدلني على أكبر أهل القرية سـنًا، فوعدنـي بإحضاره، وبعد نصف سـاعة جاءني رجل يتـوكأ على عصا من شـجر النبـق، لا يكاد يرى أمامه سـوى خطوتين، ومن حسـن حظي وجدته مريدًا فـي الطريقة «العزميـة». قال لي حين سألته عن الشيخ «أبو العزائم":

ـ لـم أقابلـه فـي حياتي، لكـن أبي شـهد ولادتـه، ورآه وهو طفل، وحكى لي عنه كثيرًا .. كان من أحبابه ومشى وراءه، وتعلق به، وتوفي بعده بعشرين سنة.

ونسب الرجل إلى أبيه أنه أخبره ذات يوم حين جاءت سيرة الشيخ في جلسـة بـدار عمـدة القرية أن «أبـو العزائـم» لم يكن طفلًا كسـائر الأطفـال ممن يحبون الاختلاط والمرح، بـل كان موغلًا في الانطواء إلـى درجـة لافتة لانتباه النـاس، ولا يجالس أحدًا ممـن حوله إلا كبار

السن، وينصت إليهم بإمعان، وإن لعب مع أقرانه فإنه يطلب منهم دومًا الاصطفاف خلفه، وينشد وهم يرددون وراءه:

«يا إلهي المرتجى

يا رجا كل الرجا

نرتجي منك النجا».

ويجوبون الشوارع والحواري، فتفتح الأبواب والنوافذ والشقوق، وتطل أعناق نسوة ورجال، وترتعش قلوب، ويبقى كثيرون من الناس في عجب وامتنان، وهم يفسحون الطريق للذاكرين الصغار.

ولا يعرف الرجل من أين حفظ الطفل هذا النشيد، لكنني حين عدت للكتب رجحت أن يكون قد سمعه من أبيه «السيد عبد الله محجوب ماضي»، فهو كان تاجرًا مقتدرًا، يقضي وقته بين القرية ومدينة «رشيد»، وله مجلس يلتقي فيه أكابر البلد، وعنده مكتبة مثقلة أرففها بمعارف وعلوم شتى.

لكن هذا الرجل، الذي لم يبق في فكيه سوى ثلاث أسنان وضرسان مثرمان، لفت انتباهي إلى شيء أعتقد أنه قد يكون نقطة البداية بالنسبة لنا. فقد أغمض عينيه، وتاه مني قليلًا، فعرفت أنه غرق في زمن بعيد، ثم طفا ليقول لي إن الشيخ الكبير في طفولته كان يجلس أحيانًا بالقرب من المسجد على الأرض، ويمد إصبعه السبابة إلى التراب، وينبش فيه على مهل، ثم يكتب حروفًا على جنبات كومة صغيرة صنعها وهو لا

عن الجميع. هذه الحروف ربما لو عرفنا ما هي لوضعنا أقدامنا على أول الطريق إلى الكنز. فهي قد تكون مفتاحه الخفي الذي ظل يدور في رأس الشيخ حتى كبر.

لكن أعتقد أن الوصول إلى هذا مستحيل، فلا الكتب التي أتت على ذكره قد تناولت هذا، ولا الرجل كان قادرًا على أن يتذكر التفاصيل، رغم أنني ألححت عليه كثيرًا، حتى أنه جفل مني، بل بان في عينيه الدهاش وسخرية، وقال لي:

- من رابع المستحيلات أن أعرف، ولا أحد يعرف.

لكنه، كعادة المريدين، سمى هذا إلهامًا من الله، وقال لي في ثقة:

- كان الشيخ يكتب ما يُملى عليه من أحد لا يراه الذين يقتربون منه، وبعضهم يستغرب حاله وينصرف عنه صامتًا، وهناك نفر كانوا يسخرون منه، لكنه هو لم يكن مشغولًا بأحد من الناس.

ابتسمت وقلت له:

- هكذا الصوفي الحق لا ينشغل بالناس، ما دام يفعل ما يطمئن إليه قلبه.

كل ما تذكره الرجل العجوز عن هذه الواقعة قاله لي بعد أن سعل بشدة حتى شعرت أن رئتيه ستخرجان من صدره:

- كان الشيخ يقوم من الأرض دون أن تعلق بثوبه ذرة تراب واحدة، ويترك الحروف التي خطها مرسومة حتى تكنسها الريح أو أقدام الناس

الذين يمرون من أمام المسجد إلى غيطانهم.

لم أجد كثيرًا يمكنني أن أكتبه في هذا المقام، أو بمعنى أدق، يمكن أن يفيد في كشف السر الكبير الذي نسعى خلفه، فالناس في هذه البلدة يحكون عما سمعوه عن الشيخ «أبو العزائم»، لكن أكثر حكمهم يدور حوله، بعد أن تحقق في «القاهرة»، وصار ملء أسماع وأبصار الذين اقتربوا منه، وعرفوا قدره، وإن كانت كتب التاريخ التي خطها المدرسيون لم تأت على ذكره بما يستحقه.

اعذرني فخامتكم إن وجدتني أثرثر، فقد طلب مني معالي ناظر وقف البلد أن أكتب كل شيء، ولا أترك شاردة ولا واردة إلا وذكرتها. ظللت أكتبه في حينه، وكأنه يوميات، لكنني آثرت أن أصيغه بما لا يصيبكم بالملل، ولا يجافي الطريقة التي اعتدت كتابة التاريخ بها، كما سبق وأن ذكرت لكم في البداية.

المهم أنني خرجت من القرية مع أول الليل، ووجدتني راغبًا في أن أسير وحيدًا على الجسر العالي، تلفني العتمة الرائقة. وطال بي السير لكنني كنت مستمتعًا بنسائم طرية ومدى مفتوح تتراقص فيه عن بعد أضواء خافتة. وبينما أنا أرفع عينيَّ إلى النجوم الزاهية، ونقيق الضفادع يملأ أذنيَّ، شعرت أن أصابع تنقر كتفي. استدرت مذعورًا فرأيت كائنًا ملفوفًا في لباس أبيض لا تظهر منه أي ملامح.

كنت أراه ولا أراه، فقد كان يظهر لي ويختفي. دعكت عينيَّ بقوة، وأنا أظن أنني أظن ما أرى، لكنه لم يكن ظنًا، لأني سمعت صوتًا

يقول:

ـ من استكبر على البدايات لن يصل إلى النهايات.

تهت فيما سمعت، ووجدتني أسأله، وأنا أرتعش:

ـ عن أي بدايات تتحدث؟

لم أسمع سوى الصمت، فزاد رعبي، وقفت مكاني تائهًا بين الخلاء، وسماء مكللة بنجوم زاهية، وشجر ونخل يبدو أمامي كتلًا سوداء. ورفعت قدميَّ لأمضي في طريقي، لكن الصوت عاد يُسمعني ما أردت:

ـ أولى العلامات في المكان الذي تركته.

هززت رأسي، ووليت وجهي ناحية القرية. طرقت أول باب بيت قابلني، فخرجت لي عجوز ملفوفة في ثوب فاحم السواد، قلت لها:

ـ أنا غريب وأريد مأوى.

لم تنطق، بل هزت رأسها ورفرفت على شفتيها ابتسامة خاطفة، وتركتني واقفًا، ودخلت صامتة. ولم تمض سوى دقيقة واحدة حتى جاءني رجل نحيل. تطلع إليَّ بإمعان، وربما أدرك من هيئتي أنني رجل لا خطر منه. قال لي:

ـ أهلًا وسهلًا، البيت بيتك.

دخلت سريعًا وراءه فقادني إلى غرفة داخلية، مسحتها عيناي فلم

تجد فيها سوى حصير من البلاستيك، مفروش فوقه لحاف قطني سميك، تتصدره وسادة بالية قليلًا. على الجانب الأيمن كنبة عليها حاشيات مدكوكة. كنت قد وقفت على باب الغرفة بينما دخلها هو، وانحنى يرتب مخدعي. قلت له:

ـ دع هذا لي.

استدار وقال لي في امتنان:

ـ أنت ضيفنا، وإكرامك واجب.

فلما انتهى مما يفعل، اقترب مني، ووضع يده على كتفي، وقال:

ـ أُمرت أن أنتظرك، وهنا ستجد البداية.

هزني ما سمعته منه، ونظرت إلى وجهه، بينما الدهشة تعقد لساني. مد أصابعه ووضعها على شفتيَّ، ثم سألني إن كنت جائعًا، فاعترفت له بأن بطني خاو. ابتسم من جديد، وخرج وعاد وبين يديه طبق كبير من الخوص عليه صحون فيها جبن، وعسل أسود، وبيض مقلي، وثلاث خيارات، وطماطم، وأربعة أرغفة. وضعها وقال:

ـ أنت تحب لحوم الطيور، وإن انتظرت ساعة نذبح لك ديكًا.

وضعت يدي على صدري ممتنًا، وقلت له:

ـ هذا يكفي.

وتركني مع طعامي وفراشي وخرج. أكلت سريعًا، وألقيت

جسدي. وبينما أنا وسط النوم والصحو، انتبهت إلى ما قاله، وكنت لم أنتبه من قبل: «أنت تحب لحوم الطيور». أردت أن أخرج لأسأله: كيف عرفت؟ لكن النوم غلبني، فغصت فيه عميقًا، غير مبال بشخيري الذي طالما اشتكت منه زوجتي؛ لاسيما حين أكون متعبًا. غمرني الظلام والسكون، وجاءت الرؤى غزيرة كأمطار شتاء ملبد بسحب رمادية كثيفة.

رأيت طفلًا وضيء الوجه، يجلس فوق حصير من القش، تحت منبر من خشب بني متين، عليه براويز متعددة الأشكال، وعلى حجره مصحف عريض، يدس فيه عينيه، ويخرج صوتًا نديًا.

كان وحده إلا من يمامة تحط على النافذة، وتنظر إليه صامتة، وريشة صغيرة داعبها الريح عند الباب، ثم طارت نحو الداخل. حطت على رأسه دون أن يشعر بها. كان لونها عجيبًا، لمعت في خيط النور الذي ترسله الشمس من كوة ضيقة أعلى الجدار. أتذكر جيدًا أن لونها راح يتبدل على رأسه حتى صار ذهبيًا.

فجأة دخل رجل تبدو عليه آثار النعمة. خلع نعليه، وأمسك بهما في يسراه، تقدم حتى وصل إلى الطفل الجالس. وحط يده على رأسه، فسقطت الريشة عن يمينه، وبدا أن الرجل لم يرها. سأله في هدوء:

ـ ألن تأتي لتأكل غداءك؟

رفع الطفل رأسه، وقال:

ـ سأجيء حين أنتهي من القراءة.

تركه وخرج صامتًا. ورأيت الشمس تنحسر، والضوء يشح، وهو لا يبرح مكانه. أما الريشة فقد دارت قليلًا في نسمة تدفقت، واستقرت فوق رأسه من جديد. هذه المرة تأكدت أن لونها ذهبي خالص.

جاء أناس كثيرون تحلقوا حول الطفل ينصتون إليه بإمعان، وفي عيونهم استحسان.

طوى هو المصحف وقام في مكانه، ونظر إليهم، وندت عنه ابتسامة عذبة، ثم تقدم نحو الباب. شيعوه بنظرات إعجاب، وقال أحدهم:

ـ هذا الولد يأكل الكتب أكلًا.

قال آخر:

ـ لا يشقى في الغيطان مثل أولادنا .. أبوه تاجر ميسور الحال، ولا يجد ما يشغله إلا العلم.

الغريب أن أيًا منهم لم ينتبه إلى الريشة الذهبية التي كانت لا تزال تحط على رأس الطفل. وحين قام من مجلسه قامت الريشة معه، ورأيتها تتسع وذهبها يهت حتى تصير وكأنها صفحة من كتاب. ولمحت كلمات تتجاور، وسطورًا تتتابع. كانت حاشدة بالحروف، لكنني لم أتمكن من قراءة شيء.

سأله أحدهم:

ـ ألن تصلي المغرب معنا يا «محمد"؟

التفت إليه وأجابه:

ـ سأجدد وضوئي وأعود.

بعدها لم أر شيئًا، إذ انتقل بي الحلم إلى أرض خلاء، صحراء ممتدة لا يُرى لها نهاية، وفجأة ظهرت على جوانبها بيوت خفيضة من الطين، ونخل وشجر وزروع ضيقة، وخيط ماء راح يتسع، وبانت فيه مراكب لها أشرعة عالية عريضة، وسمعت نعير بهائم، ونباح كلاب. أحد هذه الكلاب اقترب مني وهو ينبح بشدة، كان الخلاء ورائي، والماء أمامي، وفوقي سماء ملبدة بالغيوم. مددت يدي نحوه ليرتدع لكنه اقترب أكثر، وزاد في نباحه، ثم هجم عليَّ بلا خوف، وغرس نابيه في ساقي، فصرخت من الألم والفزع، ووقعت على ظهري. عندها قمت من نومي، أتصبب عرقًا، رغم برودة الجو، فإذا بالنور ينضح من النوافذ، وصوت صاحب البيت وزوجته العجوز يتردد خارج الغرفة.

جاء العجوز إليَّ بإفطار، لكن لقمة العشاء كانت لا تزال تملأ بطني. طلبت منه أن يأخذني إلى الحمام، فاصطحبني إليه. وما إن قضيت حاجتي حتى استأذنته في الرحيل.

وأنا على باب بيته استدرت لأصافحه، فنظر في عينيّ طويلًا، وقال:

ـ لا تنس ما رأيته في نومك فهو البداية.

اتسعت حدقتاي دهشة، واختلطت داخلي مشاعر الفرح والعجب

والخوف، وهممت أن أسأله، لكنه مد أصابعه وأغلق فمي، وقال:

ـ طريقك طويل .. الله معك.

فتركته وأنا أردد في نفسي:

ـ «ريشة فكتاب .. أين المحبرة؟"

لم يكن من الصعب عليَّ أن أستكمل ما بقي من حياة «أبو العزائم» من الكتب، فقد كتب مريدوه وأولاده وأحفاده بعضها، وهي تقول إنه قضى وقته في القرية بين الكتب، فقرأ في الفقه وعلم الكلام والفلسفة والأدب. وتذكرت قول الرجل الأول، الذي استدعيته إلى المسجد حين قال لي:

ـ سمعت من أبي أن الإمام «أبو العزائم» كان لا يترك الكتاب من يده حتى يغلبه النوم، فينام والكتاب في حضنه، فإذا فتح عينيه أكمل القراءة.

هذا ما لا تقوله الكتب التي قرأتها عن حياته الأولى، لكن تتداوله الألسن، وقد يكون من المفيد أن نعرف أي كتاب كان يحب قراءته أكثر، أو قرأه غير مرة، فربما نجد فيه مفتاحًا إلى ما نريده، لكن هذا لم يتحقق لي أبدًا، ولهذا أقول بوضوح وصدق إن رحلة القرية لم أخرج منها بما يعينني في مهمتي سوى بما رأيته في الحلم، وقاله لي صاحب الدار التي بت فيها ليلتي. لكن إلى أي حد بوسعنا أن نستفيد من حلم؟ لا أدري، أما فخامتكم فبوسعكم أن تسألوا العارفين بتفسير الأحلام، فقد نجد عندهم إجابة كاشفة.

3

كان عليَّ أن أذهب إلى مدينة «البُرلُس"؛ إذ رغم أن الشيخ «أبو العزائم» كان يزورها للاصطياف في شيخوخته فإن قربها من «محلة أبو علي» جعلها محطتي الثانية، فوجدت نفسي موزعًا بين زمنين متباعدين للرجل الذي أسعى خلفه، ولقيتها فرصة لي كي أقف على نقطتين متقابلتين بينهما سنوات بعيدة، فأتقدم إلى الأمام وأعود إلى الخلف في الوقت ذاته، لعلي حين أصل إلى المنتصف أكون قد كشفت الكثير مما أريده. وهذه، على كل حال، إحدى طرقي في الكتابة عن بعض الشخصيات التاريخية.

بالطبع لم تكن «البرلس» التي استقبلتني هي التي سبق أن استقبلت الشيخ «أبو العزائم» ليصطاف فيها، ويقضي أوقاتًا سعيدة، دون أن ينسى إلقاء دروسه، وكتابة بعض القصائد، ومد جسور الود مع أهل البلد.

توجهت إلى أحد المساجد وسألت عن أي من أتباع الطريقة العزمية، فدلني الناس على رجل يجلس في الركن الأيمن من المسجد، عيناه معلقتان بالسقف، وشفتاه تتمتمان بما لا يسمعه أحد،

وجسده يهتز في هدوء. اقتربت منه، وغمزت كتفه بإصبعي، فانتبه ونظر إليَّ وقال:

ـ أهلًا وسهلًا.

قلت له على الفور:

ـ أخبروني أنك عزميٌّ.

ـ نعم أنا كذلك.

ـ وهل للشيخ أتباع كثيرون هنا؟

ـ بذر البذرة في سنوات خمس أتاها للاصطياف، وترك هنا أقوالًا وأشعارًا ورجالًا، لا يزالون يتناقلون ما ترك حتى اليوم.

عرَّفته بنفسي، وقلت له إنني أعد كتابًا غير مسبوق عن الشيخ الكبير، فرحب بي، ووعدني بأن يهديني شيئًا مفيدًا. وبعد الصلاة، اصطحبني إلى بيته، وتركني في غرفة الجلوس نصف ساعة، ثم عاد وفي يده أوراق مطوية، قدمها لي وقال:

ـ هذا ما كتبه الشيخ «سرور» عن أيام «أبو العزائم» في «البرلس».

أخذت منه الأوراق، ومسحتها بعيني باحثًا عن كلمات مثل «كنز» و«خبيئة» و «ذهب» و«فضة» و«مجوهرات» و«آثار» لكن لم أجد شيئًا منها، بل، على النقيض تمامًا، وجدت وصفًا لأهل البلدة بأنهم «فقراء الجيوب أغنياء القلوب». وعرفت أن من فتح الباب للشيخ الكبير كي يأتي إلى «البرلس»، هو رجل يسمى الشيخ «كامل شمس» كان قد

التقاه بمدينة «الإسكندرية» بمسجد «ياقوت العرش»، واستمع إليه فأعجب به، وحين عاد إلى بلده شكل وفدًا من أهاليها وجاءوا إلى «سراي الحنفي»، وطلبوا منه أن يزور بلدهم. حكى أحدهم للشيخ «أبو العزائم» أنه قد رآه في منام جالسًا على شاطئ البحر، قدم في الماء وأخرى على اليابسة وأمامه السماء دانية، فكان يمد يده إليها ويمسح على سطحها الأزرق الأملس، ثم يخط عليها بقلم عجيب كلمات تتواصل، فتصنع سطورًا بلغة غريبة، وهم جالسون خلفه على الرمل، وعيونهم مصوبة إلى لوحة السماء التي امتلأت بالكلمات، وصدورهم منشرحة، وهم يمسكون طرف جلبابه.

أنصت إليهم، ولبى طلبهم، ودأب على هذه الزيارة، بصحبة أسرته، «ليلة خمس سنوات في مواسم الصيف. وكان أهل «البرلس» ينصبون له خيمة أمام البحر، فإن جلس فيها جاءوا ليستمعوا إليه، ويرددوا قوله في مدحهم:

«ثغر البرلس فيه البحر يتبعه

بحيرة ماؤها ملح لقصاد

وأرضها الرمل، لا زرع ولا ضرع

لكنها تجذب الأرواح للهادي»

ليمدح الشيخ أهل «البرلس» أو يهجوهم، فما علاقتي أنا بهذا؟ لهذا لم أعبأ في كل ما قرأت وما سمعت إلا بالخيمة التي كانوا

ينصبونها للشيخ الكبير، لهذا سألت عن مكانها، فوقع الذي يحدثني في ضحك متواصل، وقال:

ـ يأكل البحر من شاطئنا كل سنة الكثير، والرمل الذي جلس عليه الشيخ الكبير بلعه الماء، منذ زمن بعيد.

شعرت بخجل شديد من نفسي لأن أستاذ جامعي مثلي غابت عنه هذه الحقيقة، نعم هي تقع في تخصص علماء الجغرافيا والجيولوجيا والبيئة، على أي حال، لكن تبدو في الوقت نفسه من قبيل المعلومة العامة، التي يعرفها حتى من هم أقل مني علمًا. أقول هذا كي تعرف فخامتكم أنني صادق في كل ما أسجله لكم هنا، حتى ما يدينني لا أتركه، وكذلك ما أشعر بأنني قصرت فيه لا أنكره.

كان معنى كلام محدثي أيضا أن «البرلس» قد تغيرت؛ فالأوراق التي طالعتها كانت تصف لي قرية صغيرة، وها أنا أرى مدينة أمامي، شوارعها وطقوسها وناسها. تبدل المكان، وتقدم الزمان، وذهب الذين عاصروا الشيخ الكبير، لكنني، على الأقل، وجدت هنا من كتب عنه شيئًا.

سألت محدثي عن المصادر التي اعتمد عليها الشخص الذي كتب هذه الأوراق، فأجابني:

ـ رأى الإمام وعايش أيامه .. إنها أوراق كتبت منذ مدة، واحتفظنا بها، بعد رحيل من خطها على الورق.

سألته من جديد:

ـ متى كتبها؟

ـ قبل وفاته بسنوات .. هو كان في شبابه وقت اصطياف الشيخ الكبير في «البرلس»، وتابعه واتبع خطاه، وصار من مريديه، وقضى عمره ينشر أفكاره بين الناس هنا .. كان عزميًا مخلصًا.

بدا الامتعاض على ملامحي، حتى إن محدثي جفل مني قليلًا، فكل ما يواجهني هي أوراق مات صاحبها، ولم يعد بوسعي أن أستفسر منه عن بعض ما فيها، كي أجد معلومة شاردة، يمكن أن تفيدني في مهمتي. لكنه شدني إليه فجأة حين قال:

ـ كان الشيخ الكبير ساحرًا.

استيقظت كل حواسي، وأمسكت بما سمعته، وسألته:

ـ شيخ أم ساحر؟

ـ الاثنان، كان يسحر من يسمعون وعظه في مسجد «سيدي غانم»، لدرجة أن الشباب تحلقوا حوله، وجاء إليه آباؤهم يشكونهم؛ لأنهم يطيلون الجلوس إليه، وينسون ما يلتقطون منه أرزاقهم.

ـ وبم رد عليهم؟

ـ أنصت إليهم، ووعدهم خيرًا، وجمع الشباب في الليلة التالية، وطلب منهم ألا يأتوا إليه إلا بعد أن ينجزوا أعمالهم بإتقان، فأبلغوه أنهم يفعلون ما طلبه منهم، ولا يطيقون البعد عنه، فأسعده هذا، وأنشد فيهم:

«نهار الفتى المحبوب في السعي والفكر
وليل الفتى المطلوب في جذبة الذكر».

ومد يده إلى الأوراق التي كنت قد وضعتها أمامي على طاولة صغيرة، عليها كوب من الشاي الثقيل، وقال:

ـ كاتب هذه الأوراق كان واحدًا من هؤلاء الشباب.

وعرفت منه أن شباب القرية، وأغلبهم كان يعمل في صيد الأسماك، قضوا أوقات فراغهم في اللهو، حتى جاء الشيخ «أبو العزائم» إلى البلدة فتبدلت أحوالهم، لاسيما أن بقاءه في «البرلس» كان يطول لشهر أو شهرين كل عام. وعرفت أن بداية مرض الشيخ كانت هنا، فكان يتحرك بصعوبة على الرمل، حتى أنه سقط ذات مرة، فحمل المريدون الكرسي الذي كان قد قام من عليه بصعوبة، وتقدم خطوات نحو الماء الهائج، وجروا إليه، وأجلسوه، ثم حملوه عليه حتى سيارته، التي أخذته إلى مكان استراحته.

كان محدثي كريمًا معي، فعرض عليَّ أن أبيت عنده، وقال:

ـ أنت ضيف شيخنا الكبير، وطلبك مجاب.

كانت الغرفة التي نمت فيها تقع بالطابق الأرضي، إلى جانب باب البيت مباشرة، فكنت أسمع صوت العابرين في الشارع بوضوح.. بعضهم كان يضج بالشكوى من ارتفاع الأسعار، وقلة الرزق، وهناك من كانوا يثرثرون حول مشروع استزراع السمك الذي أسندت إدارته يا فخامة الجالس على الكرسي الكبير إلى واحد من جنرالات الجيش،

وبعضهم كانوا يتحدثون عن بيوت الصيادين التي هدمت على أطراف البحيرة. بدوا غير راضين عن الطريقة التي تسير بها الأمور، وأنا هنا أسجل هذا، وهو إن كان خارج المهمة التي كُلّفت بها فإنه ينطوي على معلومة قد تفيدكم. وفي كل الأحوال، فإن الأسماك ثروة، كالكنز الذي نبحث عنه، بل إنها أفضل من هذا الكنز؛ لأن مددها لا ينتهي، فالبحر موجود ويكبر، والأسماك لا تكف عن بخ بيضها، أما الذهب الذي يمكن أن نعثر عليه فبمجرد إخراجه نترك الأرض تحته خرابًا، وكل ما ينفق منه لا يعود.

رميت أذني إلى حديث الناس فهرب النوم من عينيَّ. وفي سواد الليل، وحين انقطعت الأرجل، وخفتت الأصوات، سمعت صوتًا يناديني:

ـ تعال.

كان صوتًا مسموعًا بقوة، لدرجة أنه جعلني، بعد أن كرر الأمر ثلاث مرات، أهب من مخدعي، وأرتدي ملابس الخروج، وأرمي قدميَّ في اتجاه البحر. كنت أسير وأنا في خدر شديد، مسطول أو سكران، لا أدري، حتى وصلت إلى الشاطئ الخالي، وجلست على صخرة منخفضة في اتجاه بحر لوَّن الليل ماءه بالرهبة. طال بي الجلوس وصوت الصمت يلفني، إلا من مشاكسة الماء للشاطئ، الذي كان يدفع إلى قدميَّ رذاذًا خفيفًا، ولسعة البرد التي كانت ترتعش لها أطرافي.

كنت أفكر في هذه اللحظة في المكان الذي كان الشيخ «أبو العزائم» يضع كرسيه عليه، وأتخيل الشباب وهم يتحلقون حوله،

مستسلمين لتداعي أجسادهم على مهل فوق رمل كثيف. لكن برقًا كان يومض ويختفي جذب انتباهي، وتعجبت من وجوده بينما السماء صافية، وسمعت بين التماع البرق وانطفائه صوتًا يحدثني عن يميني، صوت لم أكن قد سمعته من قبل، راح ينشد:

«همو جوهر الكنز الثمين سلالة

لقد طهروا في محكم الذكر إيرادا

وإن لحظت عيناك يا روح نورهم

يلوح بالاستحضار فضلًا وإسعادا»

لا أنكر أن رعبًا تملكني، فانتفضت مذعورًا، ودست الرمل الذي كان ينزاح من تحتي وكأنه يشاركني الرعب، حتى وصلت إلى أول شارع يطل على البحر، فوجدت مقهى ساهرًا، يجلس عليه أناس قليلون، يتحدثون أيضًا عن الجيوب الخاوية، والعيش الذي صار لا يطاق. ربضت في ركن بعيد، فقد كان يكفيني ما سمعته وأنا في سريري، ووجدت أن الأفضل لي، أنا الغريب، أن أشرد فيما سمعت على الشاطئ قبل قليل، ولا أعرف من أين أتاني؟ كنت قد أغلقت الباب خلفي، ولم يكن من اللائق أن أطرقه في هذا الوقت المتأخر من الليل، فمكثت في المقهى حتى أشرقت الشمس.

لم أكن في حقيقة الأمر قد حفظت كل ما سمعت، إنما فقط الشطر الأول من البيت الأول، والذي كررته في الصباح للرجل الذي

استضافني، وكان قد فوجئ بغيابي، حين استيقظ، وخرج يبحث عني في شوارع «البرلس»، فابتسم وقال لي:

ـ هذه قصيدة للشيخ الكبير.

ـ هل هي قصيدة عن كنز وجده؟

ـ بل كنز تذوقه.

ضحكت وقلت:

ـ أخيرًا عرفت من يأكل الذهب والزمرد؟

نظر إليَّ في استغراب، وقال:

ـ ذهب؟! عن أي ذهب تتحدث، إنها قصيدة عن حب «آل البيت».

أصبت بإحباط وقلت له محاولًا أن أخفف من حرجي:

ـ لكنه يتحدث عن كنز.

ـ كثيرًا ما يتحدث الإمام عن الكنز قاصدًا به الطريق الأسمى، حتى أنه أملى دعاء اسمه «كنز العرش» على أحد مريديه.

ـ متى أملاه؟

ـ قبل سنوات قريبة.

ـ لكن الشيخ الكبير مات قبل سنوات بعيدة.

ـ في الحلم .. جاء في المنام إلى مريد يدعى «إبراهيم»، وأملاه الدعاء، ولم يتركه إلا حين تأكد من أنه قد حفظه عن ظهر قلب.

ـ ومن أخبركم بهذا؟

ـ «إبراهيم»، هو من أخبرنا وقال لنا إن الإمام قد سأله: ماذا حفظت يا «إبراهيم» ؟ فقال لا أعلم ، فقال الإمام : هذا دعاء كنز العرش، أُدعُ به يوميًا يا «إبراهيم»، وقد دعاه لكثيرين فزالت عنهم آثار سحر أسود، أو غاب منهم الربط، وغادرهم جان مؤذٍ كان يسكن أجسادهم ويؤلمهم. وعرض عليه كثيرون مالًا لقاء هذا، لكنه كان يرفض دومًا، ويقول إن الإمام أمره في المنام أن يبذل كل جهده في سبيل إسعاد الناس.

ووجدت مستضيفي يقول لي:

ـ أعمل ما في وسعي في سبيل أن تكون سعيدًا.

أدركت أن واجبه حيالي قد انتهى عند هذا الحد، وكان عليَّ أن أغادر «البرلس» لاسيما أن من ساعدني هو أقرب الناس هناك لمسار «أبو العزائم»، وبه بلغت غاية وجودي في هذا المكان. استأذنته في نسخة من الأوراق التي أعطاها لي لقراءتها، فذهب بي إلى محل تصوير بجوار إحدى المدارس، وعنده ودعته متوجها إلى موقف سيارات الأجرة، لأعود إلى «القاهرة». نعم سيارة أجرة، لأني سيارتي تعطلت قبل ذهابي إلى «محلة أبو علي» بيوم واحد، ولم أشأ أن أُرجئ بدء مهمتي.

4

كانت محطتي الثالثة هي «الأزهر». أتيته وأنا مشغول بلافتة تقول «جامع وجامعة». إنه تعبير صادفني في كتب تاريخ عدة، لكنني كنت أعبره سريعًا، ولم أكن أدري أنني في يوم من الأيام سأفكر فيه مليًا على هذا النحو، بينما السيارة تقلني في الشوارع المزدحمة، وتشق طريقها بصعوبة راغبة في بلوغ حي الجمالية والأزهر.

في أضابير الأزهر لم أجد شيئًا ذا بال عن «أبو العزائم» وقت أن التحق للدراسة فيه. لم أجد سوى بعض رائحته التي لا تزال في المكان، وكذلك صوته الذي رن هنا تحت الأعمدة القديمة الواقفة على أكتاف الزمن. أقول هذا لأنني أؤمن بأن الإنسان يذهب ويبقى منه هذين، كلمة يقولها، أو عرق تفصد منه وهو يكدح أو يغضب. المشكلة أن هذين السببين، ليس بوسعهما أن يقودا إلى شيء مما نريده.

لكن أود هنا أن أبين لفخامتكم أنني عرفت معلومة لم ينتبه إليها حتى أتباع «أبو العزائم» ولا من درسوا شعره الصوفي ونثره وكتاباته الاجتماعية، وهي تبين لنا معالم الطريق الذي اختاره الرجل فيما بعد، ليناطح من واجهه من أهل الحكم غير هياب ولا متراجع.

لقد عرفت أن الشيخ في أول أيامه بالقاهرة استقر في دار أخيه أحمد بحي «الباطنية» خلف الجامع الأزهر، الذي التحق للدراسة فيه، لكنه كان متبرمًا منها، يتوق إلى غيرها، ولا يطيق الصبر عليها. ومصادفة زار الدار الشيخ «حسن الطويل»، فنصحه بأن يدخل امتحان يعادل الثانوية الأزهرية، فإن اجتازه التحق بمدرسة «دار العلوم»، وهو ما جرى بالفعل، وليس هذا موضوعنا، أما ما أود أن أبينه من الإتيان على ذكر هذا الرجل هو ما جرت عليه حياة «أبو العزائم» فيما بعد.

فتشت عنه في كتب الأزهريين فلم أجد شيئًا، لكن بعض المؤرخين يقولون عنه كلامًا عجيبًا، منه أنه شارك في ثورة عرابي، وجاهر برفض الاحتلال الإنجليزي، وناهض حكام عصره، وواجه المستشرقين، ولذا مدحه «جمال الدين الأفغاني»، وهو من هو.

وهناك واقعتان، أستميحكم عذرًا في ذكرهما هنا، لأنهما يساعداني على تبرير ما انتهى إليه الشيخ الكبير الذي نبحث عن كنزه، ونلف البلاد وراء شيء من سيرته وسريرته. الأولى أنه قد طُلب من «الطويل» أن يرتدي ملابس أزهرية رسمية نظيفة ومهندمة ليقابل بها الخديوي «توفيق»، لكنه ذهب إليه بملابسه المعتادة وفي يده صرة. وما إن رأى الخديوي حتى قال وهو يقدم الصرة له: إن كنت تريد الجبة والقفطان فها هما ذا، وإن كنت تريدني فها أنا ذا. ثم قال لجلسائه فيما بعد حين أتوا على ذكر الواقعة: كيف أتجمل للخديوي بلباس لا أتجمل به لربي في الصلاة؟

أما الواقعة الثانية يا فخامة الجالس على الكرسي الكبير، فهي حين

دخل رئيس نظارة مصر آنذاك «رياض باشا» على «الطويل» وهو واقف بين تلاميذه في «دار العلوم» ليتفقد أحوال المدرسة، وبينما كان يهم بالخروج سأله «الطويل» بصوت جهير: لماذا لا أكون وزيرًا معكم يا باشا؟! فدهش الزائر، وسأله تهكمًا: أي وزارة تريد يا شيخ حسن؟ فأجابه على الفور» وزارة المالية لأستبيح من أموالها ما تستبيحون».

أرجو من فخامتكم الالتفات إلى هذا الرجل جيدًا، لأنه سيعيش معنا في «أبو العزائم» طيلة سنواته اللاحقة، وهذه نتيجة توصلت إليها من سابق معرفتي بحياة الرجل قبل أن أجوب البلاد لأقتفي أثره، وها أنا أزيد في تأكيد ما كنت قد توصلت إليه وأنا في عجلة من أمري.

لم أعرف عن أيام «أبو العزائم» في الأزهر سوى هذا، وهو مهم على قلته كما قلت، وعرفت أيضا أنه اجتاز امتحانًا في علوم دينية بعد أسبوعين فقط من الاستذكار، وهو ما قضى فيه غيره سنوات. أخذ هذا وذهب إلى مدرسة «دار العلوم»، وهي، كما تعرفون، التي تحولت إلى «كلية دار العلوم» كما نعرفها الآن. لم يبق من المدرسة سوى أطلال خلفية لمبنى قديم في شارع «المبتديان»، تحوطه حديقة تحاول جاهدة أن تخفف من قبح غابة الأسمنت، التي تطل عليها من كل جانب.

سرت على مهل على الرصيف المواجه للحديقة، أحاول أن أشم رائحة الرجل الذي مر من هنا. ودلني رجل رث الثياب على بيت قديم، يريد أن ينقض، تحته مقهى بسيط. كان طلاب هذه المدرسة يتخذون هذا البيت سكنًا لهم. يقطن فيه الآن عمال تراحيل مغتربون. أغمضت عيني وصعدت حذرًا، مدفوعًا بما ظننتها رائحة صحبتني

من الأزهر إلى هنا. استغرب بعض السكان وجود رجل مهندم مثلي في هذا المكان؛ إذ اعتقدوا أنني أبحث عن سكن. لكنني حين قلت لهم إنني أستاذ جامعي وأكتب كتابًا عن «مدرسة دار العلوم» ضحوا بالضحك. وقال لي أحدهم:

ـ لا نعرف هنا سوى مدرسة «عَلَم الدين للغات»، نفتح الشبابيك فنجدها أمامنا.

بادلته الابتسام، وهبطت وأنا أطيل النظر في الجدران المتآكلة، لعلي ألمح أي علامة تدل على أن «أبو العزائم» كان هنا. ما غاظني حقًّا، بعد أن ضيعت كل هذا الوقت، أن أحد مريدي الشيخ أبلغني أنه قضى مدة دراسته قاطنًا في حي «الباطنية»، وكان في أغلب الأيام يقطع المسافة بين «الأزهر» و«المبتديان» ماشيًا. وما أغاظني أكثر أن أحدهم أبلغني أن هذا البيت بُني بعد سنوات طويلة من انتهاء «أبو العزائم» من دراسته.

ولأن مدرسة دار العلوم كانت تعد طلابها ليصيروا مدرسين، اشتغل «أبو العزائم» بالتدريس؛ لتبدأ رحلة أخرى، هي الأكثر ثراء في حياته. بدأها وعمره تسعة عشر عامًا.

في هذه السن يميل الشباب إلى أشياء كثيرة، لكنه مال إلى طريق مختلفة، رمى قدميه عليها، وسار على مهل، وها أنا أسير خلفه، ليس لأكون مثله، فهو ما لا أقصده من مسعاي هذا، فلا يمكن لرجل يمضي ملهوفًا خلف الذهب أن يكون له أدنى ارتباط بآخر يهرب من بريقه، ويدوس عليه ويمضي.

5

قالت لي الكتب إن أول مدرسة اشتغل فيها «أبو العزائم» كانت «إدفو» الابتدائية. وتعاقبت الأزمان، ولا يزال الاسم الذي كان، فسافرت إلى هذه المدينة دون أن أعرف ما علاقة ما أريد رؤيته الآن بما كان في الأيام البعيدة. ذهبت يائسًا من إيجاد أي علامة تدلني على شيء ذي بال، وكنت محقًا في يأسي. لا شيء غير ما فعله الشيخ الكبير، ولا أعتقد أن بينه وبين ما نريده أية صلة.

يقولون، والعهدة على الرواة، إن الشيخ قد ركب القطار إلى «أسيوط»، ومنها ركب باخرة إلى «إدفو»، وحين وصل إليها لم يجد أحدًا في انتظاره، فالناس لا ينتظرون من هو مجهول، كما أنهم كانوا غير مبالين بالتعليم أساسًا. سار في الشارع وحيدًا، حقيبته في يده، والشمس تحط على رأسه، وعيناه مملوءتان بالرجاء، حتى وصل إلى مبنى دله الناس عليه، وقالوا له:

ـ ها هي المدرسة.

كانت خاوية، يحوطها شجر ونخل، وزقزقة العصافير تعلو على أصوات تلاميذ يعدون على أصابع اليد، يمسكون في أيمانهم ألواح

الإردواز، وعيونهم معلقة بقطعة زرقاء من سماء صافية تسمح بحضورها نوافذ في فصول خاوية. سأل عن الذين سيُدَّرس لهم، فقيل له:

ـ عيالنا في الغيطان.

وأدرك بحلول المساء أن سبب خواء المدرسة ليست الحقول فقط، إنما شيوخ الجوامع الذين يقولون للناس في مواعظهم الصاخبة التي يدقون بها طبول آذان نفر قليلين يجلسون إليهم بعد الصلوات الخمس، وفي خطبة يوم الجمعة:

ـ المدارس تفسد الأخلاق.

قضى ليلة عصيبة موزعًا بين اليأس والرجاء. يأس في أن بوسعه أن يدفع الأهالي إلى إلحاق أولادهم بالمدرسة، ورجاء في أنه سيتمكن من هذا سريعًا. وقبل أن يأخذه النوم كان قد أقنع نفسه بأن مهمته هي أن تمتلئ الفصول بالتلاميذ. في الصباح دار على البيوت، وجلس على المقاهي، ودخل الحوانيت، وذهب إلى الغيطان، وسمع الناس منه كلامًا، كان جديدًا عليهم، فأنصتوا إليه بإمعان، ثم ساروا خلفه.

أسابيع قليلة وامتلأت الفصول بالتلاميذ، والمساجد بالمصلين، لتبدأ المتاعب. حنق المشايخ الجاثمون على صدور الناس من هذا الغريب القادم من بحري، ليزلزل الأرض من تحت أقدامهم. ضيقوا عليه الخناق، فصار العيش في «إدفو» صعبًا، لاسيما على شاب، لا تزال عظامه طرية.

لم يبق الشيخ سوى عام واحد في الصعيد، وتم نقله إلى مدرسة «الإبراهيمية» بمحافظة «الشرقية». عام يبدو كافيًا ليترك أثرًا في تلك المدينة المجهدة يدلنا على شيء، لكن الزمن هنا ابتعد أكثر مما يتصور النابهون، لأن الذاكرة تآكلت أسرع من أن يتصور أولئك الذين يكتبون عن الرجل وهم قابعون في غرف مغلقة. فمعالم المدينة تغيرت، والمدرسة القديمة هدمت، وأقيمت مكانها جديدة، ثم هدمت مرة ثانية وأقيمت أخرى. ومع الهدم تضيع رائحة الذين كانوا يقطنون الأماكن، وتُمحى آثار وجودهم، على النقيض مما يجري في أماكن لا تشيخ مع تقدم الأيام، ولا يتبدل جوهرها، مثلما هي الحال في الأزهر.

لكن رحلتي إلى «إدفو» لم تذهب سُدى، إذ سمعت من الناس هنا كلامًا كثيرًا عن حُمَّى نبش المقابر، وحفر الأرض، بحثًا عن المخبوء في باطنها. فقد عرفت يا فخامة الجالس على الكرسي الكبير أنهم يخرجون في رحلات طويلة بصحراء «إدفو»، حيث مناطق أثرية تم اكتشافها في السنوات الأخيرة، خاصة تلك المحيطة بمنطقة يُطلق عليها «مخازن يوسف»، ويتوغلون بعيدًا، وهم يحملون زادًا يكفيهم من طعام وشراب، وأدوات الحفر، ويستعينون بأدلاء من العارفين بمسارب الطرق أو خرائط الآثار أو إشارات عليها، كلون التربة، وبواقي القطع الفخارية، ويصطحبون معهم عرافين مسلمين ومسيحيين من الصعيد، يتمتمون بتعاويذ وأوراد وآيات من القرآن والإنجيل، ويطلقون البخور، وبعضهم يستعين بسحرة مغاربة وأفغان، وقليل منهم يفضل الاستعانة بالأثريين، والمراجع التاريخية.

وسمعت أحدهم يقول في أذن رجل كان يجلس إلى طاولة تقف في جانب مطعم الفندق البسيط الذي نزلت فيه:

- وجدنا مساخيط ذهب وحجارة وكؤوس وحلل فراعنة.

وسألت أحدهم عما يجب أن يفعله رجل قيل له إن تحت عمارته كنزًا ثمينًا، فقال دون تردد:

- إن كان ثمينًا حقًا، وتأكد من وجوده فليهدمها، ويبني عشر عمارات أو يزيد.

وعرفت أن المراجع التاريخية والأثرية هي الباب الأضمن للوصول إلى الكنوز، وهذا أسعدني بالطبع، وأيقنت أن تكليفكم لي باقتفاء أثر «أبو العزائم» لم يأت من فراغ، إنما عن علم ودراية، وبصيرة نافذة.

ركبت القطار راجعًا إلى «القاهرة» لأبيت فيها ليلتي، وفي الصباح أدرت محرك سيارتي، بعد إصلاح ما فيها من عطل، متوجها إلى «الإبراهيمية» من أعمال محافظة «الشرقية»، حيث كانت المحطة الثانية في رحلة «أبو العزائم» مع التدريس. هناك وجدت حالًا مختلفة عن تلك التي كابدتها في «إدفو»؛ إذ ترك الرجل علامة لا تُمحى، إنها في البشر الذين أنصتوا إليه، فاقتنعوا به، وتركوا اقتناعهم ينتقل بين أولادهم وأحفادهم، حتى وصل إلى ذلك الرجل الذي قابلته في شارع يؤدي إلى المدرسة، وقال لي حين سألته:

- يااااه، فات زمن طويل، المدرسة غير المدرسة، والناس غير الناس، لكن للشيخ أتباعًا هنا، يمكن أن تسألهم عنه.

ودلني على كثيرين منهم، فجلست إلى أكبرهم سنًا، ويدعى «عبد المجيد العشري». ولحسن حظي وجدته كان يعمل بالتدريس، وأُحيل إلى التقاعد قبل ربع قرن على الأقل، لكنه لم يفقد حيويته بعد. ذاكرة لا تزال تحتفظ بكل شيء، حتى التفاصيل التي يمكن أن تتساقط في تعاريج الزمن. كان يشرد مني، كأنه يغوص في قيعان بعيدة ثم يعود والابتسامة لا تفارق وجهه المستدير، وتتراقص لها رموشه الغزيرة التي غلبها البياض، ليقول لي:

- كان أبي يحكي لي عنه.

سلمت أذنيَّ إلى لسانه، وكان يتحدث بهدوء وترتيب كأنه يُملي درسًا على واحد من تلاميذه المقربين. حدثني عن شخص يدعى «محمد باشا علمي» من أصول تركية، وكان من وجهاء «الإبراهيمية» تعلق بالشيخ «أبو العزائم»، وأسكنه بيتًا من بيوته، فلما غادره لم يطق فراقه، فترك البلد، ورحل إلى «القاهرة» وسكن «حدائق الزيتون» حتى يلتقيه كل يوم، وينصت إليه، ويستزيد من علمه، وكان يصطحب معه من صاروا مريدين للشيخ الكبير.

وحدثني عن أثرياء كثيرين غير هذا الرجل، كان «أبو العزائم» يطوف ببيوتهم ليدعوهم إلى حضور دروسه في مساجد «محمد أبو دفن» و«عبد العزيز سعد» و«حفيظ» و«الشيخ صبيحي»، فجاءوا

إليه والناس خلفهم حاشدون، حتى كان يضيق بهم المكان على اتساعه.

لكن أهم ما حكاه لي الرجل، يا فخامة الجالس على الكرسي الكبير، وله اتصال بما نسعى خلفه، هو ما جرى بين «أبو العزائم» و«علمي باشا» قبل أن يترك الدنيا ويمشي خلفه. قال لي، والعهدة عليه، أن «علمي» مر ذات يوم ممتطيًا فرسه، ورأسه مرفوعًا في خيلاء، على الشيخ الكبير، الذي كان جالسًا على الأرض تحت شجرة جميز، يستظل بها من قيظ الظهيرة. توقف الحصان، وكان راكبه ينظر من علٍ إلى الرجل الجالس في سكينة شاردًا في خواطره ومواجيده، فأراد الأخير أن يعلمه درسًا لأنه رأى الكِبر في عينيه، فقال له:

ـ الذي تمطيه أنت من ركائب الذهب، هو التراب الذي أسير عليه أنا.

تعجب الرجل مما سمع، وكان قلبه قد بدأ يتعلق بكلام «أبو العزائم»، فترجل عن حصانه، وأنزل سرجه المطرز بالذهب، ورماه على الأرض، فإذا به يراه قد صار ترابًا. وبينما هو في اندهاشه يرتجف، قال له «أبو العزائم»:

ـ اذكر الله، بسمل وحوقل، ومد يدك إلى السرج.

ففعل، فإذا به يعود إلى ما كان عليه.

وهنا قال لي «عبد المجيد العشري» أن «علمي باشا» بعدها زهد فيما يملكه، وخلّى الدنيا وراء ظهره، ورمى قدميه في كل طريق يمضي

فيه «أبو العزائم». وقد هززت له رأسي، وهو يحدثني حتى اطمأن لي تمامًا، فسألته عن واقعة تحويل السرج إلى ذهب، وشددت في السؤال، بل تولدت عن السؤال أسئلة، فراح يؤكد لي أن أباه ذكر هذه الواقعة أمامه مرات ومرات، حتى حفظها.

وثار في رأسي سؤال، يا فخامة الجالس على الكرسي الكبير، عما إذا كان الذي جعل الذهب ترابًا بوسعه أن يجعل التراب ذهبًا؟ وتراءى لي منظره وهو واقف يصرخ في «خلف قطب المنياوي» حين رأى الذهب يلمع في قلب الأرض، حسبما طالعت في الكتب. انتابتني ظنون، وبعض الظن ليس إثمًا، أن ما رآه المريد في الزمن البعيد من ذهب لم يكن سوى تراب من ذلك الخارج من بطن الأرض، ربما قرأ عليه الشيخ شيئًا مثل ذلك الذي قرأه على السرج، فملأ لمعانه عيني الرجل. ولذا لم يكن أمامه من سبيل سوى أن يطلب منهم أن يردموه حتى لا تستمر ظنونهم. لكن، والحق يقال، لا تبدو حجتي هنا قوية، وإن كنت أردت أن أطرح كل ما دار في ذهني من شواغل، لعلها تفتح أمامكم مسربًا لطريق أوسع في التفكير، ورأسان خير من رأس واحد، وثلاثة خير من اثنين.

لكن هذه الظنون قادتني في طريق أخرى معاكسة، فربما قرأ الشيخ على الذهب الحقيقي فرأه المريدون ترابًا، وإلا ما سكتوا عليه، فبعضهم وكما اتضح مما قاله الشيخ «أبو العزائم» عنهم ظل قلبه معلقًا بالدنيا، وهو ما سأتي إليه في حينه؛ لأن ما اتفق عليه معي ناظر وقف

البلد، هو أن أسرد مسيرة الرجل من صغيرها إلى كبيرها.

هذا لا يعني أن نقطع بأن الذهب لم يكن موجودًا، لكنه مجرد احتمال، لا بد من ذكره حتى ولو كان ضعيفًا. أما الذي عرفته وبت متأكدًا منه أن رجلًا يسمى «الشيخ صبيح» قد كتب وراء «أبو العزائم» خلال وجوده في «الإبراهيمية» ما كان يسمعه منه من أذكار وأدعية وعلوم، وكلما تراكم في يده الورق قام بتجليده، حتى صارت لديه اثنتا عشرة كراسة، لكنها فُقدت. سألت عنها «عبد المجيد العشري»، فهز رأسه نافيًا أن يكون قد رأى أيًا منها، أو تحدث أبوه عنها أمامه، وكل ما تذكره واقعة واحدة قال لي فيها إن «الشيخ صبيح» كان قد بنى مسجدًا يُلقي فيه دروسًا، وهو جالس على كرسي عالٍ. وفي يوم علم أن «أبو العزائم» قد جلس على الكرسي والناس ينصتون إليه، فجهز له سبعة أسئلة وسارع إلى المسجد، راغبًا في مناظرته وإحراجه أمام الناس. ولما رآه الشيخ الكبير، نزل من على كرسيه تاركه له، وقبّل يده، لكن «الشيخ صبيح» أشار له أن يبقى مكانه، ويُكمل درسه، معولًا على ما في جيبه من أسئلة أن يحسم الأمر لصالحه، ويُعلِّم هذا الفتى الغريب ألا يجرؤ على الجلوس مكانه بعد اليوم.

وما إن عاد «أبو العزائم» إلى كرسيه، حتى قال: جاءنا الشيخ صبيح وفي جيبه سبعة مسائل، الأولى عن كذا، وإجابتها كذا، والثانية عن كذا، وإجابتها كذا، وهكذا حتى أتى على ذكر كل المسائل، وهنا أجهش «صبيح» بالبكاء، وجرى نحوه، وقبّل يده، وقال له أمام الناس:

- من اليوم أنت شيخي.

هذا ما يتذكره «عبد المجيد العشري»، لكنه ليس بمفيد لنا إلا في ناحية واحدة، وهي أن مريدي «أبو العزائم» يتحدثون عن كرامات له، ويعددون مناقبه، وقد يكون الحديث عن طمر الكنز، الذي ظهر في سراي الحنفي، هو من سبيل التعظيم، وعلينا أن نأخذ هذا في الحسبان، يا فخامة الجالس على الكرسي الكبير.

بت ليلتي في فندق صغير بسيط، وكان عليَّ أن أترك «الإبراهيمية» مبكرًا، وأستعد للسفر إلى «المنيا» المحطة التالية التي انتقل إليها «أبو العزائم».

ركبت سيارتي، وهممت للخروج من البلدة. لم أكن أشعر بأنني وقفت على الكثير، بل جرفني إحساس باليأس، وبدا لي ما أبحث عنه بعيد المنال، رغم توالي السفر، والإنصات إلى كل ذي صلة بالشيخ الكبير.

فوجئت بنقرات على زجاج السيارة الخلفي، ورأيت في المرآة شيخ «عبد المجيد العشري»، وعصاه مرفوعة إلى أعلى، ضغطت على الزر فانفتح الزجاج، وتقدم هو خطوتين، فصار وجهه في وجهي. قال لي:

- جئت لأودعك.

فتحت له الباب، فجلس إلى جواري على مهل، وهو يلهث.

شكرته على أنه أتعب نفسه وجاء، ولكنه نظر إلي طويلًا كأنه يراني للمرة الأولى، وقال:

- معرفة الناس كنوز.

لم تكن العبارة جديدة على أذني بالطبع، لكني شعرت كأني أسمعها للمرة الأولى، تركت الكلمة الأولى والثانية وأمسكت الثالثة، وقلت له:

- لم يأت بي إلى هنا سوى هذه.

هز رأسه، وابتسم وقال:

- أعرف.

وقبل أن أنطق، بينما عيناي متسعتان دهشة، وجدته يقول:

- لا نرى ما بين أيدينا، لأننا ننظر إلى البعيد.

وربت كتفي، ثم فتح الباب، وغرس عصاه في أسفلت الشارع المتآكل، ورفع جسده على مهل، وألقى نظرة عجلى على الطريق، ثم خرج صامتًا، وتركني غارقًا في ظنوني. لم يكن قد أغلق باب السيارة بعد، فمددت يدي، وأمسكته من طرف قميصه وأردت أن أستمهله، لكنه رفع عصاه باتجاه الشارع الذي يخرجني من البلدة، وقال:

- ليس لدي شيء آخر أقوله لك، لكن عليك أن تتذكر جيدًا ما سمعته.

وأعطاني ظهره ومضى.

6

ليست «المنيا» بالنسبة لي كغيرها، فأنا «خيري محفوظ» أستطيع أن أقول باطمئنان إنني أعرف عنها الكثير، فقد تخرجت بقسم التاريخ بكلية الآداب في جامعتها، ومنها حصلت على درجة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر. لكن ليس هذا هو المهم، إنما الأهم هو ما أتذكره جيدًا، وأنا أسكن بشقة بسيطة في بيت قديم بحي «طه السبع» عن بعض مريدي الطريقة «العزمية»، حيث رأيتهم وهم يجلسون في زاوية مجاورة للبيت، لينظموا حضرة بعد صلاة العشاء من كل يوم أحد. وذات ليلة جلست معهم، أقرأ «نيل الخيرات»، ثم وقفنا في صفين متقابلين، ونحن ننصت إلى إنشاد عذب، وشبكنا أيدينا، وطوحنا رؤوسنا يمنة ويسرة، وإلى أعلى وأسفل، وخرجت في هذه الليلة منشرح الصدر، أكاد أطير.

أقول هذا لأنني بدأت الزيارة بالذهاب إلى تلك الزاوية، لعلي أقابل أحدًا من مريدي الطريقة هناك، وتمنيت، وأنا في طريقي، لو أن أيًا منهم قد تذكرني، لأختصر زمنًا وأوفر جهدًا. كنت أعرف أنني ذاهب إلى أرض البداية، التي ترك فيها الشيخ «أبو العزائم» فائضًا

كبيرًا من الصوت والرائحة والصور. وانتابني شعور قوي بأنني سأضع قدميَّ على أول الطريق، أو أمسك علامة قوية، تقع عليها عيناي، أو أسمعها، أو أمسكها بيدي.

بدأت رحلتي بالذهاب إلى البناية التي كنت أسكنها ذات يوم. وصلت إلى هناك فلم أجدها مكانها. وكنت أتوقع هذا حين دخلت الشارع الضيق، بعد أن تركت سيارتي في شارع رئيسي أوسع قليلًا، فوجدت معالمه قد تغيرت تمامًا، وكذلك الميدان الضيق، الذي كان يشرف على محطة الباصات الذاهبة إلى القرى المجاورة في الاتجاهات الأربع.

لكن الزاوية بقيت على حالها، دخلتها قبيل المغرب، وانتظرت أن أرى أيًا من الوجوه التي لا تزال ملامحها عالقة في رأسي. ناس يأتون ولا أعرف منهم أحدًا، إلى أن جاء وجه بدا لي مألوفًا جدًا. حفرت في ذاكرتي حتى عرفته، فاقتربت منه حتى جلست إلى جانبه، ثم بادرته:

ـ إزيك يا «مرتضى».

رفع وجهه ملتفتًا ناحيتي، وضيق عينيه، ثم جمدت ملامحه برهة، وقال:

ـ كأني أعرفك.

مددت يدي، ووضعتها على كتفه، وقلت:

ـ زميل حضرة قديم.

بدا أنه لم يتذكرني جيدًا، فعرَّفته بنفسي، وأخبرته أنني أؤلف كتابًا عن الشيخ الكبير، فتهلل وجهه، وأبدى استعداده التام لمساعدتي.
وكان أول ما كشفه لي وثيقة بمديرية التربية والتعليم بالمنيا تعود إلى عام 1973 صدرت بمناسبة مرور مائة عام على إنشاء مدرسة «المنيا» الابتدائية التي درس فيها الشيخ. وذهبت في اليوم التالي إلى المديرية فقرأت ما يلي في الصفحة الثانية والعشرين:

«ومن أول مدرسيها المرحوم السيد محمد ماضي أبو العزائم شيخ الطريقة العزمية، كان مدرسًا بها سنة 1310 هـ، ويقوم بتدريس اللغة العربية والدين، ونفاه الإنجليز مدة بالسودان لأسباب سياسية».

كلام عادي، لم يفدني بشيء، لكن «مرتضى» حكى لي كيف سار ناس كثيرون في القرى المحيطة بمدينة «المنيا» خلف الشيخ، حتى أنه كثيرًا ما كان يسير في شوارع مدينة «المنيا» وهم يتبعونه، فيسدون الطرق من زحامهم.

وأخذني إلى بيته لأرى ما يقتنيه من كتب «أبو العزائم»، التي تجاورت على رف مكتبته، تفسير القرآن، وكتب في العقيدة والفقه، وأخرى في الأخوة والمناسبات الدينية، والصلوات والأدعية، والتصوف، والمواجيد، وقصص ومسرحية، وأعداد من مجلات «السعادة الأبدية» و«الفاتح» و«المدينة المنورة» التي أصدرها. مرر سبابته عليها، وقال لي:

ـ بوسعك أن تطالع ما تريد.

ألقيت نظرة على الكتب، وقلت له:

ـ أتمنى لو أتمكن من قراءة كل هذا .. طالعت بعضًا منها، لكنني كنت مأخوذًا بالبحث في اتجاه واحد، ولا أعتقد أنني وعيت كل ما فيها.

ـ لا بأس، ابق هنا ضيفًا عزيزًا عليَّ، واقرأ ما شئت على مهل.

نظرت إليه متعجبًا، وقرأ في عينيَّ سؤالي، فعاجلني بإجابة طلبتها صامتًا:

ـ أنا أعيش هنا وحدي، ابني تزوج وسعى وراء رزقه إلى «الكويت»، وابنتي تزوجت وتعيش مع زوجها، موظف بوزارة الأوقاف، أصوله من «المنيا» وجده كان أحد المقربين من الشيخ الكبير، اسمه «عليوة».

وعرض عليَّ أن أقيم معه، ووعدني بأنه سيفيدني إن أردت، فقد قرأ كل كتب الشيخ، وما كُتب عنه، ووجدته يقول لي:

ـ الشيخ كنزنا العظيم.

أمسكت في هذه الكلمة الأخيرة، وجدتها فرصة كي أوارب الحديث نحو الكنز، فعسى أن يكون لديه ما يفيدني فعلًا. بان لي منذ البداية أن الفائدة لديه هي المضامين الثرية، التي حواها ما كتبه الشيخ، أما بالنسبة لي فالفائدة كانت محصورة في ما أبحث عنه.

كنت أعرف أنه مدرس للفلسفة بمدرسة «المنيا الثانوية العسكرية»، فيوم تعيينه، وأنا لا أزال طالبًا بجامعة «المنيا»، أكلت من وليمة

أعدها لأحباب الطريقة. يومها كنت أتعجب من فيلسوف يجلس في الحضرات ويطوح رأسه، ويلهج لسانه بالأوراد والتسابيح. لكنه هذه المرة حدثني بما أدركت معه أن بين ما يُدّرسه لطلابه، وما يهيم به، ائتلافًا قويًا.

مررت يدي على كعوب الكتب المتلاصقة، وقلت له:

ـ أتسمى هذا كنزًا؟

هز رأسه بإمعان، وقال:

ـ كنز الكنوز.

غمرني صمت لبرهة، ثم قلت له:

ـ ما أعرفه أن الشيخ الكبير عثر على كنز حقيقي، دفينة كانت تحت أرض سراي الحنفي، الذي سكنه إلى أن لقي ربه.

وجدته يقهقه، ويقول:

ـ هل وصل هذا لك أنت أيضا؟! .. زوج ابنتي مهووس بتلك الخبيئة، وبلغ به جنونه أن قرر البحث عنها، هو وزميل له في العمل، مقرب من شيخ الطريقة.

وجدت قلبي يرتجف، وشعرت في هذه اللحظة أن الأقدار ساقت هذا الرجل في طريقي، أو أنها ساقتني إليه. تثاقلت حتى لا أشعره بلهفتي على ما قاله، وأعدت النظر إلى الكتب، وقلت له:

ـ هل لديك الوقت لتشرح لي ما فيها؟

ابتسم، وأخفض رأسه، وقال بصوت هادئ:

ـ العفو، نحن نتعلم منك، حتى منذ أيام كنت طالبًا، فقد حكيت لنا حكايات من التاريخ، لا تزال محفورة في رأسي.

لا أقول هذا، يا فخامة الجالس على الكرسي الكبير كي أزهو بنفسي، فمعاذ الله أن أفعل ذلك أمامكم، لكنني أحرص، كما قلت مرارًا، على أن أنقل كل ما جرى معي بلا زيادة ولا نقصان.

قبل انتصاف الليل، تركني ودخل غرفته بعد أن جهَّز لي غرفة ابنه لأنام فيها. ألقيت جسدي على السرير متوسلًا النوم بعد عناء يوم طويل، لكنه لم يأت أبدًا. أرق وشرود في متاهات الدنيا، وخوف من الإخفاق بدأ ينتابني، تصرعه رغبة في بلوغ هذا المستحيل. بين النوم واليقظة أتاني صوت ندي، رميت أذنيَّ نحو النافذة، فلعله قادم من الخارج، لكنني أدركت أنه يتهادى من الجهة الأخرى. دققت السمع، وقمت على أطراف أصابعيَّ، وتقدمت على مهل، فوجدت الصوت قادمًا من غرفة «مرتضى»، ألصقت وجهي بالباب، ومن ثقب رأيته متربعًا على سجادة خضراء، وفي يده كتيب، ينظر فيه وينشد. لم أشأ أن أقتحم عليه خلوته، لكن فضولي أبقاني عند الباب، لأسمع ما لم أتوقعه.

وجدته يقف في منتصف السجادة، وينظر طويلًا إلى الحائط، ويكلم شخصًا لا أراه. هل كان هو يراه؟ .. لا أعلم. بدا لي مصابًا

بفصام حاد، يهذي تائهًا في خيالات مريضة، أو ممثلًا بارعًا، اندمج في الدور الذي يؤديه حتى توحد معه.

"الكون رمز لكنز، إن فُك لك وجدته أنت .. خير كتاب تقرأه هو أنت .. ليس الوصول تلذذًا بالأعمال، وتجملًا بالأحوال، إنما الوصول معرفتك نفسك، وعلمك مرتبتك، وتحققك بفاقتك، واضطرارك لها، فكم عامل بالكتاب والسنة وهو أشر على المسلمين من الجنة، وكم من متظاهر بزي المساكين، وهو أضر عليهم من الشياطين، فجمِّل باطنك لمولاك، يدوم رقيك وعلاك».

ستسأل فخامتك: كيف حفظتك هذا قبل أن أكتبه؟ أنا لم يتسن لي حفظ مثل هذا الكلام سريعًا، ولم أطلب من «مرتضى» أن يكرره أمامي في اليوم التالي، وكتبته وراءه، لكن كل ما قاله تمكنت من كتابته في حينه، فقد جريت إلى الغرفة التي أبيت فيها، وفتحت حقيبتي على عجل، وخطفت كراسة وقلمًا، وجلست عند الباب، أنصت جيدًا إلى الصوت الخارج منه، وأكتب كل ما أسمعه، ولأنه كرره مرة أخرى في الليلة ذاتها، فقد أتاح لي أن أكتبه.

كتبت خلفه في سرعة شديدة: «لقد تهيأ مسرح الكون لاستقبال الإنسان، ثلث مراتب الوجود، وعليه أن يشكر الله على نعمة إيجاده من عدم، وإمداده بكل أسباب التمكن في الأرض، بعد أن خرج من الأصول الثلاثة: العدم والتراب والمَنِّي، ليخلقه الله بيديه في أحسن تقويم، مبناه ومعناه، أما مبناه فمن كل معادن الأرض، فجمع أركان

الوجود الماء والتراب والهواء والنار، ذلك هيكله، وأما معناه فقد جمع الله فيه حقائق الوجود، سماء وأرضًا». بعدها راح ينشد بصوت عذب:

«وجودان لي قد أثبتا تفريدي
وجود به حجبت بالتقييد
وجودي في رسمي الذي كان حجتي
به كنت في جهد وفي ترديد
يستر نور الروح عني فتختفي
فأشهد نفسي في ظلام البيد».

ثم قام من مكانه، وتمدد على سريره، وكنت أرى تحت ضوء خفيف يده ترفرف في الهواء، كعصفور جذلان، تأرجحه نسائم أول المساء الطرية. لم أفهم سر هذه الرعشة، لكن أصابع يمناه كانت منحنية، وإبهامه يحط عليها تباعًا، وشفتاه تنفرجان وتنغلقان في سرعة. وبينما هو غارق فيما أراه، مد يده إلى قابس بجوار السرير، وضغط عليه، فغطس في بحر من الظلام، وانسحبت أنا بهدوء حتى وصلت إلي سريري، فألقيت جسدي، وشاركته النوم.

في الصباح قلت له إنني وأنا ذاهب إلى المرحاض سمعته يتفوه بكلام غريب، فابتسم وأخبرني أنه من كلام الشيخ الكبير، ووعدني بالمزيد إن أعطيت هذه الكتب وقتًا، ثم فاجأني بشيء لم يكن في حسباني، حين دعاني لحضور «بروفة» مسرحية «محكمة الصلح

الكبرى» للشيخ «أبو العزائم»، يقوم بتمثيلها بعض أحباب الطريقة، وبعض صغار الفنانين على مسرح قصر ثقافة «المنيا»، وذهبنا بعد الظهر إلى هناك. لم أتمكن من قيادة سيارتي في شوارع نسيتها، فتركت هذه المهمة له، فظلت يداه طوال الطريق على المقود، وعيناه على الشوارع، وفمه لا يكف عن شرح مضمون المسرحية التي نحن ذاهبان لحضور بروفتها الثانية.

قال لي كلامًا عجيبًا، أرى أن أكتبه لفخامتكم هنا، فربما تجدون فيه ما يفيد في الذي نبحث عنه، أو في أي شيء آخر يتراءى لكم، ناقلًا إياه من تسجيل هاتفي بعد أن أفهمته أن كل ما أسجله عنه سيفيدني في الكتاب الذي أعده عن الشيخ الكبير. فالمسرحية، هي «لقاء بين الخيال وهو مرآة المحسوسات، والوهم وهو مرآة المعنويات. وحدثني وكأن كليهما إنسيَّان يتحدثان بلسان مبين، فقد أخذ الوهم يبين للخيال عناءه مما فعله به الإنسان حين واصل ارتكاب المعاصي، فإذا بالخيال يبادله الشكوى، ويجدان نفسيهما في حاجة إلى استشارة العقل، فيذهبان إليه دون إبطاء، ويعرضان عليه ما هم فيه من شُغل وهموم، فينصحهما برفع شكواهما إلى محكمة الصلح الكبرى، وهنا يجلس الإنسان المتجرد من مثل هذى الشكوى، ليكتب عريضة الدعوى، وتقدم لمحكمة، تشكل هيئتها من رئيس المحكمة (العدل) وعضوية كل من (القسط والعلم والهدى والتوفيق) وكاتب الجلسة (أمين). ويمثل أمام المحكمة المُدَّعون وهم العقل والفكر والروية والعفة والشجاعة

والكرم والعدالة والنور والعزة والرحمة والنطق والخشية والحكمة. كما يمثل المتهمون وهم : النفس السبعية والنفس البهيمية والشهوة والجبن والبخل والتهور والغدر والحس والضيم والقسوة والجسم والتيه والحماقة. وتقف كل نفس من هذه النفوس تبدي أوجه دفاعها بالحجج والبراهين. وبعد ثلاث جلسات من الاستماع إلى المرافعة ومواجهة بين الخصوم، كل واحد منهم للآخر، تصافحت النفوس المتصارعة في الإنسان، وعقدت صلحًا أمام هيئة المحكمة، يقوم على طاعة أمر الله على قدر الاستطاعة، ومجاهدة النفس حتى تطيع، وحب الآخرة، وحب الرسول. ووقع على عقد الصلح هذا من رئيس المحكمة، التي قضت بإلحاق عقد الصلح بمحضر الجلسة، وإثبات محتواه فيه بما ينهي المنازعة».

سألت «مرتضى» ضاحكًا قبل أن نصل إلى المسرح:

ـ من ذا الذي يشاهد مسرحيتكم هذه؟

أجابني:

ـ سنحشد مريدي الطريقة من كل مكان في «المنيا» ليمتلئ بهم المسرح، وبعدها سنعرضها في مولد «أبو العزائم» في مقر الطريقة بالقاهرة، وهذا يكفينا.

في طريق العودة، أخذني مرتضى إلى مطعم صغير بالقرب من مسجد وضريح «الحبشي»، اكتشفت فور وصولي إليه أن صاحبه من

مريدي الطريقة العزمية. وحين جلسنا إلى طاولة الطعام، حطت عيناي على أبيات شعر في لوحة ذات إطار مذهب تقول:

«ولا فخرًا ملوك العشق تخضع

على بابي وقد طلبوا وصالي

أنا الساقي مدامًا سلسبيلًا

لأهل معيني أهل الكمال

وأبدالي هم الأقطاب حقًا

وأفرادي مفاتيح لحالي»

وتحت الأبيات مكتوب اسم الشيخ «أبو العزائم». وإلى جانبها صورة معلقة على الجدار، أمعنت النظر إليها فإذا هي للشيخ الكبير، لكنها صورة مختلفة عن صوره، التي رأيتها له من قبل على أغلفة بعض الكتب وفي بطونها. لا أدري لماذا رأيت خيطًا ذهبيًا عريضًا في منتصف العمامة وأساور القفطان الأسود، فوجدت نفسي أنتفض واقفًا، فاصطدم ذراعي بالطاولة فاهتزت، وانسكب طبق الشربة الساخنة، وراح يتقاطر على الأرض، لكنني لم أعبأ به، ولم ألتفت إلى انزعاج «مرتضى» وصاحب المطعم، الذي جرى وأحضر فوطة زرقاء وراح يجفف الطاولة أمامي. كنت مأخوذًا بخيطي الذهب هذين، لاه عن كل من حولي وما حولي. ووجدتني أسأل صاحب المطعم ببراءة:

ـ هل ما في العمامة وأساور القفطان ذهب حقيقي؟

نظر إلى الصورة وكأنه يراها للمرة الأولى، ثم أعاد بصره إليَّ وقال:

ـ لا أعتقد، فما عرفته من جدي أن الشيخ الكبير كان يكره الذهب، ويراه أحد بلايا الدنيا وشقائها.

ونظر إلى الصورة مرة أخرى، وتقدم إليها، حتى وضع إصبعه على زجاج البرواز، وقال:

ـ أيام الشيخ الكبير لم تكن هناك صور ملونة، لا بد أن أحدًا خط بقلم أصفر على الصورة، قبل أن توضع في بروازها.

قمت من مكاني وتقدمت حتى ألصقت وجهي بالصورة، وحملقت في الخطين الأصفرين فرأيتهما ذهبًا خالصًا. أبعدت وجهي قليلًا عن البرواز، وقلت:

ـ هذا ليس لونًا أصفر. لا يمكن أن يكون مجرد لون.

ولاحظ «مرتضى» انشغالي بالأمر أزيد من اللازم، فنظر إليَّ مستغربًا ما أنا فيه، وقال لي:

ـ يبدو أنك مشغول بشيء غير تأليف كتاب عن شيخنا الكبير.

قاومت ضعفًا يجتاحني بأن أسِّر له بما أعرف، لعله حينها يزيد من مساعدتي فيما أريد، ولا أُضيِّع وقتًا آخر، لكنني لجمت لساني

في اللحظة الأخيرة، وآثرت أن أستمر في موارية كل شيء. وانتظرت حتى أتى المساء، لأستمع إلى حكايات عن الشيخ هنا في «المنيا»، كان «مرتضى» قد وعدني بأن يحكيها لي، وقلت التقط من بين حروفها ما يفيدني في مسعاي.

في المساء قال لي إن أحد الباشوات وهو من كبار أغنياء الصعيد وجه دعوة للإمام فلبى، وأقام في بيته أيامًا، ليسمعه ويريه، ثم استأذن في الذهاب، وكان معه ابنه «عبد الله» فخرج الباشا ليوصله إلى محطة القطار. وبعد أن غادر القطار المحطة ومضى بعيدًا، كشف الابن لأبيه الشيخ أن الباشا أعطاه ورقة مطوية، وطلب منه ألا يقول لأبيه عنها حتى يغادر قصره. وأخذ الشيخ الورقة المطوية وفتحها ليجدها حجة تمليك بمائة فدان باسم الشيخ «أبو العزائم». وهنا غضب الشيخ غضبًا شديدًا، وقال: «جئت لأدله على الآخرة، وها هو يدلني على الدنيا»، وأمر ابنه أن ينزل في المحطة التالية، ويعود إلى بلد الباشا، ويعيد إليه حجة أرضه. وسمع منه مريدوه ما أمر به، فطلبوا منه أن يعيدها فيما بعد، لكنه أبى، وأنزل ابنه ومعه بعضهم، وقال لهم:

ـ أعطوه الحجة واشكروه واعتذروا له، وعودوا دون إبطاء، فما معنا أفضل كثيرًا مما معه، لو نظرتم إلى الأمور بقلوبكم.

سعيت إلى استفزازه لأحظى بمزيد من الحكايات، فقلت له:

ـ ليس من المعقول أن يرفض شيخكم هدية، وهو الذي يعلمكم أن الرسول نفسه قد قبل الهدايا.

رفع وجهًا مملوءًا بالعجب مما سمع، وقال:

ـ أتسمى مائة فدان هدية؟ إنها قطعة من الدنيا، أريد بها صيد قلب معلق بالآخرة .. وحتى لو لم تكن كذلك، فالشيخ لا يقبل، ولو تمرة واحدة، تجعل قلبه معلقًا بالدنيا.

وتحقق لي ما أريد، إذ أغمض عينيه وراح يقول: «الدنيا خمر الشيطان، من شربها لم يفق إلا بين عساكر الموت نادمًا بين الخاسرين، قد ترك لغيره ما جمع، وتعلق بحبل غرورها فانقطع».

ثم التفت إليَّ، وقال:

ـ هذا قول شيخنا، ورجل كهذا عصي على أن يصيده أحد، ولو بكنز من ذهب.

وراح يحكي حكاية أخرى: «كان شيخنا بين حاضري حفل فخيم أقامه أحد أثرياء المنيا، وحضره كبار عائلاتها، وكان صاحبه، وهو باشا ثري، يطوف بنفسه وفوق كفيه صينية عليها أكواب من العصائر، وكلما مد إلى أحدهم كوبًا أخذه ممنونًا وشربه، فلما جاء الدور على شيخنا، نظر إلى الباشا وقال له: لن أشرب من مال اليتامى. حيث كان الباشا وصيًا على أبناء أخيه، الذي رحل عن الدنيا، ويأكل مالهم. وعبثًا حاول الرجل ومن معه أن يجعلوه يشرب العصير. بل إنه قام، وترك الحفل».

وسأله مريدوه بعد انصرافه:

ـ لماذا حضرت يا سيدنا إن كنت تعلم أن مال الرجل حرام؟

فابتسم، وأجابهم:

ـ حضرت لأقول له ما لن يسمعه من أحد غيري.

كان «مرتضى» يحكي وعيناه ذاهبتان إلى النافذة، لتحطا هناك فوق سحابة تشاكس ضوء القمر، وترجعا إليَّ مليئتين بغموض ساحر. وأوصاني أن أقرأ كتب الشيخ وسأجد حكايات كثيرة له، وحكايات أخرى عنه، ووجدته يقول لي إن كل ما سمعته ليس من صنع الخيال، وراح يتهمني بأنني رجل لا يريد أن يؤمن إلا بما يمسكه في يده، وأن كل ما أكتبه في التاريخ، مدعيًا أنني محايد، ما هو إلا أشياء انتقيتها بعناية لأنها تجاري ما أريد الوصول إليه أو أؤمن به، وأهملت غيرها مع أنه قد يكون أهم مما اخترته، لأنه لا يروق لما أعتقد فيه أو أميل إليه. فلما سألته إن كان قد قرأ لي شيئًا، فذكر عنوانيّ كتابين، ودخل في تفاصيلهما، فأوقفته، لأنني لم أرد أن يشرد الكلام خارج حيز الشيخ الكبير.

قبل أن ينام واربت الحديث معه عن زوج ابنته الذي يبحث عن الكنز، فوجدته يطلب مني أن أبتعد عن هذا الموضوع. وساورتني شكوك في أن هناك ما يود إخفاءه عني، وسار ظني نحو أمر يتعلق بالكنز، لكنني وجدته يتلفت حوله وكأننا نجلس في سوق مزدحمة، وصوته ينخفض قليلًا، ويبوح لي بأن ابنته قد أخبرته أن زوجها قد تم استدعاؤه إلى مبنى جهاز أمن السلطة، وحققوا معه هناك حول موضوع الكنز، وطلبوا منه ألا يتفوه بكلمة واحدة عنه بعد خروجه منه.

ووجدته يقول لي:

ـ يبدو أن جهات رفيعة في الدولة تنفذ خطة لاستخراج الكنوز.

ثم طوح يده في الهواء، وعلى شفتيه ابتسامة خافتة، وقال:

ـ خيرات بلادنا فوق الأرض، لكنهم لا يرون إلا ما تحتها.. يتركون ما في أيديهم، ويجرون وراء السراب.

عندها أدركت، يا فخامة الجالس على الكرسي الكبير، أن ما يعتقد ناظر وقف البلد، وضباط أمن السلطة، وأناس حولكم في القصر أنه سر دفين قد وصل إلى عموم الناس، وأن هذا قد يجعل مهمتي أصعب. وهذا ما شعرت به فور إبلاغ «مرتضى» لي بقضية «عليوة»، فقد ثقل لساني وأنا أسوقه لأسأله عما إذا كان يعرف أحدًا من نسل «خلف» الذي رأى الكنز وهو يحفر، وصرخ مناديًا الشيخ الكبير. لكنني ضغطت على نفسي، وطرحت عليه السؤال، فراح يقهقه، ثم قال لي:

ـ الدنيا صغيرة جدًّا، «عليوة» هو حفيد «خلف المنياوي».

ظل يثرثر وهو يضرب أمثلة على ضيق الدنيا، بينما انتابتني حالة من الملل، لاسيما أن حديثه هذا لم يكن مفيدًا لي في مهمتي، التي لا يشغلني سواها. سألته إن كان عنده تليفزيون، وكنت لم أره منذ أن دخلت بيته، فقال لي:

ـ لا أشاهد التليفزيون، عندي جهاز قديم خرب، لم أجد نفسي في حاجة إلى إصلاحه.. كما أنني لا أقرأ الصحف، الفلسفة أخذتني من كل شيء.

قلت له إن الفلسفة نزلت من السماء إلى الأرض منذ زمن بعيد، لكنه قال لي فجأة:

ـ أراها في وجوه الناس بالشوارع، وليس في الصحف التي لم يعد فيها إلا الأكاذيب.

وفي هذه الليلة انتظرت حتى نام «مرتضى»، وتسللت إلى غرفة مكتبه ومكتبته، ورحت أُقلِّب في أوراقه لعلني أجد شيئًا مفيدًا في طريق الوصول إلى الكنز. كانت أغلب الأوراق ملخصات في الفلسفة والمنطق أعدها لتلاميذه، وخطابات قديمة مكتوبة بخط اليد، تعود إلى ما قبل عشرين سنة، كما اتضح لي من التواريخ المطبوعة على المظاريف، وفهرس للمكتبة يقسمها حسب المعارف التي تحتوي عليها. لكن، ويا عجبي، وجدت ورقة جعلت النوم يطير من عيني هذه الليلة، لما قرأتها كدت أرقص من الفرح، لكن خفت أن أوقظه. وأعطاني شخيره المتواصل فرصة كي أقرأها مرات عدة، بل إني سحبت ورقة بيضاء من أمامي وأخذت أفك شفراتها.

وأرى هنا، يا فخامة الجالس على الكرسي الكبير، أنه من الضروري أن أنقل لكم ما وجدته حرفيًّا، فربما يكون لكم، رأي آخر فيه، وها هو:

«اهدم المنزل، فمن عقيق هذا اليمن، يمكن بناء مئات الآلاف من المنازل.

فالكنز تحت المنزل ولا محيص من هذا، لا تتوقف ولا تظن أن الأمر خراب.

فإنك إن حصلت على هذا الكنز تستطيع أن تبني آلاف المنازل بلا نصبٍ ولا تعب.

ثم إن هذا المنزل سوف يتهدم في النهاية من تلقاء نفسه، وعلى وجه اليقين سوف ينكشف الكنز من تحته.

لكنه آنذاك لن يكون لك، فإن الروح جعلت الهدم هو الثمن لهذا الفتوح.

وما لم يقم أحد بهذا العمل فلا أجر له، إذ: (ليس للإنسان إلا ما سعى).

حينذاك سوف تعض بنان الندم قائلاً: وا أسفاه لقد كان هذا القمر مخفياً خلف السحاب.

إنني لم أفعل ما أخبروني به من خير، فضاع المنزل، وضاع الكنز، وأصبحت خاوي اليد.

لقد اتخذت منزلاً بالأجر والكراء، فهو ليس لك ببيعٍ أو شراء.

وهذا الكراء مدته حتى الأجل، وحتى تقوم خلال هذه الفترة بالعمل فيه.

إنك تقوم بخصف النعال في دكان، وتحت هذا الدكان منجمان.

وهذا الدكان بالكراء فأسرع وخذ فأسك، وداوم على حفر القاعة.

حتى تدق الفأس فجأة على المنجم والكنز، فتتخلص من العكوف على الدكان وعلى خصف النعال، فما هو خصف النعال وترقيعها؟ إنه أكل الخبز وشرب الماء. إنك تضع هذه الرقعة على خرقة مثقلة بالرقع.

إنّ خرقة جسدك تتمزق في كل لحظة، فتضع عليها رقعة من طعامك هذا.

- ويا من أنت من نسل الملك الموفق، عُد إلى نفسك واشعر بالعار من وضع الرقع!

واقتلع قطعة من قاع الدكان، حتى يطل عليك المنجمان.

وذلك قبل أن تنتهي فترة الإيجار، ولا تكون قد نلت منه أية ثمرة.

- ثم يخرجك صاحب الدكان منه، ويهدم هذا الدكان من فوق المنجم.

وحينذاك تضرب من الحسرة رأسك بيدك .. وتأخذ حيناً في اقتلاع لحيتك الساذجة.

صائحاً وا أسفاه لقد كان هذا الدكان لي، وكنت أعمى فلم أستفد من هذا المكان.

وا أسفاه إنّ وجودنا قد ضاع أدراج الرياح ... وصار وردنا إلى الأبد: (يا حسرتا على العباد) وا أسفاه لقد رأيت في هذا المنزل صوراً ورسوماً وصرت من عشقي إياه لا يقر لي قرار.

وا أسفاه لقد اختفى قمري تحت السحاب.

وكنت جاهلاً بأمر الكنز الخفي وإلا لما فرطت يداي في الطبر.

آهٍ لو كنت أعطيت للطبر حقه، لبرئت هذه اللحظة من الأحزان والندم.

كنت ألقي بأنظاري على الصور والنقوش، كنت أزاول معها ألوان العشق كالأطفال».

بالطبع لم تكن في مكتبة «مرتضى» آلة تصوير، فنقلت هذا النص، كما هو مكتوب لديكم. وتعمدت في صباح اليوم التالي أن أترنم أمامه، ونحن معًا في المطبخ نعد كوبين من الشاي بمطلع هذا النص، فرحت أغني: « اهدم المنزل، فمن عقيق هذا اليمن، يمكن بناء مئات الآلاف من المنازل»، كررتها ثلاث مرات وتوقفت، فوجدته يكمل لي النص كله، ويقول بعد أن انتهى:

ـ ما أعظم مولانا جلال الدين الرومي؟

للأسف كنت قد سمعت عن هذا الاسم، وأعرف أنه شاعر صوفي كبير، لكن لم أكن أعرف عنه الكثير، والاعتراف بالحق فضيلة، ومن قال لا أعلم فقد أفتى. كنت قد ظننته للوهلة الأولى واحدًا من شيوخ الطريق الذين تتلمذ «أبو العزائم» على يديه، لكن لم أبح بظني هذا، حتى لا أبدو أمامه جاهلًا إن كان ظني خاطئًا، وهو ما كان بالفعل، فبين الرجلين أزمان وراء أزمان.

حدثني «مرتضى» عن «الرومي» كثيرًا، لكنني كنت مشغولًا بمعاني هذه الكلمات، ومشغولًا أكثر بالأسباب التي جعلت صاحبي يقفلها على هذا النحو ويضعها بين أوراقه الخاصة، فمكتبته مملوءة بدواوين الشعر وكتب المتصوفة، بل إن أشعار شيخه «أبو العزائم» تحويها مجلدات تلو أخرى، فلماذا لم ينقل منها شيء، وينقل شعر الرومي على هذا النحو؟ ولماذا لم يكتب القصيدة كلها، واكتفى بجزء منها؟ فقد أبلغني هو بأن المكتوب ليس كل القصيدة، وتأكدت أنا فيما بعد من هذا حين ذهبت إلى مكتبة الجامعة وراجعت «المثنوي».

لم أكتف بما قاله لي، بل رحت أمطره بأسئلة، حتى قال لي متعجبًا:

ـ أنت ضللت طريقك إلى التاريخ وكان الأحرى بك أن تعمل وكيل نيابة.

وكانت هي المرة الأولى التي أشعر فيها أن حديث «مرتضى» معي قد بات غامضًا وبعيدًا، فقد راح يحدثني عن أن الله هو الكنز المخبوء وأنه خلق الخلق ليعرفوه، لكن من يسعون إليه هم فقط من سيعرفونه حقًا. وقال لي إن وجود الإنسان في الدنيا يشبه من يقيم في خرابة مؤجرة تحتها كنز، ولا يريد أن يهدم الخرابة ليجد الكنز، مع أنها ستسقط يومًا ما فوق رأسه، أو يشبه من يخصف النعال في دكان مؤجر وتحته كنزان، لكنه يخشى هدم الدكان، ويكتفي بمواصلة الرتق

من أجل الطعام والشراب، وما يكسبه لا يكفيه فتتراكم عليه الديون، ويخرجونه من الدكان في النهاية.

كنت شاردًا منه، فقد جاءتني فكرة جهنمية في هذه اللحظة، لا علاقة لها بما يقوله مباشرة، وإن كان قد أوحى إلي بها دون أن يدري، ورأيت أمامي جدران بيت آل العزائم ومسجدهم ودار نشرهم ومستوصفهم وجمعيتهم الخيرية تتشقق وتتساقط كثمار معطوبة، لينهدم كل شيء، ويصير كومة هائلة من تراب، فوقتها بوسعنا أن نبحث عن الكنز بسهولة.

استغفرت الله على هذه الصورة الشريرة، التي صنعتها أمامي في أفق أسود، لا يراه محدثي الذي قال لي:

ـ يبدو أن الكلام أعجبك.

تنهدت وقلت له:

ـ ماذا لو كان ما قلته أمرًا حقيقيًا.

ابتسم وقال:

ـ هو حقيقي بالفعل.

ـ لا أقصد، لكن ماذا لو كان بالفعل كنزًا مخبوءًا تحت الخرابة أو الدكان؟

هز رأسه، وسألني:

ـ أتقصد الكنز الذي ينشغل به زوج ابنتي؟

ـ نعم.

قهقه وقال:

ـ هذان طريقان مفترقان، وشيخنا الكبير منذ اللحظة الأولى أدرك هذا، ومنع مريديه من استخراج الكنز المخبوء تحت أرض سراي الحنفي.

عندها وجدتني أقول له:

ـ يقال إنه أخرجه، وبعدها ظهرت آثار النعمة عليه.

قهقه وقال:

ـ من يردد هذه التخاريف؟ .. لو كنت قد قرأت سيرته جيدًا، لوجدت أنه كان ابن بيت ميسور الحال.

لم أجد ما أرد به عليه سوى:

ـ أقوال الناس كثيرة.

صمت برهة ووجدته يقول لي:

ـ هناك حكمة لشيخنا الكبير تقول: «ليس الرجل من جعل الحجر ذهبًا، إنما الرجل من جعل البعيد قريبًا من الله».

عندها أدركت أن بقائي في «المنيا» لم يعد ذا جدوى. وبالنسبة للكتب، التي طلب مني قراءتها، فقد قررت أن اشتري ما ينقصني منها من «دار الكتاب الصوفي»، حين أعود إلى «القاهرة». لكن من أسف بدو لي أنني لم أحسن قراءتها.

7

كانت رحلتي إلى السودان مختلفة جدًا، يا فخامة الجالس على الكرسي الكبير، فأنا كنت أعرف من الكتب أن الشيخ «أبو العزائم» قضى فيه عشرين عامًا، وتهيأت لمعرفة أسرار مدهشة عنه، وأنا أُمنّي نفسي بأن أصل إلى تلاميذ تلاميذه هناك، أو أحفاد الرجال، الذين عرفوه حين كان يعمل مدرسًا بالمدرسة الأميرية، ويعظ في المساجد. كنت قد اصطحبت معي بعض الكتب، التي تتناول زمن بقاء الشيخ هناك بين 1895 و 1915، وعرفت منها ضرورة الذهاب إلى مدينة «سواكن» التي بُنيت فوق جزيرة مرجانية، وتحولت منازلها الآن إلى آثار وأطلال. كانت في الأصل جزيرة بالفعل ثم توسعت مع الأيام، فغدت تضم الجزيرة والساحل.

كنت أعرف وجهتي، وهو شيخ الطريقة الميرغنية، فأيام وجود «أبو العزائم» هناك، كانت تربطه علاقة طيبة بشيخها «عبد الرحيم الحيدري السواكني»، بعد أن التقيا في مسجد تاج السر، وكان الشيخ الكبير يلقي دروسه، ويلتف الناس حوله، مشنفين آذانهم بكل ما ينطق به لسانه.

وجدت نفسي في بلدة عجيبة، لا يريد زمانها القديم أن يرحل، شعرت، على العكس من كل الأماكن، التي زرتها من قبل وأنا أقتفي أثر «أبو العزائم» أنني أمشي في زمنه، بين خليط من العرب والبجة، يقطنون هذه المدينة ذات البنايات الخفيضة الهادئة، المعلقة بين البحر والبابسة تحت سماء حانية.

«مرحى سواكن» .. وجدت نفسي أهتف، وأنا أطل من نافذة غرفة ضيقة بفندق بسيط، على قطعة صافية الزرقة من سماء قريبة، ومواء القطط يملأ أذنيَّ. فردت ذراعيَّ في وجه دفقات النسيم العابر، وارتديت ملابسي وذهبت على الفور إلى مسجد تاج السر، فلما بلغته وقفت أمام مئذنته ذات الأحجار المضلعة، وقبته الخفيضة، ونوافذه الضيقة. كبير هو وممتد ومستوى الحوائط، يشبه تلك المساجد التي تراها في شوارع «القاهرة» المملوكية. ورأيت في مواجهته قططًا صغيرة، تمر في حذر إلى جانب الجدر، وعيالًا صغارًا يمدون أيديهم إلى أفواهها الجائعة بأطباق صدئة، بها ذيول السمك وزعانفه وأحشائه وبقايا لحم إلى جانب سلاسل أشواكها.

دخلت المسجد، وراحت عيناي تجوبان أرجاءه على مهل، وتحط على وجوه الجالسين، التي تنطق بوداعة وامتنان. وأدركت في هذه اللحظة أن الشيخ الكبير قد اكتمل هنا، فهذا مكان يجلب الرضاء، ويجعل الزهد مذهبًا أصيلًا. وتذكرت ما قرأته فيما كتبه هو عن هذه الفترة حيث قال: «ثم إلى سواكن، وفيها قرأت البخاري لعلمائها، وقسم العبادات من الموطأ، وصار لي إخوان يحسنون الاقتداء والفهم

في علوم الحكمة العالية»، ووضعت وقتها ثلاثة خطوط تحت عبارة «علوم الحكمة العالية»، فهي ما انتهى إليه الشيخ الكبير، بعد أن قضى وقتًا بين كتب المرويات.

حين جاء الشيخ إلى هنا، كانت «سواكن» تحت حكم البريطانيين باسم خديوي مصر، وكانت تعج بالتجار، حيث أقيمت فيها الوكالات التجارية ومخازن البضائع، وانتعشت فيها الصناعة وازدهر العمران، وكان بها العلماء والقضاة الشرعيون ومشايخ الطرق الصوفية، وأسماها الناس «عروس البحر الأحمر». ومع هذا كانت الأمية متفشية في صفوف عوام الناس، ومعها معتقدات وعادات وطقوس غريبة.

عدت من شرودي في الزمن القديم، وسألت أحد الجالسين في المسجد:

ـ أريد شيخ الميرغنية.

هز رأسه وقال:

ـ سيأتي إلى صلاة العصر.

ولم تمر سوى دقائق، حتى وجدت الرجل يغمزني في كتفي، ويرفع إصبعه نحو رجل فارع الطول ملفوف في جلباب ناصع البياض، يطل من عينيه ألق غريب، وعلى شفتيه ابتسامة. قام أناس كثيرون نحوه، وكانوا يخطفون يده ويقبلونها في امتنان، ثم يعودون إلى أماكنهم، متطلعين إليه.

قال لي الرجل:

ـ هذا هو الشيخ.

تقدمت، وجلست إلى جواره، ويدي ممدودة إلى يده التي كانت غارقة في بقعة من نور الشمس المتدفق من طرف النافذة. قلت له إنني جئت من «القاهرة» ساعيًا خلف الشيخ «أبو العزائم»، فامتلأ وجهه بالدهشة، وقال:

ـ وهل تظن أنه لا يزال هنا؟

ـ آثاره، صوته ورائحته ما زالا باقيين .. وكذلك تلاميذه عن بعد.

هز رأسه وقال:

ـ أنا أتذكر حكايات جدي مع «أبو العزائم».

وطلب مني أن أخبره بأشياء أعرفها عن الشيخ الكبير، فابتسمت داخلي، وقلت لنفسي: «جبتك يا عبد المعين تعينني فلقيتك عاوز تعان». لكنني أدركت فيما بعد أن الرجل أراد أن يستوثق من أنني أسعى فعلًا وراء أبو العزائم» لأؤلف كتابًا عنه أم لمآرب أخرى؟ كنت ماهرًا في مداراتي إلى درجة أنني تمكنت من أن أجعله يصدقني. في الحقيقة، لم أستوثق من أنه قد صدقني بالفعل، فربما عرف بطريقته الخاصة ما أخفيه عنه، لكنه أراد أن يواصل ما بدأته معه، بغض النظر عن نواياي الحقيقية. بدا لي وكأنه يعرف ما يدور في رأسي، رأيت هذا في عينيه، لكن كان عليَّ أن أسيطر على ما ينطق به لساني:

ـ ألملم كل ما تركه الشيخ من حكايات هنا على هذه الأرض؛ كي أؤلف كتابًا عنه لم يسبقني إليه غيره .. أنا لا أقتصر في كتابة التاريخ على ما في الكتب، ولا ما تجود به الوثائق والمخطوطات، إنما أجعل ما يتداوله الناس عن الذين رحلوا مادة طيعة لي، تساعد في كشف ما غمض، وإتمام ما نقص، ونفخ الروح في الحكايات المصمتة.

أغمض عينيه، ورفرفت ابتسامة خفيفة على شفتيه المقددتين، وقال:

ـ مهما يكون ما تريد فلن نبخل عليك بما نعرف.. شيخنا «عبد الرحيم الحيدري السواكني» حكى عنه كثيرًا، وهو من الجدود، وتناقل الآباء الحكايات، فوصلت إلينا، نتذكرها ونرددها أحيانًا، ليس ما جرى منها هنا فقط، بل أيضا ما وقع في «أم درمان» حيث عاش الشيخ «أبو العزائم» فيها، وكذلك في «الخرطوم» و«وادي حلفا» مدة ... أدركنا من الحكايات أن شيخكم الكبير ذاب وسط الناس هنا، صار منهم وصاروا منه، صنع أحبابه وصنعوه، وأخذوا منه بعض ما لديه من علم، وأخذ منهم المودة والوفاء وبعض ما عندهم من علم أيضًا. كان لا يترك فرصة تأتيه في مسجد أو زاوية أو جمع حول مقبرة أو حتى في حفل عرس إلا وتكلم بما عنده، وأصغى الناس إليه. وكان وجهاء القبائل يتسابقون على استضافته، ولم يكن يخذل أحدًا منهم، ورغم أنه قد جاءنا مكتملًا في معرفته إلا أنه عرف معنا الطريق، وهذا ليس بالقليل.

سألته واستغرب سؤالي:

ـ هل كان الشيخ يجالس من يقرأون الطالع، ويسعون إلى معرفة الغيب.

امتقع لونه، واتسعت حدقتاه، وزم شفتيه، وقال:

ـ في حدود علمي، لا أظن أن هذا مما يهتم به المؤرخون.

تنحنحت، وبلعت ريقي، وتماسكت قائلًا:

ـ سمعت في بلدي من يقول هذا، وأريد أن أستوثق من الأمر.

صمت برهة وقال:

ـ عرفنا من الحكايات أن الشيخ «أبو العزائم» لم يكن بحاجة إلى هؤلاء، فهو كان يعرف ما يجعل الناس منه في عجب، لكنه شيء أعمق بكثير من السحر.

وراح يحكي لي حكاية يدلل بها على ما ذكره، فقال: كان الشيخ «أبو العزائم» عائدًا من جامعة الخرطوم، يمتطي حماره، وفي جيبه راتبه الذي تقاضاه قبل نصف ساعة فقط. في الطريق مد إليه رجل يده وقال له: لله. فترجل الشيخ وأعطى الرجل كل ما في جيبه، وقال له: ما دام الله قد أرسلك إليَّ فله كل ما معي. وحين عاد إلى بيته وجد زوجته تنتظر ما حصل عليه لشراء احتياجات الأسرة، وما يلبي طلب زواره وضيوفه، فأخبرها بما جرى، نظرت إليه متعجبة في لوم، وجلست

حزينة، لكنه قال لها: من تصدقت من أجله لن ينسانا. ولم تمض ساعة حتى وجدا عربة كارو تقف بالبيت وعليها أجولة من الأرز والفول والعدس والقمح وصفائح من السمن والزيت والعسل، أرسلها إليه أحد مريديه الموسرين. وراح المكاري ومعه رجل يحملان ما على العربة ويدخلانه إلى البيت. فنظر الشيخ إلى زوجته وقال: أكرمنا الرجل من أجل صاحب الكرم، فأعطانا بلا تعب أكثر مما جدت به.

سمعت الحكاية صامتًا، ولم أعلق عليها، فوجدته يتشجع ويحكي دون أن أطلب منه حكاية ثانية: دخل الشيخ «أبو العزائم» حانة في «وادي حلفا»، وتوجه على الفور إلى منضدة يجلس عليها «كامل أفندي» مدير عام السكة الحديد بالسودان أيامها. كان الرجل يصب من زجاجة خمر أمامه في كأس ويتجرعه، ويملأه من جديد. فلما رأى الشيخ بعد أن زاد في شربه وسكره، نظر إليه وسأله: أتريد كأسًا يا شيخنا؟ وأطلق قهقهات اهتز لها الخمر في كأسه. ابتسم الشيخ ونادى النادل أن يأتيه بطبق به قطعة واحدة متماسكة من الكبدة المحمرة، وفنجانًا من القهوة. فذهب الرجل وراح الشيخ يتحدث لمدير السكة الحديد عن أضرار الخمر الذي يشربه، لاسيما على من يدمنه، لكنه واصل ملء الكاس وإفراغها في جوفه، وهو يسمع ما يقال له ولا يلقي له بالًا، بل بدا ساخرًا منه. وجاء النادل بطبق الكبدة، أخذ الشيخ كأس الخمر، وصبه فوق الطبق، فراحت قطعة الكبد تضمر وتتليف وسطحها الأملس يتشقق ثم تنكمش، ويصير منظرها بائسًا. رفع الشيخ

عينيه من على الطبق وغرسها في عيني «كامل أفندي»، وقال له: «هذا ما يفعله الخمر بكبدك وأنت لا تشعر». وكان الجالسون يتابعون ما يجري، فقال أحدهم: «هكذا يكون الوعظ، فأغلب الناس لا يصدقون إلا بالتجربة».

أعجبتني الحكاية الأخيرة، وانتبهت إليها أكثر من سابقاتها، لكن لم يكن هذا ما أنتظره. وأردت أن أذهب إلى ما أريد من دون تردد هذه المرة، فقلت:

ـ هناك من يقول إن الشيخ كان قادرًا على استخراج الكنوز من باطن الأرض دون حفر.

ابتسم وقال:

ـ كنا نعرف أنه كان من الزاهدين، ولا أظن أنه كان مشغولًا بأي كنوز.

شعرت بخيبة الأمل، يا فخامة الجالس على الكرسي الكبير، فأنا جئت إلى هنا تحملني آمال عريضة في أن أكشف جانبًا من أسرار «أبو العزائم»، ففي السودان عمومًا بانت له كرامات يتذكرها الناس، وبين أهلها من يجيدون السحر، وشيوخ الطرق الصوفية هنا لهم في الحياة العامة دور كبير. كانت تتملكني رغبة أحيانًا في أن أسير في الشوارع مثل الباعة الجائلين، وأنادي الناس عمن يعرف منهم أي شيء عن الرجل الذي أقصده.

لكنني وجدت في السودان ما قد يهم فخامتكم، وأنتم تنظرون بعين الريبة إلى أولئك، الذين يستغلون الدين في الزحف نحو السلطة والثروة، ولا بد من التصدي لهم، قبل أن يرهنوا ترك البلاد مستقرة برحيلكم عن الحكم في يوم ما، لا قدر الله، أو يخدعوا معارضيكم ممن لا ينتمون إلى جماعاتهم، فيقولون للناس ويتحركون وسطهم بما يضر بمصالحكم.

فقد وجدت في سيرة من أسعى خلفه ما قد يفيدكم في هذه الناحية، وقد يشفع لي قصوري، حتى الآن، في أن أقدم شيئًا مهمًّا يتعلق بالخبيئة التي نحاول العثور عليها. لكن أرجو من فخامتكم الصبر على سطوري القادمة، التي أعتقد أنها إن كانت خارج ما كلفتموني به، إلا أنها قد تجيب عن سؤال آخر، أظن أنكم مشغولون بالإجابة عنه. فما قرأته لكم في الصحف من تصريحات، وما يصلني من أخبار بحكم اتصالي ببعض المقربين من دوائركم، البعيدة منها بالطبع، يجعلني أعتقد أن ما سأذكره هنا لا يخلو من إفادة.

ما عرفته وأقوله لفخامتكم، بعد أن جمعته من أفواه الناس وصفحات الكتب وبعض الوثائق التي أتيح لي الإطلاع عليها، أن الشيخ «أبو العزائم» كان رجلًا يميل بطبعه إلى مناكفة أهل الحكم، وقد عاني منه الإنجليز الذين كانوا يحتلون السودان وقتها، ولأن الشيخ الكبير وصل إلى هناك، بعد أن أخمد الإنجليز الثورة المهدية فقد وجد الناس في حنق وغضب شديدين، وما كان بوسعه أن يتجاهل هذا.

وأتذكر وأنا أكتب هذا ما قاله لي خليفة الطريقة الميرغنية في سواكن»:

ـ جاء الشيخ «أبو العزائم» من مصر وفيها الإنجليز، لكنه التفت إليهم هنا أكثر، لأنه كان قد استوى رجلًا وعالمًا كبيرًا. هنا أحس بوجودهم، وشعر أن عليه واجب المقاومة بالكلمة، فقالها في كل مكان دون خوف.

وأتى لي خليفة الطريقة «الميرغنية» في المساء ومعه مدرس لمادة التاريخ في مدرسة ثانوية يعد أطروحة ماجستير عن السودان بعد فشل الثورة المهدية. كان رجلا لبقًا، رأيت نجابته في عينيه، وأذهلتني ذاكرته الحافظة وهو يسرد علي مسامعي بعض الوقائع والأحداث بتفاصيلها الدقيقة، وكأنه قد عاش فيها وكابد منها. لكن ما كان يهمني هو أي حكايات عن «أبو العزائم»، ولم يبخل علي في هذه الناحية، فكلما سألته أجابني بحكاية:

ـ ألم يسع الإنجليز إلى استمالته كما فعلوا مع كثير من شيوخ الطرق الصوفية؟

ـ طلب منه الحاكم الإنجليزي أن يثني على إصلاحاته بالسودان ويهاجم العثمانيين، فرفض، وسأله: هل بوسعك أن تنتقد الإنجليز؟ فأجابه: كيف هذا .. أنا رجل متعلم. فضحك الشيخ وقال له: إذًا كيف تطلب مني أن أكتب ضد وطني وأنا مُعلم؟

ـ هل سكت الإنجليز عليه؟

ـ قرروا نفيه من «السودان» إلى جزيرة «مالطة»، ثم عدلوا القرار ليعيدوه إلى «مصر»، ووقت مغادرته نظر إليه القائد الإنجليزي شامتًا وقال: جاء اليوم الذي تخضع فيه يا «أبو العزائم» لنا، سنرجعك إلى مصر، وهناك لن تجد عملًا، فتتوسل العودة إلى هنا، وقد أعيدك ثم تُقبِّل يدي لتعود إلى عملك من جديد. ضحك «أبو العزائم»، وقال له: سيأتي يوم وتُقبِّل فيه أنت يدي وقدمي؛ لأحميك ممن تجري أمامهم مذعورًا، والموت يرقص في عينيك.

ثم وجدته يا فخامة الجالس على الكرسي الكبير، يحكي لي ما شغلني وقتًا، وفكرت فيه على نحوٍ، غير الذي قصده الذي حكى. نظر إلى سقف الحجرة التي كنا نجلس فيها، وسألني:

ـ هل تصدق ما سأقوله لك؟

هززت رأسي وأجبته:

ـ نعم.

ـ لقد تحققت نبوءة الشيخ.

ـ كيف؟

ـ تم نقل القائد الإنجليزي، الذي شمت في «أبو العزائم»، إلى مصر بعد ستتين من رحيل الشيخ عن «السودان». وحين قامت الثورة في سنة 19 عندكم، كان هذا القائد في زيارة لصديقه الإنجليزي أيضا ناظر المدرسة الخديوية، فخرج من المدرسة مذعورًا، يبحث

عن ملاذ، ولم يجد أمامه سوى شارع «سوق مستكة» الذي كان به سراي الحنفي، حيث يسكن الشيخ. ورآه الناس هاربًا في هذا الاتجاه فتعقبوه، فأراد أن يجري إلى الأمام بعيدًا عنهم، لكنه وجد مظاهرة عارمة، قادمة من الاتجاه الذي يمضي فيه، فتوقف مكانه مرعوبًا، والتفت يمينًا ليجد باب السراي الوسيع العالي مفتوحًا، فظن أنه مدخل حارة جانبية، فأسرع في الدخول، ليجد نفسه فجأة أمام «أبو العزائم». تطلع إليه، وكانت صورته لا تزال محفورة في رأسه، فقال له بعد أن انحنى على عجل ليُقبِّل يده، لكن الشيخ سحبها، وهو يقول: استغفر الله .. استغفر الله. فخر القائد الإنجليزي على ركبتيه، ورمى وجهه، ليُقبِّل قدم «أبو العزائم» فتراجع خطوتين إلى الخلف، بينما الرجل يصرخ: احمني منهم. فأمر الشيخ مريديه بأن يغلقوا الباب، قبل أن يصل إليه المتظاهرون الغاضبون، ففعلوا، وخرج هو عند الباب ليقنعهم بالانصراف، ثم عاد وقال للرجل المذعور: «أنت في مأمن، لا تخشى شيئًا، أنت في ضيافتي إلى أن تهدأ الشوارع، وسأرسل معك من يعيدك إلي المكان الذي أتيت منه».

وقال المدرس السوداني إن القائد الإنجليزي راح يقول للشيخ، بعد أن تذكر ما دار بينهما في السودان: «أنت المسيح .. أنت المسيح».

تابعت قوله بفتور، وكان من الضروري على أستاذ تاريخ مثلي أن يسأل محدثه عن مصدر الحكاية، لكني كنت منشغلًا من جديد بتناسل الحكايات على هذا النحو، وما إذا كان موضوع الكنز الذي نبحث عنه

مجـرد حكايـة أيضًا. وانشـغلت بأمـر آخر وأنـا أقول لنفسـي: «قد يكون الكنـز في البقعـة التي وقف فيها القائد الإنجليزي باكيًا داخل السـراي.. ربما كان تحت قدميه وركبتيه، وهو يجثو متضرعًا للشـيخ». كنت أهذي بالطبع فأين هذه البقعة الآن، بعد أن راح السراي وقامت مكانه البيوت؟

وقد وجدت في بعض الكتب بالفعل ما يبين أن الإنجليز خافوا من انتشار الطريقة العزمية في السودان، وقالوا إنها تجدد خطر المهدية، بل تمتاز عنها، لأنها تنتشر بين علية القوم، من وجهاء المجتمع وأصحاب الـرأي والفكـر. وعرفـت أن أحد المخبريـن الذين يعملون لحسـاب الإنجليز، اندس وسـط من يستمعون إلى الشيخ «أبو العزائم»، وخرج بعـد أيام ليكتـب تقريرًا يقول فيه: «إنهم ليسـوا مريدين فقط بل تلاميذ أيضًا، الشـيخ يحرضهم بطرق ظاهرة ومستترة حسبما يتراءى له، على مقاومـة الاحتلال. إن بيته صـار مقصدًا أيضًا لسياسـيين ولصحفيين، يتحدثون عن إصدار صحف مناهضة للإنجليز في السودان».

قرأت هذا في وثيقة كانت موجودة لدى خليفة الطريقة «الميرغنية» في «سواكن». نقلت منها ما أريده. وبعد أن انتهيت وجدته يقول لي:

ـ كان للشـيخ «أبـو العزائم» طريقـة مختلفة في إلقاء دروسـه. كان يحكي لسامعيه كأنه حكواتي أو أدباتي ماهر، وتجري على لسانه أعقد علـوم التصوف والشـرع كأنها قصـص وروايات. ولهـذا جذب نحوه كثيريـن، كانـوا يجلسـون إليه وعيونهـم معلقة بحركات شـفتيه، التي لا تكف عن الكلام المفيد.

سألته عن تلاميذ الشيخ ومريديه، فقال:

ـ أخلاط من البشر، جاءوا من كل مكان في السودان.

لـم أكن في الحقيقة أقصـد هذا، بل كنت أود أن أعـرف ما إذا كان مـن بينهم أولئك، الذين يعرفون في اسـتخراج الكنوز، لكنني تذكرت في هـذه اللحظة أنه سـبق أن أغضبه سـؤال مثل هذا، فبلعت لسـاني، وعزمـت علـى الذهـاب إلـى «الخرطـوم» و«أم درمان»، لكـن خليفة الطريقة الميرغنية أوقفني، وقال لي:

ـ الأمور هناك تغيرت، وأنجب مريدي الشيخ وتلاميذه بقوا هنا.

ثم أشار حوله وقال:

ـ هنـا مـن يعرفون أكثر، وحتى ما بقي مـن أوراق قديمة، تدل على ما قاله أو فعله الشـيخ موجودة معنا، لا شـيء هناك يسـتحق أن تذهب إليـه، فالزمـن ابتعد والناس نسـوا، والأوراق أكلتهـا الأرضة والفئران والديـدان. ونصحني بدلًا من الذهاب إلى الخرطوم أن أجوب مناطق في شـرق السـودان وجنوبه، وأسـأل بعض مريدي الطرق عما إذا كان أي منهم يحتفظ بكراسـات للشـيخ «أبـو العزائم». وتنبهـت لما قاله، فسألته عن هذه الكراسات، فقال:

ـ كتـب البعض خلفـه على ألواح الإردواز، وهناك من سـجل فيما بعد في قراطيس بأقلام الكوبيا، وأظن أن هناك من نقل بعض ما وجده من كتابات في كراسات جديدة.

وأخذت بنصيحته، لكن بعد عشرة أيام كاملة من التجوال لم أجد سوى أوراق قليلة، أغلبها قصائد شعر، واحدة منها تبدأ ببيت يقول:

«وإذا الجبال تزحزحت عن أرضها
عن حبنا في الله لا تتحول».

لكن خليفة الطريقة «الميرغنية» أفهمني أن القصيدة هي للشيخ عبد الرحيم السواكني، وحكي لي مناسبتها قائلًا:

«حين دخل الشيخ أبو العزائم سواكن راح يسأل تلاميذه عن رجل صالح يسمى عبد الرحيم، فجاءوا بأشخاص كثيرين يحملون هذا الاسم لكنه كان يقول عن كل واحد فيهم: ليس هذا. حتى جاء الرجل الأخير وكان شيخ «الميرغنية»، فقام إليه «أبو العزائم» وهو يقول: إنه هذا، ودخل الميضة خلفه، يناوله ماء الوضوء، والحذاء والعصا التي يتوكأ عليها.

وحين جلس الشيخ «عبد الرحيم» إلى «أبو العزائم» منصتًا استملح حديثه، وفي تلك الليلة صمم على أن يوصله بنفسه إلى منزله، ففعل ثم عاد إلى داره، لكنه شعر أن شيئًا يجذبه للعودة إلى دار «أبو العزائم»، فعاد وجلس إليه يتجاذبان الحديث، ثم عاد مرة أخرى إلى داره، لكن الحنين جرفه مرة أخرى فرجع إلى «أبو العزائم»، وقال له هذه المرة: أنا أبحث عنك منذ سنين، وأنت تخدمني! منذ الليلة وأنا خادمك».

كان يحكي بعينين تلمعان ثم يخفت لمعانهما، فأرى في مقلتيه شخصين يجلسان متقابلين وهما يتناجيان. أحدهما ذو وجه مستدير

يتوسطه أنف دقيق، والآخر وجهه مثلث مقلوبة قاعدته، ويتوسطه أنف عريض.

لكن ما رأيته وأنا يقظان أتاني في المنام هذه الليلة. رأيت الرجلين اللذين لاحا لي في عيني خليفة الطريقة «الميرغنية» جالسين فوق رمال ناعمة على شاطئ البحر، وخلفهما بيوت جدرانها ناصعة البياض. كانا ينظران طويلًا إلى زرقة الماء، وحيث يلتقي الأزرقان هناك على مرمى البصر، تختلط ندف السحاب بشيح الموج، فيشتعل الماء شيبًا. أخذا يبتسمان في هدوء، ويعيدان نظريهما إلى ما تحت أرجلهما، رمل وزلط وحصى وقطع خشب ومحار وأصداف جرفها البحر، وآثار أقدام محفورة، تتابع وكأنها تمتد إلى ما لا نهاية.

يمد كل منهما يده إلى الآخر ويتصافحان بحرارة، ثم يدفعان أيديهما معًا إلى حيث الماء فيغرفان منه ولا يسيل شيء من بين أصابعهما، ويلقيان الماء في الحفر التي تدل على الذين مروا من هنا، ويحفنان رملًا ويلقيانه في الماء، ويخطف كل منهما شيئًا أشبه بملعقة كبيرة من الخشب أو الحجر، لا أدري، ويمزجان ما بداخل الحفر، وكأنهما يطبخان خضارًا نيئًا. ورأيت أبخرة تتصاعد بلا نار، وبعد فترة يقفان ويتعانقان بينما تظهر أمامهما حفراً مملوءة بسائل ذهبي، لا تلبث أن تتماسك وتصير سبائك. سبيكة كبيرة في كل حفرة. يبتسم كل منهما للآخر من جديد، ويسيران معًا، وتظهر الحفر الذهبية تحت أقدامهما، فيدوسان عليها في كل خطوة يتقدمان بها إلى الأمام، وخلفهما تنغلق هذه الحفر، ويستوي الرمل، عائدًا إلى هيئته الأولى.

أريد أن أبدي اعتذاري مرة أخري، يا فخامة الجالس على الكرسي الكبير، إن كنت أقص عليك أحلامي أحيانًا، وأخلط بها ما أكتبه من علي ألسنة الناس أو في بطن الوثائق، فأنا أعرف أنكم تهتمون حتى بالرؤى والمنامات، كما أن الساحر المغربي، الذي أعرف أنه سيطالع تقريري هذا، قد يجد في تأويل أحلامي ما يفيده.

لكن ما ليس من الأحلام، إنما من صلب الواقع الغليظ، هو أنني وجدت في بعض كتب التاريخ هنا، وما لا يزال عالقًا بذاكرة البعض كذلك، هو أن الشيخ «أبو العزائم» لم يكن رجلًا مريحًا للمحتلين، فلم يستطيعوا عليه صبرًا، فأبعدوه عن «السودان»، لتصبح «أسوان» محطته التالية، ومحطتي أنا أيضًا بعد انقضاء كل هذا الزمن.

ودعني خليفة الطريقة «الميرغنية» وداعًا حارًّا، وقال لي ويده في يدي:

ـ ستجد في أسوان أحباب شيخنا السيد «محمد سر الختم الميرغني»، فاذهب إليهم وردد في حضرتهم قصيدة الكبرياء، ثم أنشد بيتًا يقول:

«وليس للعبد فى هذا الكون خردلة

من يدعي فيه شيئا فليقم كلمة»

لكنني كنت معنيًا بأتباع «أبو العزائم»، فقصدتهم، وأنا كاسف البال. فحتى الآن لم أضع يدي على شيء أراه مفيدًا كثيرًا فيما أجرى خلفه،

وعزائي أن يجد الساحر في تقريري هذا ما لا أراه أنا ولا أُقدِّر أهميته، معلومة أو إشارة أو صورة أو حتى بيت شعر، فلأمثاله ما ليس لأمثالي. وفي كل الأحوال فأنا كنت أقاوم غريزة المؤرخ التي تجذبه نحو أمور تأكلف معها، وألبس رداء المخبر السري، وربما هناك تفاصيل، سقطت أو اعتقدت أنها ليست مهمة على هذا النحو، لكني مستعد للمثول أمام أية جهة لتسألني عما تريد، وقد تجد في إجاباتي أشياء أخرى، تعيننا في الوصول إلى الكنز، وساعتها سأكون أول السعداء.

8

بدت لي «أسوان» مجرد محطة عابرة لدى «أبو العزائم» قطع بها، ولشهور قلائل، السنوات الطويلة التي قضاها في «السودان» لكن ما عرفته من أحد مريديه في «دراو» جعلني أكاد أرقص فرحًا، لأنني، وربما لأول مرة بهذا الوضوح، أضع يدي على شيء يمكن أن تكون له هذه الصلة القوية بما نسعى خلفه.

حكي لي أن الشيخ حين نزل إلى «أسوان» وجد الناس منجذبين بقوة إلى ساحر ومشعوذ بارع، يقصدونه في كل شيء، المرضى منهم والراغبون في إيذاء أعدائهم وغرمائهم، والفتية والفتيات اللاتي يسعين إلى جلب أحبتهم، الذين هجروهم أو لم يعتنوا بهن أو يلتفتوا إليهن، والذين يعانون من عجز جنسي، والنسوة العاقرات الراغبات في الخلفة، والأهم عندي من كل هؤلاء، هم من يبحثون عن الكنوز في قلب الجبال. والغريب أن الناس كانوا يخلعون عليه لقب «شيخ» ويقصدونه أحيانًا في فتاوى دينية حول الزواج والطلاق والميراث بل ونواقض الوضوء والصلاة، ويطلبون منه أن يحكي لهم سير الأولين. وكان يغمض عينيه ويقول ما يأتي على ذهنه، فيثير إعجابهم، ويزداد ارتباطهم به.

وما إن نزل «أبو العزائم» وراح يعظ الناس في المساجد حتى أثار غيرة هذا الساحر فقرر أن يؤدبه، فأرسل إليه رجلًا من أتباعه، ومعه عصا طويلة قرأ عليها تعويذة، وقال له:

ـ سترفعها في وجهه وأنت على بعد ست خطوات من «أبو العزائم»، فتنفلت من يدك، وتذهب إليه وتضربه في كل مكان، فيفزع ويجري، وسيضحك الناس منه، ووقتها سيفر من هنا، ويعود الناس إليَّ.

ونفذ الرجل ما أمره به الساحر، وجاء إلى «أبو العزائم» وهو جالس تحت عمود بالمسجد يتحدث في المتحلقين حوله، وبينما هو غارق في الكلام، وقف الرجل على بعد أمتار منه، وصرخ في وجهه:

ـ كفاك كذبًا أيها الجاهل.

رفع وجهه وقال في هدوء:

ـ الجاهل من أرسلك، وسأعلمك وأعلمه الأدب.

قهقه الرجل وقال:

ـ هذه عصاه وستذهب إليك لتضربك.

ثم نظر في وجوه الحاضرين وقال بصوت رج المكان:

ـ اشهدوا على ما سيجري لهذا الغريب، الذي جاء إلى هنا في غفلة من الزمن، يحشي رؤوسكم بكلام فارغ، وأنتم تعتقدون أن لديه ما ينفعكم.

وتابع «أبو العزائم» ما يجري حوله بهدوء أشد، دون أن تفارق الابتسامة شفتيه، وكانت عيناه ذاهبتين نحو عيني الرجل. فجأة اتسعتا حتى شعر الجالسون أنها ستخفي وجهه خلف بياض وسواد عريضين. وتحركت شفتاه في الوقت نفسه، يتمتم بما لا يسمعونه. وعندها أخذت العصا تنخلع من يد الرجل، وتتقدم في الهواء على مهل، كأن يدًا تحملها وترعاها، حتى وصلت إلى حيث يجلس «أبو العزائم» فهبطت، واستقرت إلى جانبه. عندها مد «أبو العزائم» يده ووضعها عليها، وقال للرجل:

ـ قل لمن أرسلك لا يوجد على هذه الأرض من يسحر «أبو العزائم»، أنت أتيت لتسحره فسحرك.

توقفت يا فخامة الجالس على الكرسي الكبير عند هذه الحكاية طويلًا، لاسيما ما انتهت إليه، فها أنا أسمع للمرة الأولى، بهذا الوضوح، شيئًا عن سحر عند الرجل الذي نسعى خلفه.

سألت من قص الحكاية على مسامعي:

ـ هل أنت متأكد منها؟

حك ذقنه بسبابته وأجابني:

ـ هي حكاية نعرفها جميعًا هنا، طبعًا ليس من بيننا من شهدها بنفسه، لكن آباءنا نقلوها عن أجدادنا، ووصلتنا.

وقبل أن أنطق وجدته يقول:

ـ كانت للشيخ أحوال عجيبة هنا، وليست هذه فقط.

هززت رأسي وسألته:

ـ هل كان له في السحر؟

صمت برهة، وردَّ على سؤالي بسؤال:

ـ أي سحر تقصد؟

ـ ما يفعله السحرة، ومن يسخرون الجان.

قهقه، وقال:

ـ يعيب من هم مثلك أنهم لا يؤمنون بكرامات الأولياء، رغم أنهم يعتقدون في السحر، كما يظهر ذلك من كلامك.

قلت له إنني أؤلف كتابًا عن الرجل، وأريد أن أقابل أحد العجائز من مريدي الطريقة. وكما وقع لي في المرات السابقة، قادني إلى رجل طاعن في السن، كان يقف أمام داره، ويضع يده أمام عينيه ليرانا ونحن قادمين إليه، وشمس الأصيل تنكسر على تجاعيد وجهه الأسمر الممصوص، وعلى عصاه التي يسند كل جسده عليها، وكذلك الجدار الكالح الواقف خلفه، ومرسومة على جانبه صورة باخرة، ومكتوب فوقها: «حج ولبى وزار قبر النبي المختار»، وكلمات أخرى أكل الزمن حروفها.

سلم من معي عليه، وقال لي:

ـ الحاج «محمد الطيب» يحفظ أشياء كثيرة من كلام «أبو العزائم».

وجدتها فرصة كي أسمع منه، وحرصت على أن أترك له باب الكلام مفتوحًا على مصراعيه، يتحدث بما شاء، فربما تتساقط من فمه حروف، كنت أقصدها دون أن يدري. شيء أشبه بالعصف الذهني، الذي نمارسه مع بعض طلابنا في حصص تدريبية، حين نطرح سؤالًا ونترك الألسن تنطق بأية إجابات ترد عليها، ونسجلها كما هي كي نحللها فيما بعد.

قلت للرجل إنني سأسجل ما يقول حتى أشعره بأهمية كلامه، ورأيت ابتسامة خفيفة ترفرف على شفتيه المقددتين، وكذلك اهتزت رموشه الناحلة، وفتح فمه لتظهر أسنانه المثرمة، ثم قال بصوت مفعم بالشجن:

ـ أنا قرأت بعض كتبه وأشعاره، وسمعت عنه، وشغلت نفسي بما قرأت وسمعت سنوات وسنوات .. هذا الرجل بحر ليس له قرار.

ووجدته يغمض عينيه، وكأنه يستعد لتسميع درس حفظه أمام معلمه، ويقول بأنفاس متقطعة:

«علمنا الإمام أبو العزائم أن للإنسان خمسة أوطان، الله بميثاقه مع الإنسان، وبطن الأم، والدنيا، والبرزخ، والدار الآخرة. وعلمنا أن الله أنعم على الإنسان بنعمتين أصيلتين: الإيجاد والإمداد، حيث خلقه ورعاه، وسخر له الكائنات جميعًا والجمادات. وعلمنا أن المجاهدات

ثلاث: مجاهدة الحس والنفس والعقل والجسم في التسليم للرسول للتشبه به، ومراقبة السالك نفسه على نيل الكمالات، التي لا تلائمها من مراقبة الله في كل أحوالها؛ حتى يستحيي أن يعصي الله في خلوة، والرضا عن الله بالقليل من الضروريات. وعلمنا أن علوم الرسالة خمسة: علم الآيات، وعلم تزكية النفوس، وعلم الكتاب، وعلم الحكمة، والعلم اللدني. وعلمنا أن للتزكية مراتب ثلاث: مراقب ليومه، ومراقب لساعته، ومراقب لنفسه. وعلمنا أن المحبة هي الأساس، ولا ينالها الفرد إلا بعد العلم بثلاثة أصول: العلم بصفات المحبوب، والعلم بأخلاقه، والعلم بما يحبه».

لم يكن لدي استعداد لسماع المزيد منه، فمؤرخ مثلي لا تعنيه تلك الفلسفة. وحتى لو كان له أن ينشغل بها كل هذا الانشغال، فليس هذا وقته، فمهمتي محددة، وأنا أعرفها جيدًا، لذا أوقفته بسؤالي:

ـ هل تعرف أحدًا رأي الشيخ «أبو العزائم" هنا؟

هز رأسه بالإيجاب، وقال:

ـ عمي كان من مريديه، وهو الذي رباني بعد وفاة والدي .. كلمني عنه، وترك لي بعض كتبه.

رميت كذبة لعلي أصل إلى شيء، فقلت له:

ـ سمعت عن عمك، فقد كان معروفًا باهتمامه بالبحث عن الآثار في صحراء «أسوان».

يا لها من كذبة، فقد فتحت لي بابًا لم يكن في الحسبان، إذ وجدت الرجل يقول لي:

ـ الحقيقة أنه كان منشغلًا بهذا .. لم يكن هو من يفتش عن الآثار، إنما صاحب له يدعى «أبو الفضل».

انفتح أمامي باب لسؤال رأيته مهمًا في هذه اللحظة:

ـ أكان «أبو الفضل» هذا يعرف الشيخ «أبو العزائم"؟

صمت برهة وأجاب:

ـ بعض حكايات عمي لي تبين أنه كان يعرفه.

ـ وهل استعان بالشيخ في بحثه عن الكنوز؟

عاد إلى الصمت، وتاه قليلًا ثم عاد:

ـ لا أعرف .. لكن عمي قال لي إن المشعوذ الذي كان على عداء مع «أبو العزائم" هو الذي ساعد الرجل في السعي وراء المغارات البعيدة .. كانا يغيبان في الصحراء أسابيع ويعودان، ومعهما رجال من الأدلاء والحفارين، ومعهم زاد وبنادق ورصاص كثير.

ـ هل كانا يعودان بذهب وتماثيل؟

ـ لا أعرف، لم أكن أرى شيئًا، لكن الناس كانوا يقولون إنهم وقعوا على خبيئة، بعد أن حفروا ثلاثة أيام بلياليها.

ـ أي ناس؟

ـ ناس البلد.

ـ هل تعرف أحدًا منهم؟

ـ كلهم ماتوا.

أشعل الرجل في رأسي الظنون بدلًا من أن يمنحني أي خيط للوصول إلى ما أسعى وراءه، وإن كنت قد قمت من عنده وأنا معجب به، فكيف لرجل مثله أن يحفظ هذه الأقوال العميقة، ويرددها أمامي بهذه السهولة، وكأنه يشرب ماء عذبًا. وسألت نفسي إن كان يعرف معنى ما قاله، وأجبتها أن الزمن الطويل الذي قضاه على قيد الحياة يكفيه؛ ليفكر على مهل في كل حرف يحفظه، وربما وجد من يشرح له كل هذه المعاني. أما أنا فلم أجد حتى الآن من يدلني بطريقة قاطعة على أية إشارة أو أمارة جلية كشمس ظهيرة صيف عن هذا الكنز الذي قالوا لي إنه مخبوء تحت أرض بيوت آل العزائم وحولها.

أقول هذا يا فخامة الجالس على الكرسي الكبير، رغم أنه قد يضر بموقفي، لكن ليس بوسعي أن أكذب عليكم وأنسب إلى الرجل أقوالًا، أثبت من خلالها زورًا وبهتانًا أنني وجدت السبيل إلى الكنز. وما بوسعي أن أقوله هنا باطمئنان إن الرجل كان يتحدث عن «أبو العزائم» بامتنان شديد، رغم أنه لم يره، لكن يبدو أن ما سمعه من عمه، كان كافيًا كي يبقى الشيخ الكبير في ذاكرته كل هذا الوقت. وقد تكرر هذا الأمر عند أناس كثيرين قابلتهم في «أسوان» وما حولها،

وعرفت أن الخيط امتد بين «أبو العزائم» وأتباع الطريقة «الميرغنية» حتى وصل إلى هنا.

كان عليَّ بعدها أن أعود إلى «القاهرة»، المحطة الأخيرة التي انتهت إليها رحلة الشيخ الكبير. وكنت قطعًا على علم بأن سراي الحنفي لم يعد موجودًا إلا في الخطط القديمة للمدينة، وما كتبه خلفاء «أبو العزائم» عنه. لم تعطني الخطط معلومات كثيرة، مثل تلك التي وجدتها في الكتب، وكان عليَّ أن أقرأها بوعي، لأُنقِّيها من أية شوائب، علقت بها بسبب عطب الذاكرة، أو الميل إلى المبالغة، أو تلك الرغبة الدفينة عند بعض البشر في صناعة الخوارق والأساطير.

كعادة أي مخبر سري، كنت أفتش في السطور عن معلومات غريبة أو عجيبة، بوسعها أن تقربني مما أصبو إليه. مررت عيني على كلمات ألفتها، إلى أن قرأت اسم امرأة تدعى «الدمياطية» وأولادها، كانت تسكن جناحًا من سراي الحنفي حين استأجره «أبو العزائم» كله، وأنها قد رفضت الخروج من سكنها، بأي حال من الأحوال، واستعطفت الشيخ أن يبقيها فأبقاها رأفة بأولادها، ليكتشف فيما بعد أنها تتاجر في المخدرات، وتستعمل البيت في الدعارة. ولما بدأ مريدو الطريقة يهلون على السراي، ولا تنقطع أرجلهم عنه، شعرت أن الخناق يضيق عليها، فلم يعد بوسع فتيات الهوى أو مدمني المخدرات أن يدخلوا كما كان في السابق. ولهذا رسمت المرأة خطة لطرد الشيخ الكبير من

البيت، فكانت تفتعل معه المشكلات، وتلقي في طريقه القاذورات، وتقيم حفلات صاخبة، تشوش بها على حلقات الذكر.

عاملها الشيخ الكبير بلين، وصبر عليها، دون أن يتزحزح قيد أنملة عن موقفه منها، فلم تجد في النهاية بدًا من الرحيل، بعد أن أعطاها تعويضًا مناسبًا عن الحجرات التي كانت تقطنها.

حين عرفت هذه القصة سألت نفسي عما إذا كانت «الدمياطية» هذه قد رأت حفرة الذهب وهي تطل من نافذة حجرتها، وربما هذا الذي جعلها حريصة على التشبث بالبيت، والإساءة إلى الشيخ؛ كي تجبره على الرحيل منه.

كان سؤالًا أكبر بكثير من قدرتي على إجابته، ولم تسعفني الكتب التي ألفها العزميون عن شيخهم الكبير في تحصيلها. قلبت صفحات كثيرة، ولكن لم يذكر أحد شيئًا عنها إلا ما عرفت. ولو كنت قد عرفت أن لها ابنًا لسعيت خلف هذا، فربما وصلت إلى حفيدها، وسألته كما فعلت مع الآخرين. وأدركت في نهاية المطاف أن هذا أكبر من طاقتي. لكنني أقترح هنا العودة إلى دفاتر الوقف القديمة، فربما فيها ما يفيد.

لكن انتابني شعور قوي، بعد تفكير عميق في حكاية هذه المرأة سليطة اللسان، أن مثلها لو كانت قد رأت الذهب فلن تغادر البيت أبدًا، ولن يكفيها أي تعويض يقدمه لها الشيخ الكبير، وكان من الممكن أن تبلغ الحكومة عن مكان الكنز، نكاية في الشيخ ومريديه،

وكانت الدولة ستضع يدها عليه؛ خاصة أن البيت وقتها كان لا يزال ملكًا للأوقاف، وما كان لي أن أجيء بعد كل هذه السنين الطويلة؛ لأكلف بمهمة البحث عن أي شيء يدلنا على كنز «أبو العزائم».

انتهى التقرير

9

راجع الدكتور «خيري محفوظ» تقريره المطول، وأدخل فيه ما كان قد نسيه أو أهمله من تفاصيل، واكتشف وهو يقرأ مسودته الأخيرة أنه قد توصل إلى طريقة أكثر تطورًا في التأريخ، يعمق بها المجري الذي كان قد شقه لكتاباته، والذي يختلف كثيرًا عما تآلف معه الآخرون. وعقد العزم على أن يتبعها في كتاباته المقبلة. دفع بالمسودة إلى مكتب طباعة، وقال لصاحبه:

ـ هذه رواية قصيرة، سأتقدم بها إلى مسابقة مهمة، وعلى من يكتبها أن يعتني بها .. لا أريد خطأ واحدًا.

لكن ناظر وقف البلد حين علم منه أن تقريره لدى مكتب طباعة وبخه شديدًا، وقال له:

ـ لدينا طباعون كثر هنا، وكان عليك أن تأتي بالتقرير إليَّ، وهو بخط يدك.

وسأله في غضب اهتز له الهاتف:

ـ هل تضمن صاحب هذا المكتب؟

فأجابه ويده ترتعش:

ـ نعم، أنا زبونه، نسخت عنده دراسات وكتبًا.

لم يكن ناظر الوقف يعلم وقتها ما في التقرير، ووجد «خيري محفوظ» أن اللياقة تقتضي أن يكتب له خطابًا يرفقه بما خطه على الورق عن مسار «أبو العزائم»، لكنه سأل نفسه: هل أوجه خطابي، وأسلم التقرير، إلى الناظر أم إلى الجالس على الكرسي الكبير؟ احتار برهة، وأشرك زوجته في الأمر، فطالما وجد عندها حلولًا لم تخطر له على بال. أنصتت إليه، وقالت:

ـ قلبي انقبض منذ أن فاتحتني قبل شهرين في أمر هذا التقرير، ويبدو أن سؤالك هذا هو بداية أن يكون لانقباضي معنى يتحقق، لا قدَّر الله.

نظر إليها مستغربًا حديثها هذه المرة، وقال:

ـ لا أرى سببًا للانقباض من الأساس.

كعادتها وضعت عينيها في عينيه؛ لتكشف بعض ما يدور في نفسه، وقالت:

ـ إن كتبت مباشرة إلى ناظر الوقف وتجاهلت الجالس على الكرسي الكبير، فقد تُغضِب الأخير، وإن كتبت للأخير فقد يغضب الأول، وإن تجاهلت الاثنين فقد يغضبان معًا، وإن كتبت لهما معًا فإن ناظر الوقف قد يكون لا يريد أن يتقدم أحد غيره نحو القصر خطوات في هذا الموضوع، وقد يغضب الجالس على الكرسي الكبير؛ لأنك ساويت بينه وبين الناظر، حين خصصت لكل منهما خطابًا.

فكر في كلامها فوجده جديرًا بأن يسمعه رجل محاذر مثله، يعرف مما تتساقط على رأسه من معلومات خاصة أن الجالس على الكرسي الكبير تشغله هذه التفاصيل والصغائر. وقبل أن يسألها عما ينبغي عليه فعله، وجدها تقول له:

ـ إن من كلفك هو ناظر وقف البلد، وعليك ألا تتخطاه، ولتكتب إليه هو، وغالبًا سيرفع خطابك المرفق بالتقرير، وبالتالي يتحقق لك ما تريد دون مخاطرة.

رد عليها:

ـ لكن التقرير موجه إلى الجالس على الكرسي الكبير، هكذا يتضح منذ سطوره الأولى.

ـ لا بأس في هذا، لكن الخطاب يجب أن يوجه إلى ناظر الوقف؛ لأنه من كلفك مباشرة بالمهمة.

وجلس إلى مكتبه، ليكتب الخطاب:

«معالي ناظر وقف البلد،

تحية طيبة ....

أود أن أخبركم بأنني قد انتهيت من كتابة التقرير المطول الذي كلفتموني به، بعد أن مضيت خلف سيرة «أبو العزائم» في كل مكان حل فيه، وقابلت ناسًا كثيرين ممن وصلت إليهم أخباره عبر أهلهم، أو من سبقوهم في الطريقة العزمية.

وبالطبع فإن ما دونته هنا ليس مُرضيًا لي بشكل تام؛ ليس لأنني قصرت في جمع المعلومات وتدقيقها وتدوينها، وإنما لإحساس ينتابني بأن ما لقيته وسجلته قد لا يكون على القدر الذي تطمحون إليه، أو ينتظره مني فخامة الجالس على الكرسي الكبير. لكن عزائي أن بوسع فخامته أن يجد ما لم أجده في سطوري هذه، فله من عمق الرؤية ما يُمكّنه من أن يرى ما لا أراه، وخلفه من المستشارين ما قد يضعون أيديهم على ما لم يكن بوسعي إدراكه. كما أن الساحر المغربي، الذي أخبرتموني أنه سيقرأ هذا التقرير جيدًا، سيصل، بما أتيح له من معرفة لا أملكها، إلى ما لم أصل إليه، وسيلفت انتباهه بالقطع ما أعتقد أنا أنه شيء عابر، أو غير أصيل.

إن هذا التقرير يا معالي ناظر وقف البلد هو أقصى ما بوسعي أن أصل إليه، بعد سعي وبحث وتدقيق، ومع هذا قد تكون هناك تفاصيل صغيرة سقطت مني سهوًا، أو اعتقدت أنها لا تستحق أن أحشو بها سطوري؛ حتى لا أطيل على فخامة الجالس على الكرسي الكبير وعليكم، وعلى وقتكما الثمين، كما أعرف وأقدر.

وإنني على أهبة الاستعداد، في أي وقت، لأجيب عن أي أسئلة أو استفسارات حول ما كتبت.

وتفضلوا بقبول فائق التقدير

المخلص

خيري محفوظ

أغلق المظروف على التقرير والخطاب، وركب سيارته ليذهب إلى مقر نظارة الوقف.. في الطريق طرأ على ذهنه شيء فأمر سائقه:

- اذهب إلى مقر الطريقة «العزمية».

وكان لا يزال أمامه وقت حتى يحل الموعد، الذي ضربه له ناظر وقف البلد، حين هاتفه الليلة الفائتة. كان في هذه اللحظة يتملكه شعور بأن زيارة إلى ضريح «أبو العزائم» ستكون مفيدة. أراد أن يلقي نظرة أخيرة على الرجل، الذي سعى خلفه كل هذه المدة، وانشغل به في كل حرف كتبه خلالها. أراد أن يقف أمامه، وينظر مرة أخرى، بإمعان شديد، إلى قبره الملفوف في رداء أخضر، يهطل عليه النور من كل جانب.

كان شارع «مجلس الأمة» يغص بالعابرين والسيارات، التي تقابل في الاتجاهين، وتتلوى بين الأجساد المتدفقة بلا هوادة. وظهرت أمامه عربات الكارو، التي تحمل خضروات وفواكه حيث السوق التي يقصدها أهالي أحياء «لاظوغلي» و«الناصرية» و«ضريح سعد» ، فأوقفت تقدم السيارات الملاكي والأجرة وقتًا، كان كافيًا ليصاب بضجر شديد، وهو ينظر إلى ساعته، ثم يمد بصره إلى الشارع المسدود.

عبثًا حاول سائقه أن يفتح الطريق بصرخات متوالية من مزمار السيارة، إلى أن قرر سائق عربة نصف نقل أن يزحزها مترًا واحدًا إلى الأمام واليسار، فينفتح مسرب ضيق لا يكفي إلا لعبور سيارة واحدة. لم يكن أمامه من سبيل سوى أن يكمل طريقه إلى الأمام، فلا مجال للرجوع؛ حيث تتابعت السيارات خلفه حتى ميدان «لاظوغلي».

تأخر ولم يعد لديه وقت طويل يمكثه في مسجد «أبو العزائم"؛ لذا توجه فور أن خلع حذاءه إلى الضريح ووقف أمامه متطلعًا نحو النور الأخضر والسكينة.

كعادة من يقف أمام ضريح قرأ الفاتحة في تبتل عميق، وأخذ من على طرف لسانه ومسح براحتيه على وجهه، وهو يتمتم بما لا يسمعه غيره. كان يشعر في هذه اللحظة بامتنان شديد نحو الرجل الراقد بسلام؛ لأنه فتح أمامه الباب كي ينال ما يتمناه، فالنظارة أو رئاسة الجامعة ليستا بالأمر الهيِّن بالنسبة له، وكان طيلة حياته يعتقد أنها النهاية السعيدة لأي موظف، حتى لو كان أستاذًا جامعيًا، رغم أنه قد مرت عليه في كتب التاريخ أسماء أمراء ونظار وكبار موظفين، لم يبق الزمن لهم شيئًا يستحق الذكر، بينما أبقى في ذاكرته الهائلة بعض أسماء من كتبوا وعلموا. كان يعتقد أن بوسعه أن يجمع بين الاثنين: العلم والمنصب، وأن يستخدم الأخير في خدمة الأول، فيبقى اسمه كمؤرخ غير عادي.

أنهى زيارته بنظرة شاملة على ساحة المسجد الضيقة، والتقط حذاءه من رف حامل الأحذية وخرج في هدوء، ليجد سائقه في انتظاره. أخبره أن الزحام اضطره لركن السيارة في شارع «بورسعيد». هز رأسه وطلب منه أن يسرع ليحضرها من هناك؛ مفضلًا أن يبقى أمام المسجد على أن يسير معه إليها، كما كان يفعل دومًا.

شعر بنقرات خفيفة على كتفه فالتفت ليرى رجلًا طاعنًا في السن، يتوكأ على عصاه. ألقى نظرة شاملة على هيئته الغريبة، وسأله:

- يلزم خدمة.

رد عليه بما لم يتوقعه:

- أنا في غنى عن العالمين.

أعاد الدكتور «خيري محفوظ» النظر مليًا إلى من يحدثه، وقال له:

- ربنا يغني الجميع.

ظنه سائلًا مثل هؤلاء الذين يدورون حول الأضرحة والمساجد. وكان قد وضع يده في جيبه؛ كي يخرج له صدقة، فأخرج يده، وتركها مردودة إلى جانبه، وسأله:

- هل أنت قادم للصلاة؟

ابتسم، وأجابه:

- وصلناه فوصلنا، ورأينا وجهه ولا نكتفي.

زادت حيرته، فليس هذا بحديث سائل ولا درويش، لكنه أرسل ناظريه إلى امتداد الشارع، لعله يرى سيارته قادمة. مشى خطوات وئيدة مبتعدًا عن الرجل، الذي مشى خلفه، وتقدم حتى حاذاه، وقال له:

- التفت إليَّ لتسمعني جيدًا، وتراني.

التفت صامتًا في تثاقل، فوجده يقول:

- طفت كثيرًا وراء شيخنا الكبير، لكنك لم تعرف عنه سوى أقل القليل.

اتسعت حدقتاه عجبًا، وارتفع وجيب قلبه، وساورته ظنون، هبط على نفسه كريح عاتية. ولم يكن أمامه سوى أن يسأله:

- من أنت يا عم؟

- ناصح أمين.

نفخ في ضجر، وسأله باستهانة:

- خيري وبم تنصحني؟

- اترك ما كتبت، فليس فيه ما ينفعهم أو ينفعك، واتبع النداء الخافت الذي يأتيك وتتجاهله.

اكتسى وجهه بغضب، ونهره:

- ابتعد عني.

ابتسم الرجل وقال:

- لا تتعجل رحيلي، فأنا لست هنا حتى أذهب، ولولا أنني أعرف نهايتك ما أتيت إليك.

- وما نهايتي؟

- ستعرف الطريق التي حرصت على ألا تضع قدميك على أولها، فتأتي إلينا، وتكون منّا.

- ومن أنتم؟

- إخوانك الذين لم تهتد إليهم بعد.

- إخواني؟!

- أتباع الذي سرت خلفه في البلاد ولم تصل.

أدرك الدكتور «خيري محفوظ» أن الرجل مريد للشيخ، ربما يكون قد قابله في أي من البلاد، التي حل فيها وهو يلتقط بعض ما تبقى من سيرته، أو بالأحرى يسعى لاكتشاف كنزه الثمين.

ابتسم وسأله:

- في أي بلد تقابلنا؟

رد إليه الابتسامة، وأجابه بوجه مشرق:

- كنت معك ولست معك، أسمعك ولا تسمعني، وأراك ولا تراني.

اختفت الابتسامة من شفتيّ «خيري محفوظ» حين زمهما وانقبضت ملامحه، وقال له في غيظ:

- كف عن ألغازك.

قهقه الرجل وقال:

- كلامي واضح، ولكن لا يزال على الصدور أقفالها.

زاد غيظه، إلا أنه تمالك نفسه، وقال له:

- تذكرت أين رأيتك.

هز رأسه، دون أن تفارق الابتسامة شفتيه، وسأله:

- أين؟

- في «الإبراهيمية».

- خانك التقدير والتعبير.

- في «محلة أبو علي».

- لم أذهب إليها أبدًا.

- لا يمكن أن يكون في «السودان».

- لا تتعب نفسك، أنت لم تر مني شيئًا، لكن رأيتني الآن، وحين تسير في الطريق التي سبقتك إليها ستراني، وتعرف من أنا.

لاحت السيارة على أول الشارع، فتقدم نحوها غارقًا في الظنون والحيرة والأسى، وترك الرجل خلفه، لكنه سمع ما جعله يتوقف فجأة، ويستدير إلى الخلف:

- الكنز الذي تبحث عنه مررت به ولم تدركه.

عاد إليه بخطى سريعة، ولكنه لم يجده.

أين غاب؟

هل ابتلعه الرصيف؟

هل اخترق الجدار؟

هل تبخر كقطر مطر في صيف قائظ؟

تزاحمت الأسئلة في رأس الدكتور «خيري محفوظ». وفرك عينيه ومدَّ بصره.. لكنه لم ير سوى سيارته، التي وقفت إلى جانبه، ونزل

منها السائق كي يفتح له الباب الخلفي. ركب ومضت. لكن صورة الرجل الغريب لم تغب عن ذهنه. لم يكن حلم يقظة، ولا هلاوس بصرية. كان يراه ويحدثه، وهو يتطلع إلى هيئته الغريبة، وملامحه التي يسكنها زمن بعيد، وملابسه التي لا تنتمي لهذا الزمان.

وضع يده على ذقنه، وزم شفتيه، وتاه ببصره في الفراغ، وهو يحاول أن يستحضر صورة «أبو العزائم» التي شاهدها في الكتب، وصورة الرجل الذي حدثه. أغمض عينيه وفتحهما مرات ليجمع الصورتين ويطابقهما، وانتهى إلى أن الرجل الذي قابله وحدثه واختفى، قبل قليل، ليس الشيخ الكبير بأي حال من الأحوال.

من يكون إذًا؟

سأل نفسه لكن بصوت مرتفع، جعل السائق يلتفت إليه، معتقدًا أنه يطلب منه شيئًا، ولكنه وجده قد أناخ رأسه على المقعد، وكانت عيناه مغلقتين تمامًا.

لم تفارقه صورة الرجل حتى وهو يمشي بخطوات نشطة في الصالة الطويلة المؤدية إلى مكتب ناظر وقف البلد. وحتى حين جلس أمامه، بدا شاردًا، إلى درجة أنه قال له ساخرًا:

- يبدو أنك انجذبت يا دكتور.

عاد من شروده، وابتسامة فاترة على شفتيه، وقال:

- لا أبدًا، أنا مرهق.

هز رأسه وقال:

ـ أعرف أنك تعبت في هذه المهمة، لكن لا ينال الشخص ما ما يريد إلا بالتعب، وحين تجد نفسك في منصب حكومي كبير، أو جالسًا على كرسي رئيس الجامعة، ستنسى كل هذا التعب.

تابع ما يسمعه بحياد شديد، وفي نفسه يقول: «لو كان نيل المناصب بالتعب، فهناك من تعب أكثر منك، بل هناك من أعطى هذا البلد، أكثر ممن جلس على الكرسي الكبير في غفلة من الزمن».

وعاد من شروده حين لسعه سؤال مفاجئ من ناظر الوقف:

ـ بعيدًا عن موضوع التقرير .. هل وجدت في العزميين خطرًا على البلاد؟

ـ أي خطر؟

ـ رئيس جهاز أمن السلطة حدثني عن ارتباطات مشبوهة لشيخ الطريقة، ويخشى أن يكون بعض مريديه قد تورطوا معه.

مصمص شفتيه وأجاب:

ـ في اعتقادي أن هذه مجرد هواجس وشكوك، لا محل لها من الإعراب، رجال الأمن يبالغون دائمًا، ويخلطون الأمور على نحو غريب، وللأسف أصبحوا لا يدققون معلوماتهم جيدًا.

فوجئ ناظر وقف البلد برأي الدكتور «خيري محفوظ» في جهاز أمن السلطة، فلاذ بالصمت برهة، ثم نظر إليه وقال:

ـ أنصحك إن أردت أن تنال المنصب، الذي تسعى إليه، بألا تقدح في جهاز الأمن، فبيده كل شيء في هذا البلد.

عندها أدرك «خيري» أنه قد تلفظ بما كان عليه أن يتجنبه، فأراد التخفيف من وطأة الكلام:

ـ أتحدث عن بعضهم، خاصة من صغار الضباط، والمستجدين على الجهاز .. وعمومًا هم تقع في أيديهم معلومات لا تأتي لمثلي أبدًا.

ضيق ناظر وقف البلد عينيه، وأرسل من تحت عمامته نظرة فاحصة إلى «خيري محفوظ»، وقال له:

ـ أتعرف أن التقرير الذي كتبته، سيمر أمامهم قبل أن يرفع إلى فخامة الجالس على الكرسي الكبير؟

أبدى انزعاجه الشديد مما سمع، ولكنه تمالك نفسه، وخرجت حروف من بين أسنانه:

ـ وما علاقتهم بهذا؟

قهقه ناظر الوقف:

ـ يبدو أنك لا تعيش في هذا البلد .. فحتى شيخ الطريقة العزمية يعرف أن كل شيء يجب أن يمر عليهم، وسمعت أنه ينتقد هذا في بعض اللقاءات التي يعقدها في مقر المشيخة.

ـ يبدو أنني لا أعرف أشياء كثيرة تجري من حولي.

عاد ناظر الوقف إلى القهقهة، وقال له مستنكرًا:

ـ رغم أنك مؤرخ؟

زفر الدكتور «خيري محفوظ» في أسى، وقال:

ـ عشت في الماضي ونسيت الحاضر، لكن في الماضي من المآسي ما يكفي لأعرف ما يجري الآن، إنها حلقات متكررة، وكل ما في الأمر أننا استبدلنا الأسماء القديمة بأخرى جديدة، فصار جهاز أمن السلطة بدلًا من العسس، الذين كانوا أيضًا عيون السلاطين والملوك وآذانهم.

ـ أتذكر مقالاتك عن العسس التي أصابني منها مكروه شديد؟!

ـ وما ذنبك أنت؟

ـ ظنوا أنني من طلبت منك كتابتها لأهاجمهم، في وقت كان بيني وبينهم خلاف بسيط، لكنني نفيت لهم هذا، وفعلت كل ما طلبوه مني كي ينتهي خلافنا.

ـ عجيب أمر هؤلاء.

نهض ناظر الوقف، وكأنه يعلن انتهاء المقابلة، ومد يده ليصافح الدكتور «خيري محفوظ»، وهو يقول له:

ـ ربنا يكفيك شرهم.

القسم الثالث

طريق المعروف

1

في مكتبه الوثير، حيث الصمت والرهبة، جلس رئيس جهاز أمن السلطة، مستترًا بضوء خافت إلا من بقعة مبهرة، تنبعث من أباجورة فضية اللون، مغروسة بإحكام فوق المكتب العريض. سحب أنفاسًا متلاحقة من سيجارته، وفتح الدرج وأخرج ورقة بيضاء، والتقط قلمًا، وراح يكتب مسودة مذكرة مطلوبة منه، قبل أن يدفعها إلى الطابع كي ينقلها على الكمبيوتر.

فخامة الجالس على الكرسي الكبير

تحية طيبة،

نقدم لسيادتكم هذا التقرير بناء على طلبكم وتكليفكم وتوجيهكم السامي لجهاز أمن السلطة بتتبع خطى الدكتور «خيري محفوظ»، في كل مكان ذهب إليه، وهو يقتفي أثر الشيخ «محمد ماضي أبو العزائم"؛ بغية إيجاد دليل يوصلنا إلى الكنز الثمين الراقد تحت بيت آل العزائم، في شارع «مجلس الأمة».

ونود إبلاغكم بأننا خصصنا مجموعة، مكونة من خمسة أشخاص، ضابطين وصف ضابط واثنين من المخبرين السريين، تعقبوه حيث

ذهب، راقبوه دون أن يشعر بهم، وعدُّوا عليهم أنفاسه، وسنرفق لكم هنا أسماء الأشخاص الذين قابلهم مع المعلومات الكاملة عن كل واحد فيهم، منذ أن حلَّ بقرية «محلة أبو علي» التابعة لمركز «دسوق» حتى مدينة «أسوان». وحين سافر إلى السودان، تابعه هناك أناس آخرون، عملوا تحت توجيهات الجهاز، وأرسلوا تقاريرهم إلينا بانتظام، وهنا ما توصلت إليه التقارير كافة، ولأننا نعرف أن وقتكم ثمين، فقد آثرت أن ألخص لفخامتكم كل شيء، وهو ما يعكس الحقيقة دون زيادة ولا نقصان.

يا فخامة الجالس على الكرسي الكبير إن المدعو «خيري محفوظ» لم يكن أمينًا على السر، الذي شددنا على الاحتفاظ به دفينًا، فقد باح به في كل مكان، وطالما أفلت لسانه بكلام عنكم، إلى درجة أنه كان يتهكم على المهمة التي كلف بها، وطالما قال إن الذي يترك كنوز البلد الظاهرة فوق الأرض، ويبحث عن الدفائن لا يستحق أن يجلس على الكرسي الكبير، بل إنه قدح فيكم بألفاظ، يعجز القلم عن ذكرها، تأففا واشمئزازًا وغضبًا لفخامتكم، وزاد على هذا أن خاطبكم في تقرير بطريقة لا تُبيِّن أنه يحسن مخاطبة زعيم كبير مثلكم. فنحن جميعًا نعرف ونؤمن بطيب ما اخترتموه من ضرورة التنقيب عن الخبيئات والكنوز لمواجهة الأزمة الاقتصادية التي تمر بها البلاد، والتي ورثتموها عمن سبقوكم إلى الكرسي الكبير، وتسعون بكل ما أوتيتم من فكر وجهد وإرادة التغلب عليها، كي ينعم الشعب بعيش كريم.

وبالتالي فنحن نرى أن المدعو «خيري محفوظ» لم يحفظ السر، وقد خان العهد، وضيَّع مالًا من خزينة الدولة في رحلات استغلها للتنزه، وجمع معلومات أخرى، سيستخدمها في تأليف كتاب من «أدب الرحلات» كما أسرَّ إلى بعض الذين قابلهم، وما قاله لزوجته عبر الهاتف، ولدينا تسجيلات بهذا أمدتنا بها أجهزة التنصت التي زرعناها بعناية في شقته. الأفدح من كل هذا يا فخامة الجالس على الكرسي الكبير أنه أشاع بين زملائه أنه مستشاركم الخاص، وأنكم ستصدرون قرارًا بتعيينه رئيسا للجامعة عما قريب، وأدى إطلاقه هذه الشائعة إلى حصوله على منافع مادية ومعنوية كثيرة، أعددنا تقريرًا مفصلًا بها، مرفق هنا.

لكن ما أتعجب له حقًا أن ناظر وقف البلد يثق في رجل مثل هذا، ويطلعه على سر من أسرار الدولة، ويسند إليه مهمة ليس هو أهلًا لها أبدًا. ولدينا معلومات قاطعة على أن بينهما علاقة بدأت حين التقيا في مؤتمر بمدينة «فاس» المغربية، وربما يكون هو من طلب منه أن يكتب سلسلة مقالات عن تاريخ العسس، يلمح فيها بكل ما يسيء إلى نظام الحكم، وقت أن كان ناظر الوقف على خلاف مع الجهاز حول من يتحكم في الأموال التي تنفق على رقابة الجوامع والزوايا، في إطار خطتنا التي وافقتم عليها لمحاربة التطرف والإرهاب.

لقد كتب تقريره وكأنه يكتب قصة أو حكاية، ولم يفرق بين طريقته في كتابة التاريخ، التي يزعم أنها أكثر جدوى لطلابه، وبين تقرير

يرفع إلى فخامتكم، بل إنه تجاوز أحيانا طريقته المعهودة، وبالغ في الوصف والحوار، وكان أحيانًا يسرد مواقف عن نفسه وما جرى له أكثر مما يتطرق لما طلب منه بدقة شديدة، وربما أراد أن يستعرض عليكم قدرته على الصياغة، أملًا في أن تكلفوه بكتابة خطبكم، كما قال لزوجته الليلة ذاتها بعد أن ضاجعها.

ولدينا بعض الأدلة على أنه قد ضن على فخامتكم بمعلومات مهمة عن الكنز، عرفها ولم يدونها هنا، بل لدينا شكوك قوية في أن عدم إدراجه لها كان بهدف إعاقتنا عن الوصول إلى الخبيئة الثمينة، والتي أكد لنا علماء آثار ومؤرخون آخرون وجودها، وقالوا إن هذه المنطقة التي وُجد بها سراي الحنفي كان يسكنها أثرياء المماليك، وبعضهم كان يحتفظ بثروات طائلة من سبائك الذهب الخالص والحلي والجواهر، ويخفيها تمامًا؛ لتنفعه في شراء الولاء في الصراع على الحكم، أو لأيام الاضطرابات الشديدة.

وكانت إعاقة «خيري محفوظ» هذا لنا بهدف الكيد للدولة وعدم تمكين فخامتكم من تجاوز الأزمة الاقتصادية التي تمر بها البلاد، ولدينا معلومات تفيد بأنه يعمل لحساب جهات أجنبية معادية. وقد يكون قد اتفق مع من سيساعده في الوصول إلى الكنز؛ ليأخذه لنفسه بعد أن نيأس نحن من وجوده، ولا يمنع أن يكون هذا طرفًا أجنبيًّا. ولدينا معلومات تبين أنه تصرف طيلة السنوات الفائتة على أنه واحد من أفراد الطابور الخامس، الذي يهدد أمن البلاد، حيث اتصل بأفراد

من الإيثاريين الذين نلاحقهم، وكان يغطي هذا بادعائه أنه يكتب بحثًا عن «الحراك السياسي» في البلاد.

وقد عقدنا اجتماعًا حضره كبار قيادات الجهاز وانتهينا إلى توصية بإنزال عقاب شديد عليه، لقاء كل ما اقترفه من أخطاء جسيمة في حقكم، وحق الوطن، بل إننا نعتقد أن بركات الشيخ «أبو العزائم» ستحل عليه باللعنة؛ لأنه أساء إليه أيضًا، حين لم يبذل الجهد الكافي في كشف خباياه ومعرفة أسراره، ومنها المساعدة في الوصول إلى الكنز الثمين، الذي تؤكد تحرياتنا أنه موجود بالفعل، ولم يكن عليه سوى أن يساعدنا في تحديد المكان بدقة، لكنه ضل الطريق، وضيَّع الوقت والمال في ما لا يفيد.

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام والتقدير

رئيس جهاز أمن السلطة

***

وضع رئيس جهاز أمن السلطة التقرير في مظروف، مختوم بخاتم «سري للغاية»، ثم التقط هاتفًا محمولًا صغيرًا محدود الإمكانيات من جيبه، يجري منه مكالمات خاصة، لا يريد لأحد أن يلتقطها ويسجلها له، فهو بحكم موقعه وخبرته يدرك أن هاتفه مراقب، من جهة أخرى، هو يراقب قادتها أيضًا. وزود هاتفه الصغير الرخيص هذا بشريحة اشتراها له أحد أقاربه من الدرجة الرابعة، قبل سنتين بناء على طلبه، وأفهمه يومها أنه بحاجة إليها؛ للإيقاع بشخص يضر بأمن الوطن.

ـ ألو.

جاءه من الناحية صوتًا طليقًا كالريح:

ـ أهلًا، هلت الأنوار يا سعادة الباشا.

ـ إزيك يا دكتور «فريد».

ـ بخير، ما دام سيادتك بخير.

قهقه، وقال له:

ـ كل هذه الرسميات .. نحن صديقان يا رجل.

ـ لكل مقام مقال، وما أنتظره منك الآن يجعل من الضروري أن أكلمك رسميًا إلى أن تشرفني على العشاء، كما وعدتني.

ـ جهز جيبك لوليمة فيها ما لذ وطاب من الطعام والشراب.

جاء الصوت هذه المرة ملهوفًا ومتراقصًا:

ـ حصل؟

ـ نعم، كتبت مذكرة ستبعد «خيري محفوظ» عن منصب رئيس الجامعة، وسيخلو الطريق أمامك، ووقتها لي الحلاوة.

ـ لك الحلاوة والبقلاوة، وكل ما تريد يا صديق عمري.

قهقه رئيس جهاز أمن السلطة، وقال:

ـ أعتقد أن عليك أن تجهز قدرًا لا بأس به من العيش والحلاوة لأن الرجل سيُسجن.

صمت «فريد» برهة، وبلع ريقه، ثم شحن صوته ببعض الأسى، وقال:

ـ لم أرد أن تصل الأمور إلى هذا المستوى.

ـ دعك منه، أنت لا ذنب لك، أنا لي ثأر معه، منذ أن كتب سلسلة مقالات عن تاريخ العسس، وغمز ولمز في حق الجهاز، وفي حقي أنا شخصيًا. وحتى في تقرير أخير كلفه به ناظر وقف البلد بترتيب مع القصر الكبير اتهم جهازنا بعدم العمل على منع تسريب أخبار سرية، تخص فخامة الجالس على الكرسي الكبير. لهذا كتبت في تقريري ما سيشفي غليلي منه، ومن ناظر وقف البلد، الذي كبست العمامة على رأسه، فنسي نفسه، وتآمر على أسياده.

ـ أخشى ألا يأخذ فخامته بما كتبت.

قهقه رئيس جهاز أمن السلطة، وداس على أسنانه، وهو يقول:

ـ هو لا يصدق غيرنا. انتهى الأمر، مبروك عليك يا صديقي، جهِّز الوليمة.

رد بحروف ترتعش من فرط الضحك:

ـ سأذبح عجلًا عند ضريح «أبو العزائم» وسأدعو كل مريديه، الذين عبث «خيري» بتاريخهم المشرف فنال جزاءه.

ازداد الضحك:

ـ أنكذب الكذبة ونصدقها يا رجل، ابعد «أبو العزائم» ومريديه عن مؤامرتنا.

ـ نُكفِّر قليلًا عن ذنوبنا.

ابتسم رئيس جهاز أمن السلطة، وقال:

ـ الموضوع أكبر بكثير منك ومن غريمك، ومن المنصب الذي تتصارعان عليه .. لكن ليس لك أن تعرف إلا ما يخصك.

لم يمض سوى يومين، حتى صدرت الأوامر بعقاب «خيري محفوظ». أما ناظر وقف البلد، فقد اكتفى الجالس على الكرسي الكبير بتوبيخه، وتهديده بفقد منصبه إن أخطأ مرة أخرى على هذا النحو.

2

كعادته يترك الجالس على الكرسي الكبير تنفيذ أوامره بالعقاب لرئيس جهاز أمن السلطة، الذي ينفرد بنفسه في مكتبه وقتًا لا يطول، كي يتفنن في عقاب لا يترك وراءه لومًا من الناس، بل يجعلهم يميلون إلى ما ذهب إليه أهل الحكم، ويتوهمون أنه العدل وما فيه مصلحة البلاد.

في كل مرة يكون سلاحه هو تجريس الضحية بتهمة محبوكة، تودي بها إلى السجن مشيعةً بالخزي والعار واللعنات، مع سد النوافذ والأبواب خلفها؛ حتى لا يكون بمقدورها أن تثبت هذه الاتهامات الباطلة، وإن وجدت منفذًا يكون ضيقًا بحيث لا يصل إلى أسماع الأغلبية الكاسحة من الناس. وكان الدكتور «خيري محفوظ» ضحية سهلة، لم يستغرق التخطيط لها سوى نصف ساعة، احتسى فيها فنجانين من القهوة السادة، ودخن أربع سجائر.

جاءت الفكرة لرئيس جهاز أمن السلطة هذه المرة، كما في كل المرات السابقة، متلائمة مع مسار الدكتور «خيري»، فمثله لا يمكن اتهامه بالانتماء إلى تنظيم يسعى لقلب نظام الحكم؛ إذ إن مقالاته

الأخيرة، التي نشرها بعد مقالات العسس بسنة كاملة، تبين أنه من الموالين للنظام، أو على الأقل من الساكتين عليه. كما كان من الصعب اتهامه بأنه يعمل على زعزعة استقرار المجتمع أو الإضرار بمصالح الدولة ومؤسساتها. لكن هناك دائمًا في عمله، وفي عمل أي شخص أو مهنته، ثغرة يمكن النفاذ إليه منها.

رفع سماعة هاتفه إلى مدير الوثائق والمحفوظات، وطلب منه أن يحضر إلى مكتبه. فذهب إليه خائفًا يترقب، والظنون تعصف برأسه. لكنه كان يُصبِّر نفسه باحتمال واحد تمسك به، وهو يطالع الشوارع من سيارته بعينيه الجاحظتين، وهو أن الرجل يريد أن يتعرف إليه عن قرب؛ ليقيس ما إذا كان صالحًا لمنصب أكبر ينتظره هو بفارغ الصبر أم لا.

لكنه وجد رئيس جهاز أمن السلطة يطلب منه، بعد دقيقة واحدة من جلوسه أمام مكتبه، أن يهاتف «خيري محفوظ»، ويُفهمه أنه تلقى أمرًا من القصر الكبير بتوفير وثائق تاريخية له لمساعدته في تأليف كتاب عن الشيخ «أبو العزائم»، وإمعانًا في اصطياده قال لمدير الوثائق والمحفوظات:

ـ كلمه عن معلومات يمكن أن يجدها لديكم عن امرأة تدعى «الدمياطية»، وهو سيفهم كل شيء.

استغرب الطلب، وآثر الاستفهام بأدب شديد، محاولًا أن يداري ارتعاشه:

ـ أقول له أن من اتصل بي القصر الكبير أم جهازكم؟

ـ لا .. لا، نحن يجب ألا نظهر في الصورة أبدًا.

ـ لكن اطلاع أي أحد على الوثائق المحفوظة لدينا لا يحتاج إلى موافقة القصر الكبير، فكيف أقول له هذا؟

ـ هو يكتب الآن تقريرًا مطلوبًا منه لفخامة الجالس على الكرسي الكبير، وسيفهم أن القصر اتصل بك لتسهل له مهمته.

ابتسم وقال:

ـ بسيطة، كل شيء سيكون تحت أمره.

نظر إليه رئيس جهاز أمن السلطة بإمعان، ثم ابتسم وقال:

ـ هناك طلب آخر.

ـ أوامرك.

ـ ستمد له الحبل إلى نهايته، أفهمه أن بوسعه أن يأخذ من الوثائق إلى بيته ما يشاء، واجعله يفعل هذا.

راح قلب ناظر الوثائق والمحفوظات يدق بعنف، وشعر أنه مأخوذ للمشاركة في مؤامرة ما، ها هو قد عرف أولها، لكنه لا يعرف آخرها، وربما يجد نفسه ضحية لها في النهاية. ولم يكن أمامه من سبيل سوى الطاعة؛ لاسيما بعد أن قال له رئيس الجهاز:

ـ أعرف أن طموحك بلا حدود، ونحن الذين نضع اللمسات الأخيرة على أوراق الطامحين، فكن معنا.

اغتصب ابتسامة فاترة وقال له:

ـ حاضر، إن كان الأمر كما شرحت لي فبسيطة.

ـ بقي شيء أخير.

ـ خيرًا؟

ـ ستخرج على الناس في الوقت الذي نحدده لك؛ لتعلن اختفاء وثائق من الدار.

ـ لكن هذا يدينني.

ـ لا تخف، لقد رتبنا كل شيء، وستخرج رابحًا بعد أيام، لن يكون للصحف والفضائيات حديث خلالها سوى ضياع الوثائق، وستكون أنت بطل كل الأخبار والحكايات إلى أن يظهر بطل آخر معك، وبعدها ستكون مكافأتك مضمونة.

ـ سيادتك تعرف مكافأتي.

سحب رئيس جهاز أمن السلطة نوتة صغيرة من درج مكتبه، وكتب كلمات، لم يتمكن ناظر الوثائق والمحفوظات من تبينها، وقال له:

ـ هنا طلبك حتى لا أنساه، وسأكتب تقريرًا جيدًا عنك؛ لتنال ما تريد.

وفي صباح اليوم التالي كان «خيري محفوظ» يجلس على منضدة، وأمامه ملفات، تحوي أوراقًا صفراء بعضها يكاد يذوب بين أصابعه، تعود إلى الربع الأول من القرن العشرين عن علاقة مشايخ الطرق الصوفية بأهل الحكم والسياسة، وشيء عن حياته الأولى، والمقربين منه، وضعها مدير الوثائق والمحفوظات أمامه بنفسه، وقال له، وهو ينحني قليلًا أمامه:

ـ لك الاطلاع كما شئت، وإن أردت اصطحاب شيء معك إلى البيت، فلك ما تريد، شرط أن توقع على ما تأخذه في دفاترنا.

شكره الدكتور «خيري» وتعجب من أن يسمح له بهذا، وتذكر ما كان يجري له من تجاهل أو تعسف أو تباطؤ في تلبية طلبه، كلما كان يأتي إلى هنا باحثًا عن وثيقة، وطالما طلبوا منه أن يأتي إليهم بطلب ممهور ومختوم من الجامعة، فإن أتى فإن هذا لا يتيح له أن يصل إلى الوثيقة المطلوبة في بعض المرات لذرائع لا تنتهي. هذه المرة حضرت إرادة القصر الكبير ففتحت الأبواب المغلقة، ووجد أن بوسعه أن يأخذ ما شاء من وثائق إلى بيته، رغم أن هذا يخالف القانون.

وابتسم في نفسه حين تذكر أن امرأة سليطة اللسان، كانت تدير وكرًا للمخدرات والدعارة قبل قرن من الزمن تقريبًا، ربما تكون هي سبب فتح أدراج الوثائق أمامه على هذا النحو. ومع هذا بدا نادمًا في هذه اللحظة على أنه قد اختتم تقريره بذكر ما كانت تفعله هذه المرأة

في الشيخ الكبير، وأنه فتح أسئلة لا إجابات عنها عن احتمال أن تكون قد عرفت شيئًا عن الكنز.

فضّل أن يذهب كل يوم إلى دار الوثائق والمحفوظات، ويجلس إلى الطاولة الطويلة العريضة، يقلب الأوراق القديمة، وينقل منها في صفحات بيضاء فارغة، كل ما ظن أنه يحتاج إليه ليضيفه إلى التقرير الطويل، الذي كتبه عن «أبو العزائم»، وهاتف قبلها ناظر وقف البلد، وأبلغه أنه وجد ما يستحق أن يُضاف إلى تقريره.

أنصت إليه جيدًا، ثم قال له في فتور:

ـ لا بأس، اكتب ما تريد.

وأغلق الهاتف، ومصمص شفتيه، ونظر إلى نسخة التقرير، التي كانت لا تزال على مكتبه، وقال:

ـ مسكين، يدخل الفخ راضيًا.

ووجد «خيري محفوظ» في الوقت نفسه، أمامه معلومات أخرى مهمة تصلح لكتاب مستقل، ولذا سحب ورقة أخرى وكتب فيها ملاحظات على هذا العمل، الذي قرر أن يشرع فيه، فور أن ينتهي من تعديل التقرير، وقبل أن يفتر حماسه، أو ينشغل بالتزامات المنصب، الذي سيتولاه مكافأة له على ما أنجزه.

نقل من هذه الوثائق سطورًا بخط مرتعش، يهبط ويصعد على الخطوط المستقيمة، لأنه كان يدون بسرعة شديدة لاختصار الوقت

بينما تنهمر على رأسه معلومات تفيض بها الأوراق التي أمامه. ووضع لهذه النقول عنوانًا في ورقة بيضاء يقول «بعيدًا عن كنزهم»، لكنه لم يلبث أن شطبها سريعًا، وهو يتلفت خلفه ليطمئن إلى أن أحدًا لا يراه، بل نظر إلى السقف باحثًا عن مكان الكاميرات، التي لابد أن تكون مزروعة في هذا المكان لحماية الوثائق الثمينة.

إلى جانبه، كان هناك رجل يسترق النظر إليه. بين حين وآخر يرسل إليه نظرة عجلى ثم يسحبها، دافنًا رأسه في ملف أمامه على الطاولة. لم تكن هيئته تدل على أنه باحث أو مؤرخ أو كاتب، جاء ليَطّلع على وثائق يستعين بها في شيء يكتبه. وعلى شاكلته في الخلف كان هناك رجل آخر. هل هما من حراس دار الوثائق أو موظفيها؟ أم هذان الرجلان مجرد مخبرين سريين؟ وإن كانا كذلك فمنذ متى يتبعانه؟ بدت سحنة أحدهما ليست غريبة عليه. أين رآها؟ لم يكن يدري في هذه اللحظة، لكنه حاول التذكر، واقتحمته كلمات ناظر وقف البلد، وعبارته الأخيرة التي ودعه بها «ربنا يكفيك شرهم".

لهذا فضّل ألا يغامر بكتابة عنوان لما ينوي فعله، بل شطبه تمامًا، وراح ينقل من الوثائق التي أمامه الكثير، وبسرعة شديدة. فكتب عن آلاف المريدين، الذين كانوا ينتظرون «أبو العزائم»، بعد أن وصل إلى الشلال مطرودًا من «السودان»، وعلى رأسهم أعلام السياسة والمحاماة والطب والأعيان. ووجد أوراقًا تقول إن الحاكم العام الإنجليزي للسودان كان على متن الباخرة التي كان بها الشيخ الكبير،

وقد طلبت منه هذه الجموع أن يتم نفي الشيخ إلى بلدة «المطاهرة» في «المنيا»، وليس إلى جزيرة «مالطة» كما كان مقررًا.

ووقعت في يده وثيقة مكتوب فيها:

«وكالة حكومة السودان بمصر

التاريخ: 30 أغسطس 1915

حضرة الشيخ محمد ماضي المحترم

أفيدكم أنه بداعي الإجراءات الاقتصادية التي اتخذتها مصلحة معارف حكومة السودان، المرجو عدم سفركم إلى مقر وظيفتكم في السودان، إلا إذا أخبركم بذلك جناب مدير المعارف السودانية مباشرة.

وكيل حكومة السودان

مستر سيمس

الرجاء إفادتي باستلامكم هذا، وإعادة جميع تصاريح سفركم وسفر عائلتكم إلى هذا المكتب».

كما وجد وثيقة تتحدث عن علاقة «أبو العزائم» بالزعيم الشاب المناضل «مصطفى كامل»، حيث كان يرسل إليه وهو في السودان، ليشد على يده وينصحه بما عليه أن يفعله في مقاومة الاحتلال. ووجد أخرى تدل على مشاركة قوية لمريدي الطريقة العزمية في ثورة 1919، وأن الشيخ الكبير التقى «سعد زغلول» ورفاقه عدة مرات في النادي

السعدي، بل وجد ورقة مكتوبة بخط باهت عن حوار دار بين الاثنين في يوم من الأيام:

«يا سعد، بكم تشتري العبد اليوم؟

- يا مولانا لا يوجد عبيد تباع في أيامنا هذه.

- لو افترضنا يا سعد أن العبيد تُشترى في أيامنا هذه .. فبكم تشتري العبد؟

- يا مولانا إن ثمنه لا يُقدَّر بمال.

- يا سعد .. إن العبد كما قلت لا يقدر اليوم بمال، فما بالك إذا كان حرًّا؟ يا سعد .. اتق الله في اثني عشر مليونًا من المصريين الأحرار، إنهم أمانة في عنقك، يسألك الله عنها يوم القيامة .. يا سعد، إن أمامك غربة قصيرة، بعدها تكون زعيمًا لهذه الأمة».

ووثيقة ثالثة عن خلافه أثناء رحلته للحج عام 1922 مع الشريف حسين أمير مكة، تبين أن «أبو العزائم» كان رجلًا صعب المراس بالنسبة لأهل الحكم. فوقتها نزل في منزل أحد مريديه في جدة، وأرسل له الأمير برقية تقول: «الإمام السيد محمد ماضي أبو العزائم .. الأقطار الحجازية تتشرف بقدومكم. في خدمتكم رئيس البلدية بجدة حتى تشرفوا مكة". فلما ذهب إلى رئيس البلدية قال له:

- أعددنا لفضيلتكم وجميع المريدين وسائل الراحة والانتقال إلى مكة؛ تلبية لرغبة سيدنا وسيد الجميع.

وهنا ابتسم «أبو العزائم» في سخرية، وقال:

ـ أما إنه سيدك فلك أن تُسيِّد من شئت على نفسك، وأما أنه سيد الجميع فمن يقول بذلك غيرك؟ إن سيد الجميع هو رب العالمين، الواحد الأحد .. أنا لا أستحق هذه العناية من الشريف، وهذا ردائي كما تراه بسيطًا، وقد سبق أن عمل إخواني لراحة إخوانهم، الذين معي طوال فترة وجودنا في جدة.

واعتذر له عن قبول هذا العرض، ومضى في طريقه، وخلفه مريدوه، لكنه عند قرية «بحرة» وجد مندوبًا من قبل أمير مكة، ومعه بعيرين على أحدهما ماء زمزم، وعلى الآخر أقفاصًا من الفاكهة، فأخذ «أبو العزائم» الهدية، وطلب كبير القرية وقدم له ما وصله، وقال له:

ـ أهل «بحرة» أولى بهذا الماء، وهذه الفاكهة.

ولما وصل مكة، زاره وزيران للشريف حسين يدعوانه لزيارة أمير مكة في داره، لكنه قال لهم:

ـ أمير مكة أغضب الله بقتله الأتراك، والتشنيع بجثثهم بأسلحة الإنجليز، ولا أستطيع أن أمد يدي إلى يده.

في اليوم التالي أرسل شريف مكة رجلًا سوريًا، كان يعمل مدرسًا في «السودان» من قبل، وعلاقته بالشيخ «أبو العزائم» كانت جيدة، فقال له:

ـ أمير مكة في انتظارك.

ـ في انتظاري أنا! .. أنا متعب من السفر، كما أنك تعرفني جيدًا من أيام السودان، إنني ابتعد دومًا عن مجالس الملوك والأمراء، وقد جئنا هنا لزيارة بيت الله، وليس بيت أي أحد من عباده، وإن كان هذا ضروريًا، سأرسل معك أحد أولادي".

أصبح الدكتور «خيري» بعد أن قرأ هذه الوثيقة أكثر اقتناعًا بضرورة المضي في تأليف كتاب عن «التاريخ السياسي للطريقة العزمية»، لكنه رأى ضرورة الإتيان على ذكر ما وجده في هذه الوثائق بتقريره، فهي إن لم يكن لها علاقة بالكنز، فهي ستفيد الجالس على الكرسي الكبير في التعامل مع المتصوفة، وتفهمه أنهم جميعًا ليسوا مستأنسين أو متآلفين مع الحكام، خاصة من أمثال فخامته. كما يعتقد بعض ضباط جهاز أمن السلطة في تقاريرهم التي يرفعونها له، وهو ما عرفه من زميل له بالجامعة، قريب من الجهاز، وشيخ لإحدى الطرق الصوفية.

جعلته الوثيقة الأخيرة راغبًا في كتابة طلب إلى ناظر وقف البلد يطلب منه فيه أن يمد رحلته لتشمل أرض الحجاز، فربما يجد هناك من يدلي له بمعلومات جديدة حول الشيخ تفيد في موضوع الكنز. وبالفعل كُتب الطلب وأرسله، لكنه تلقى اتصالًا هاتفيًا منه يقول له:

ـ انتهى الأمر، فخط سير رحلتك وافق عليه فخامة الجالس على الكرسي الكبير، ولا سبيل لتغييره، ولا أقدر الآن أن اتصل بالقصر وأطلب مد رحلتك وهم متعجلون على تقريرك. كما أن المتصوفة

في الأراضي الحجازية ليس بوسعهم، كما هم في السودان، أن يعلنوا عن نفسهم لك بسهولة؛ فظروفهم صعبة منذ سنوات طويلة، يعقدون حضراتهم في بيوتهم، ويبلعون ألسنتهم، ويصبرون على أمل أن تتبدد الأحوال.

وانتبه «خيري محفوظ» إلى أن تقريره لم يصل بعد إلى الجالس على الكرسي الكبير، وسأل نفسه، وهو ينصت إلى ناظر وقف البلد: «إذا كان الأمر كذلك، فلمَ تم تكليفه بالبحث عن أية معلومة تخص الدمياطية، وهي من اختتم بها تقريره؟». لكن ناظر وقف البلد، الذي شعر أن «خيري» قد يكشف أمر تواطئه مع جهاز أمن السلطة، وسارع إلى تصحيح الخطأ الذي وقع فيه، فقال له:

ـ متعجلون على ما يخص الدمياطية، إن وجدت شيئًا. أما التقرير الأصلي، فقد وصل إلى القصر، لكن لا أعرف إن كان فخامة الجالس على الكرسي الكبير قد قرأه أم لا.

وجاء هذا الكلام في صالح الدكتور «خيري"؛ إذ إنه ندم بعد أن قدم طلبه، وخاف أن تتم الموافقة عليه، فيكلف بمواصلة رحلته بينما اقترب موعد التغيير الحكومي، وتغيير رؤساء الجامعات. لهذا فرح برد ناظر الوقف، وقال له:

ـ عمومًا ما وجدته في الوثائق هنا يمكن أن يساعدنا كثيرًا.

والمهم عنده كان أن يرضى القصر الكبير عن التقرير في حالته الراهنة، وسيصبح بوسعه بعدها أن يدرج رحلة «أبو العزائم» إلى

الأراضي الحجازية في الكتاب الذي يعتزم تأليفه، ولذا طلب تصوير هذه الوثائق، حتى يضعها ضمن ملاحق الكتاب، وقال في نفسه: «سيكون كتابًا مختلفًا في التاريخ»، لكن مدير الوثائق والمحفوظات قال له، وهو يدوس على كتفه بامتنان:

ـ بوسعك أن تأخذ الوثيقة إلى بيتك وتعيدها بعد انتهاء مهمتك.

رفع الدكتور «خيري محفوظ» عينيه، اللتين كانتا تنظران على مهل في سطور الوثيقة، وقال له:

ـ هذا ممنوع.

ـ طبعًا، ولكن أنت مُستثنى.

ـ هذه وثائق الدولة.

ـ لقد أمرنا فخامة الجالس على الكرسي الكبير على رأس هذه الدولة، بتسهيل مهمتك، وأمره مُطاع .. كما أنك رجل مضمون ومأمون.

ـ أنا لا أحتاج سوى إلى تصوير الوثائق.

قهقه مدير المحفوظات، وقال:

ـ أنا خجلان أن أقول لك إن ماكينة التصوير معطلة.

ـ معقولة؟!

ـ تحتاج إلى قطعة غيار دقيقة، أبلغنا الشركة المعنية وأخبرونا بأنهم أرسلوا لاستيرادها، لكن كما تعرف فيوم الحكومة بسنة.

- إذا كان الأمر كذلك فليس أمامي من خيار سوى أخذ بعض الوثائق لتصويرها وإعادتها في الغد.

ابتسم وقال له:

- أعرف عما تبحث، اعتبرني واحدًا من الذين يساعدونك في أداء مهمتك ... سيأتي إليك أحد الموظفين الآن، ويصطحبك إلى كل مكان هنا؛ لتجمع كل ما تريد من وثائق، أو من مجلتي «المدينة المنورة» و«السعادة الأبدية»، اللتين أصدرهما الشيخ الكبير «أبو العزائم»، وتأخذها إلى بيتك.

وما إن بدأ البحث بشكل أعمق في الملفات، حتى وجد خطابًا يعلن عن قيام الطريقة العزمية أرسله «أبو العزائم» إلى شيخ مشايخ الطرق الصوفية. قرأه الدكتور «خيري» على مهل، بينما كان الموظف الذي يساعده يقلب في ملفات أخرى:

«صاحب السماحة الحسيب النسيب شيخ المشيخة المنيفة والنقابة الشريفة السيد عبد الحميد البكري .. جدد الله بسماحته معالم الطريق، وأيد بسيادته رجال العلم والدين .. آمين. مولاي رافعه لسيادتكم العبد المسكين محمد ماضي أبو العزائم. يشرفني يا مولاي، بعد أن تلقيت علوم الشريعة الغراء بالأزهر الشريف، وتلقيت علوم الحكمة والأخلاق، وتربية النفوس على أيدي أئمة من أهل الفرقان والولاية، وأبواب التوحيد والأخلاق من كتاب «إحياء علوم الدين»، وتلقيت كتاب «قوت القلوب» في علوم أسرار الطريق، وبيان أحوال

الرجال من أستاذي ومرشدي الرغيب محمد السائح الخوقندي بسنده المتصل إلى سيدي عبد القادر الجيلاني، وتلقيت منه أسرار الطريق، وأذن لي بتلقين ما تلقيته عنه، وتلقيت الرسالة القشيرية وحكم ابن عطاء الله السكندري على أستاذي المرشد السيد حسنين الحصافي بسنده المتصل إلى الإمام أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه، وتلقيت علوم أحوال الرجال ومواجيدهم على سيدي العز محمد نزيل مكة المكرمة .. بعد خدمة الطريق وعلم مآخذها. وقد مَنَّ الله عليَّ بأن أرشدت كثيرين، وألفت كتبًا، طبع منها تسعة كتب في علوم الشريعة المطهرة والأخلاق وأسرار السادة الصوفية. وبما أن الله مَنَّ عليَّ بإرشاد كثيرين يزيدون على العشرة آلاف في أنحاء بلاد مصر، وهم ملتمسون من سماحة مولانا تعييني شيخًا لهم، أسوة بمشايخ الطرق. وبما أن طريقة السادة الشاذلية متفرعة إلى فروع كثيرة، فألتمس من سماحكتم انضمامي لمشيخة السادة الصوفية، أنا وأولادي وأهل طريقنا بالعزمية الشاذلية ...

خُدَيم الفقراء: محمد ماضي أبو العزائم".

كانت حصيلة أربع ساعات من البحث ثلاثين وثيقة، جمعها الدكتور «خيري محفوظ» بمساعدة الموظف، ووضعها في ملف، وغادر مقر دار الوثائق والمحفوظات إلى بيته.

في الطريق، كان خيري مشغولًا أكثر بتلك الوثيقة التي كتبها الابن الأكبر للشيخ الكبير، والخليفة الأول له. وكانت تبين كيف كان يقف

في نافذة غرفته قبيل آذان الفجر، وينادي مريديه بصوت جهير لا يخلو من نداوة:

ـ «يا غراس الجنة، الصلاة .. يا آل العزائم هيا إلى الغنائم".

ولم يكن كلهم يسمعونه، وبعض من يصل إليهم صوته كانوا يتثاءبون في مضاجعهم، وقلة تهب طاردة النوم من عيونها، وتخرج إلى ساحة سراي الحنفي. وكان هو لا يكتفي بالنداء من بعيد، بل ينزل من سكنه الخاص، ويمر على الغرف، يطرقها بعصاه، فيستجيب له الجميع، ويسبقهم إلى الزاوية، ليصلي الرغيبة في جماعة، ثم يجلس ليقرأ أدعية من كتابه «نيل الخيرات» وهم حوله. وحين يكتمل وجودهم يصلي بهم، ويلقي فيهم درسًا حتى تشرق الشمس، فيخرج بهم للتريض مشيًا نشطًا حتى مسجد «السيدة زينب»، ويعودون لتناول الإفطار. وبعدها يأخذ الشيخ قسطًا من النوم. وعندما يستيقظ يأمر بإحضار القلم والأوراق، ويُملي على واحد ممن يكتبون خلفه كتبه، ورسائله إلى محبيه في كل مكان. ويجلس بعدها ليستقبل زائريه حتى صلاة الظهر، ثم يصعد إلى سكنه للراحة، ولا ينزل منه إلا عند صلاة العصر، وحين يفرغ منها يُملي مقالات توزع على بعض الجرائد، وردودًا على ما جاء بمقالات لآخرين، يجد الشيخ نفسه بالرد عليها. بعدها يقوم ويركب سيارته، ويمر بها على كوبري قصر النيل، وغيره من الأماكن القريبة من النهر، ولا يعود إلا قبيل صلاة المغرب، فيؤديها ويلقي درسًا جديدًا حتى صلاة العشاء، وبعدها يأتي وقت الحضرة،

لهم الخلوة، حيث يدعو الشيخ خاصة مريديه وتلاميذه ليتبادل معهم الرأي في كثير من الأمور، وينهي ليلته بالتهجد.

راح يفكر في تلك الطقوس، ويسأل نفسه:

ـ متى كان الشيخ الكبير يجد وقتًا لإنفاق ما تحصل عليه من أموال بعد استخراج الكنز الثمين كما يزعمون؟ أم كان هناك كنز بالفعل وأمر برده كما يقول بعض مريديه؟ إن كان في الأمر أية صلة بالحقيقة، فعلى الأقل سيكون الاحتمال الأخير هو الأقرب للتصديق. فكثير من الدلائل تبين أن الرجل كان زاهدًا، وها هي وثيقة وجدها مكتوبة بخط يد شخص، يبدو أنه كان رجل أمن يتابع الشيخ الكبير في رحلة، قام بها إلى الأراضي الحجازية. لم تكن الوثيقة مكتملة، إذ يبدو أن يدًا قد امتدت إليها ومزقت جزءًا منها، لكن ما وجده الدكتور «خيري» كان كافيًا ليفهم منه أشياء كثيرة، إذ تقول الوثيقة: «كان الشيخ أبو العزائم يلقي درسًا في الكعبة، وكان حديثه حلوًا، والناس المتحلقون حوله ينصتون عليه، ويرددون طيلة الوقت: الله .. الله. ولفت مشهدهم انتباه أميرة هندية، كانت قد فرغت للتو من طوافها، فأرسلت أحد خدمها ليحضر لها أكياسًا مملوءة بنقود من الفضة. ورأيتها وهي ترميها أمام الشيخ، ثم أمام إخوانه الأقرب إليه في الجلسة. لكن الشيخ لم تنزلق عيناه إلى أكياس المال أبدًا، واستمر في حديثه، حتى فرغ من درسه، فنادى شيخ المسجد، وقال له: اجمع هذه الأكياس، ووزعها على عمال المسجد، فنحن ضيوف الرحمن، ولا يصح أن نمد أيدينا إلا إليه».

راح «خيري محفوظ» يحدث نفسه، وهو عائد إلى بيته، قادما من دار الوثائق والمحفوظات:

«هل مثل هذا ينشغل بكنز كالذي يدور في أذهانكم يا أولاد الهرمة؟» .. وقهقه حتى تعجب سائق سيارته من حاله، ولما تكررت القهقهات قال له:

- ربنا يسعد أيامك يا دكتور.

لكن الأيام المقبلة لم تكن سعيدة أبدًا. قام «خيري محفوظ» بتصوير الوثائق، وأعادها في اليوم التالي إلى حيث أتى بها، ولم تمر سوى ثلاثة أيام حتى بدأت الصحف تنشر أخبارًا عن ضياع وثائق مهمة، بعد أن حبك رئيس جهاز أمن السلطة خيوط المؤامرة.

كانت مؤامرة غاية في السهولة، لم يبذل جهاز الأمن فيها الجهد الكبير، الذي يستغرقه غيرها من المؤامرات؛ إذ لم يتطلب الأمر سوى فتح الشقة التي ملأها الدكتور «خيري» بالكتب وأغلقها، ويزورها على فترات متقطعة، كلما احتاج إلى بعض المراجع لكتاب أو دراسة جديدة يُعدها، وكان قد وضع الوثائق خلف صف من المجلدات، بحيث لا يظهر منها شيء.

في اليوم التالي قرأ الناس في الصفحات الأولى للصحف خبرًا عن ضياع وثائق مهمة، كانت المواقع الإخبارية الإلكترونية قد أتت على ذكره قبل هذا بساعات. وفي المساء، كان موضوعًا لأغلب

برامج «التوك شو»، التي اكتسى مذيعوها أثواب الواعظين، وطالبوا بفتح تحقيق لمعاقبة المهملين في دار الوثائق، وبعضهم عاد إلى وقائع مشابهة في السنوات السابقة. وبدا للكل أنها حملة منظمة، يوجهها شخص واحد، حيث تكررت بعض العبارات والتعليقات في الصحف والمواقع الإلكترونية والفضائيات.

انتبه الدكتور «خيري محفوظ»، وهو جالس أمام التلفاز في المساء إلى أن الوثائق التي يذكرونها، هي التي قد استعارها لتصويرها وأعادها في اليوم التالي، ووجد كل المذيعين يقولون إن الشرطة عثرت على هذه الوثائق في شقة قديمة مملوكة لمؤرخ شهير، يستعملها مكتبة ومكتبًا. وأن بعضهم أتى على ذكر اسمه.

عبثًا حاول إجراء اتصال بأي من البرامج، فالأوامر صدرت للجميع ألا يتلقوا اتصالًا منه هو بالذات، ولأن هاتفه وضع تحت المراقبة منذ أيام، فقد سهل على ضباط أمن السلطة أن يعرفوا محاولاته تلك، فقطعوا عليه الطريق تمامًا.

اتصل بمدير دار الوثائق والمحفوظات غير مرة، لكنه لم يرد عليه. هاتف ناظر وقف البلد، فقال له إنه لا يعرف شيئًا عن الموضوع، ووعده بأن يتحدث إلى من يعنيهم الأمر، ولكنه لم يرد على مكالماته اللاحقة.

لم يكن أمام «خيري محفوظ» من سبيل سوى أن يحاول الاتصال بالقصر الكبير، لكنه لم يعرف كيف يتحقق له ذلك، واجتاحته مشاعر

نـدم شـديد؛ لأنه لم يحاول طيلـة المدة التي قضاها فـي أداء مهمته أن يتواصل مع أحد من القصر، بل لم يسأل عن أي طريق لهذا.

وبـدأت المرحلـة الثانيـة مـن الخطة، وهـي أن يطلـب ناظر وقف البلـد من «خيري محفـوظ» أن يهرب، فقال له بصوت غارق في محنة وخوف مصطنع:

ـ لـم أرد عليك طيلة السـاعات الماضية حتـى تصل إليَّ معلومات يقينية بشـأن موضوعك .. عرفت الآن أنهم قد فحصوا أفلام كاميرات دار الوثائق والمحفوظات، فوجدوك تمد يدك إلى وثائق، وتضعها في ملف، ثم تدسها في حقيبتك، وتغادر المكان.

ـ لكـن هـذا تم بعلـم مديـر الوثائـق والمحفوظـات، وبترتيب مع القصر الكبير.

ـ تحدثـت معـه فأنكر أن يكـون قد اتفق معك على شيء، وكل ما قالـه إنه رحـب بك فور وصولك، وتجاذب معك أطراف الحديث، ثم تركك تطالع ما تريد .. للأسف الكاميرات لم تسجل صوتيكما.

ـ كيف هذا؟! إنه يكذب .. يكذب.

ـ أنـا أصدقك، ولكن عليـك أن تهرب وتختفي عـن الأنظار تمامًا حتى تظهر الحقيقة.

ـ لن أهرب سأواجه هذه الافتراءات.

صمت ناظر وقف البلد برهة، وقال له:

ـ مشكلتك صارت مع جهاز أمن السلطة .. يقولون إن الوثائق التي سرقتها خطرة.

وكان ناظـر وقـف البلد قد تلقـى أمرًا صارمًا مـن رئيس جهاز أمن السـلطة بـأن يوحـي للدكتـور «خيـري محفـوظ» بالهـروب، وقال له بصوت جاف:

ـ نريده أن يبتعد حتى نتمكن من تلويث سمعته على نحو تام.

واندهش ناظر الوقف مما سمع، وسأله:

ـ ولمـاذا تفعلون هذا، والرجل أنهى قبل أيام مهمة كلفه بها فخامة الجالس على الكرسي الكبير؟

ـ فخامته هو من أصدر الأوامر بهذا، ونحن رأينا أن يكون لك دور في المهمة الجديدة.

ـ وهل أخطأ الرجل حتى يُعاقب؟

ـ نعـم، وقـع في أخطاء جسـيمة، فقد كنـا نراقبه طيلة المـدة، التي قضاها في مهمته، تابعناه كظله في كل مكان، ولم يكن أمينًا.

ـ هل هذا معقول؟!

ـ طبعًـا، ولهـذا لا نريدك أن ترفع التقرير إلـى فخامة الجالس على الكرسي الكبير.

ـ ماذا؟

ـ ما سمعت.

ـ لكن .. لكن ..

ـ نحن كتبنا إلى فخامته ألا يثق في كل ما كتبه «خيري محفوظ»، ولم يعد هذا التقرير المملوء بالمغالطات يعنيه.

ـ لم يبلغني أحد من القصر الكبير بهذا.

ـ سيبلغونك خلال ساعات.

ولهذا حين كان ناظر وقف البلد يتحدث مع الدكتور «خيري»، كان يصطنع نصيحته له بالهرب، ولكن قلبه كان موجوعًا عليه، وعلى نفسه أيضًا، لأنه هو من اقترحه على فخامة الجالس على الكرسي الكبير، وقد ينسحب عليه العقاب، ولو في وقت لاحق.

نفذ دوره المرسوم بعناية، ثم هاتف رئيس جهاز أمن السلطة، فوعده أن يكتب إلى القصر بما يبرئه من الخطأ في اختيار «خيري محفوظ» لهذه المهمة، وإظهار الأخير على أنه خان الجميع، بمن فيهم ناظر الوقف. وكان على الخائن المزعوم أن يبحث عن مكان للاختباء.

3

نزل الدكتور «خيري محفوظ» من بيته سريعًا، لم يطلب سائقه هذه المرة، بل استقل سيارة أجرة. كان لا يعلم إلى أين يذهب، نعم هو ابن «القاهرة»، وهي مدينة قادرة على ابتلاع الهاربين والضائعين، لكنه ليس أي أحد، فالجرائد تتعقب أخباره، والشاشات الزرقاء لا تكف عن عرض سيرته وصورته:

«أستاذ تاريخ يسرق وثائق تعود إلى نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين»..

«مربي الأجيال الذي صار لصًا»..

«المؤرخ الذي حارب العسس، ووقع في مدارهم الأسود»..

«لص من طراز خاص جدًا»..

لفت انتباهه أن كل البرامج لم تحدد نوع الوثائق الضائعة، إلا واحدًا فقط وصفها بأنها «وثائق خطيرة تخص مسائل حيوية وأمنية»، فأدرك في هذه اللحظة أن اللعبة ربما تكون أكبر بكثير من تقرير الشيخ «أبو العزائم»، أو مجرد تصفية حساب قديم بينه وبين رئيس جهاز أمن السلطة، منذ أن نشر مقالات «العسس».

لم تكن له في «القاهرة» سوى صلات واهية بأقرباء من الدرجتين الرابعة والخامسة، ومثل هؤلاء ليس بوسعهم أن يحموا رجلًا تطارده أكبر سلطة في البلاد. ولا يمكن لأي من زملائه أو تلاميذه أن يستضيفه عنده. كما أنه اعتاد طيلة حياته ألا يفرض نفسه على أحد.

نظر إلى لباسه البسيط الذي تعمد ارتداءه حتى يساعده في رحلة الهرب: بنطال وقميص أزرق، وكوفية رمادية، ووضع على رأسه طاقية بنية، كان يلبسها أحيانًا في الليالي الباردة، وهو جالس إلى مكتبه بالشقة، التي أغلقها على كتبه، أو تلك التي يسكنها الآن.

بدا كأنه بائع من حي شعبي، أو سائق شاحنة، واتخذ قرارًا في هذه اللحظة بأن يترك ذقنه تنبت وتطول كما شاءت، وكذلك شاربه. لم ينس أن يأخذ معه نوتة يدون فيها خواطره وتأملاته، وقلمًا من الحبر الجاف لا تروق له الكتابة إلا به، ومبلغًا من المال يكفيه للعيش أشهر عند حد الكفاية.

عارضت زوجته هروبه، وطلبت منه أن يستسلم، ويدافع عن نفسه، لكنه قال لها:

ـ لا قدرة لي على البقاء في الحبس ولو ليلة واحدة .. أنا مصاب بفوبيا الأماكن الضيقة المغلقة كما تعلمين، ومثلي قد يودعونه زنزانة انفرادية.

ـ ألهذه الدرجة؟

ـ نعم .. أعتقد أن ضباطًا في جهاز أمن السلطة هم من دبروا لي هذه المكيدة، وطريق هؤلاء ينتهي إلى ما أخاف منه.

ابتسمت وقالت له:

ـ لكنك ذاهب إلى حبس أشد وأنكى.

أفهمها أن ناظر وقف البلد هو الذي طلب منه الهروب، إلى أن يدبر أمره. وعندها قالت له ما أشعل الظنون في رأسه:

ـ لو كان جادًّا لتحدث مع القصر الكبير، وأوقف هذه المهزلة.

ـ أتعني ....؟

قاطعته:

ـ ما يجري لك ليس بعيدًا عنه.

لهذا قرر أن يذهب إليه في مقر نظارته، وليكن ما يكون ...

نزل من التاكسي، وقطع الشارع المؤدي إلى الباب العريض، ودخل إلى البهو، وصعد درجات السلم، دون أن يستوقفه أحد إلى أن وصل إلى مكتبه. طرق الباب ليجد السكرتير في وجهه. لم يعرفه للوهلة الأولى. ولكن حين دقق النظر في وجهه، أدرك أن ملامحه ليست غريبة عنه. ولذا ما إن سأله:

ـ أريد مقابلة معالي ناظر وقف البلد.

جمع السكرتير الصوت والصورة، وعرف الذي يقف أمامه ويحدثه، لكن لم يقاوم فضوله، وسأله:

ـ غريب هذا اللبس يا دكتور، أقادم من رحلة صيد؟ أم من حفلة تنكرية؟

استغرب الدكتور «خيري» أن يكون السكرتير لم يعرف بعد ما نُشر بالجرائد وبثته الفضائيات على مدار الساعات الفائتة، ولكن هذا طمأنه إلى أن الخبر لم ينتشر على نطاق واسع، كما كان يتوقع أو يتوهم. فقال للسكرتير وسط ابتسامة فاترة:

ـ لا هذه ولا تلك، لكن ظرفًا قاهرًا ألبسني هذا، وهو الذي أتي بي إلى هنا، ولابد من مقابلة معاليه.

هز السكرتير رأسه، وطرق الباب المشرع خلفه، وعاد ليقول له:

ـ تفضل.

دخل عليه فوجده متربعًا على أريكة معدة على يسار مكتبه، وأمامه طاولة مستطيلة، عليها طبق مملوء بالمكسرات، يلتقط حباته ويرميها إلى فمه، ويطحنها متلذذًا. فور أن رآه، رفع عينيه، وسأله في فتور:

ـ هل نويت الاختباء هنا؟

ـ لا، لكن جئت لتجيب لي عن سؤال يؤرقني.

ـ سؤال؟! .. اسأل كما تريد.

ـ هل تحدثت مع القصر الكبير بشأني؟ وهل حقًا رفعت التقرير إلى فخامة الجالس على الكرسي الكبير؟

صمت برهة، دون أن يتوقف عن طحن اللوز المحمص والبندق والفستق، وقال:

ـ سأتحدث مع القصر .. وعدتك وسأفعل.

ـ والتقرير؟

ـ قلت لك من قبل إنني أرسلته.

قال هذا وداري عينيه، فأدرك أنه يكذب. فلما عاد إلى الصمت، نظر «خيري محفوظ» في عينيه بتحد، وأعاد السؤال:

ـ هل معاليك متأكد من وصول التقرير إلى القصر الكبير؟

قبض بيمناه على بعض المكسرات التي يأكلها، ومدها إلى الدكتور «خيري»، وقال:

ـ تفضل.

فرفع يده في وجهه رافضًا، وأعاد طرح السؤال. أعاد المكسرات إلى الطبق، وقال له في برود:

ـ في الحقيقة، لم أرفع تقريرك.

ـ لماذا؟

ـ جاءني أمر من القصر بهذا.

ـ أرسلته ورفضوا استلامه؟ أم استلموه ولم يعجبهم؟ أم ماذا؟

ـ وصلتهم أخبار أن ما فيه ليس مفيداً، فأمروني بعدم إرساله؟

ـ لا يعرف ما فيه سوى أنا ومعاليك، فمن أخبرهم؟

ـ جهاز أمن السلطة؟

ـ وهل أرسلته إلى جهاز الأمن؟

ـ كل شيء يمر عليه.

ـ حتى مثل هذا التقرير؟

ـ أي شيء، صغيرًا كان أو كبيرًا، إن ضباطه يعدون على الناس أنفاسهم، خصوصًا أمثالنا .. العارف لا يُعرَّف يا دكتور، وأنت سبق أن كتبت عن تاريخ العسس.

ـ تاريخهم، وليس حاضرهم.

قهقه ناظر وقف البلد وقال:

ـ حاضرهم ماضيهم وماضيهم حاضرهم، إنهم أكثر الأشياء بقاءً في حياتنا، يجمعون المعلومات عن كل الطامحين، ويراقبون كل من يستشعرون خطره، ويدبرون المكائد، ويصلون إلى ما لا نصل إليه.

جال «خيري محفوظ» ببصره في كل ما حوله فرأى كل شيء باهتًا، حتى وجه ناظر وقف البلد، الذي تلقى سؤالًا لم يكن يتوقع تلقيه:

ـ لماذا لم ترفع التقرير إلى الجالس على الكرسي الكبير مباشرة، وقبل أن يصل إلى أيدي ضباط جهاز أمن السلطة؟ ولماذا قلت لي إنك رفعته مع أنك لم تفعل هذا؟

ابتسم ناظر الوقف وقال:

ـ لا أقابل فخامته وقت أن أريد، منذ شهور لم يحدث هذا، فرؤيتي له ليست سهلة كما تتصور، إنه صار معزولًا، خصوصًا عن أمثالي، أراه في المناسبات، ووقتما يريد هو .. وقلت لك إنني رفعته، لأن دوري انتهى حين سلمته إلى رئيس جهاز أمن السلطة.

وأراد أن يختصر النقاش والجدل، فوجه سؤالًا إلى الدكتور «خيري»، عرف منه أن كل شيء قد انتهى:

ـ هل وجدت مكانًا مأمونًا للاختباء؟

تنهد في حرقة لفحت بعض الأوراق المبعثرة على المكتب، وأجاب:

ـ حتى الآن، لا أعرف إلى أين أذهب؟

توقف ناظر وقف البلد عن طحن المكسرات، وأطرق مفكرًا لحظات، ثم قال:

ـ ألم تفكر في الذهاب إلى شيخ الطريقة «العزمية»؟

ـ وبما ينفع شيخ الطريقة رجلًا طريدًا مثلي.

ـ هو أكثر من ينفعك في كربتك تلك.

ـ كيف؟

ـ مريدوه في كل مكان، وإن أمر أحدهم أن يستضيفك في بيته، فلن يرفض له طلبًا، بل سيسعده هذا.

قال هذا، وعاد إلى طحن المكسرات، معجبًا في هذه اللحظة بما أوصله إليه رأسه المدفون في العمامة، من فكرة تجعله يضرب ثلاث عصافير بحجر واحد، ينصب فخًا لشيخ الطريقة، الذي طالما هجاه في جلسات مريديه وفي تصريحاته الصحفية، ويعرف مكان الدكتور «خيري»، فإن احتاجه رئيس جهاز أمن السلطة يتقدم لمساعدته، ويدله عليه، فيزيد من رصيد رضاه، ويمسك بعنق «خيري» نفسه بدعوى أنه قد قدم له معروفًا، فإن تبدلت الأمور، في هذا البلد الذي لا يستقر على حال، ينتظر الرد الجميل.

قلَّب «خيري محفوظ» عينيه في المكتب الوسيع، ولأول مرة يشعر بهذه الرهبة في مكان تآلف معه. بانت على ملامحه الحيرة والتردد، فقال له ناظر الوقف:

ـ لا تضيع هذه الفرصة، إنها فرصتك الأخيرة، بوسعي الآن أن أغير رأيي، وأحجزك حتى تأتي الشرطة وتقبض عليك .. اذهب فالوقت ليس في صالحك، ومقر الطريقة «العزمية» قريب من هنا، وأنت تعرفه جيدًا.

نظر إليه د. خيري، وقال بحروف غارقة في الحزن:

ـ بالطبع أعرفه، فمنه بدأت مأساتي.

وقبل أن ينصرف نظر مليا إلى عيني ناظر الوقف وسأله:

ـ إذا كنت تخشى جهاز أمن السلطة إلى هذا الحد، فكيف تجرؤ على مساعدتي؟

ابتسم في فتور، وقال:

ـ يعلم الله أنني حين رشحتك لهذه المهمة كنت أريد لك الخير، ولكن جرت الأمور على غير ما أردته، وأجبروني على التخلي عنك، وأشعر الآن حيالك بالذنب، بعدما رأيتك على حالك هذه، ولذا أريد أن أقدم لك أي شيء.

أعاد النظر طويلا في عينيه، وسأله:

ـ ألن تبلغ الأمن عن المكان الذي تنصحني بالذهاب إليه الآن؟

وقف في مكانه، وهو يشير إلى الباب:

ـ لا تضيع وقتك، لو كنت أنوي فعل هذا، لطلبت حرس النظارة، فأغلقوا عليك الأبواب، حتى يأتي من يقبض عليك.

تنهد في حرقة، ودفع قدميه نحو الباب، وتركه خلفه مفتوحًا، فكان بوسع ناظر الوقف أن يتابع غيابه في الردهة الطويلة إلى أن أخفته السلالم، التي سلمته إلى شارع غارق في نور الظهيرة، يغص بالعائدين من أعمالهم إلى بيوتهم، والمتسوقين، والمتسكعين في شوارع وسط البلد وأزقته.

ما إن انعطف يمينًا ليستقل سيارة أجرة عقب الإشارة الحمراء، التي تراصت خلفها السيارات، حتى شعر بشخص يتعقبه ويراقبه. يمشي خلفه بخطوات نشطة، وعيناه لا تتزحزحان عنه. غير رأيه، وهرول في اتجاه ميدان «الفلكي» حتى وصل إلى مول «البستان»،

فدخله سريعًا، وذاب في الزحام، ثم خرج من الناحية الأخرى، وهرع إلى شارع جانبي إلى اليسار، وحافظ على خطواته النشطة حتى دخل شارع «الشيخ ريحان»، وسار فيه إلى أن لمح مقهى «مسك»، فدخله وصعد إلى طابقه العلوي الضيق، وطلب شايًا ثقيلًا. راح يرتشفه بسرعة غير عابئ باللسعات المتلاحقة التي تضرب لسانه، وهو يرسل نظرات عجلى إلى ما تبين له من الشارع حتى اطمأن إلى أنه قد غاب عن عينيَّ الرجل الذي يتعقبه، فهبط وقطع شارع «منصور»، في اتجاه ميدان «لاظوغلي»، ومنه إلى شارع «مجلس الأمة» حتى وصل إلى مقر آل العزائم. دخل المسجد، ودار حول ضريح الشيخ الكبير، ثم خرج من الباب الجانبي، ودخل إلى الممر الضيق المؤدي إلى بيت شيخ الطريقة. صعد إليه، وقال له:

ـ عاهدت الشيخ الكبير على أن أمضي في طريقه.

رفع إليه عينين مملوءتين بالمحبة، وقال:

ـ أهلا بك.

كان قد فكر وهو في طريقه إلى مقر الطريقة في أقرب سبيل إلى قلب الشيخ، فقال له:

ـ أريد أن أكون من مريديك.

ابتسم وقال له:

ـ أهلًا بك بين الأحباب.

أطال الدكتور «خيري محفوظ» النظر إلى رفوف الكتب، التي تتراص خلف مكتب الشيخ، ثم عاد وقال له:

ـ وددت لو أعاهدك الآن، وألوذ بحماك.

ملأ الشيخ عينيه منه، وسأله:

ـ ما عملك؟

ـ أستاذ جامعي .. أُدرِّس مادة التاريخ.

ـ ستتعاهد، وبين أحبابك من تفخر بهم.

ـ ملأني الفخر فعلًا وأنا أقرأ عن الشيخ الكبير.

ـ ماذا قرأت له؟

ـ سيرة كتبت عنه، وبعض كتبه.

هز الشيخ رأسه وسأله:

ـ هل قرأت «دستور فقراء آل العزائم"؟

ـ لا.

مد يده إلى درج مكتبه وأخرج كتيبًا، وفتح على صفحتين متقابلتين، وقدمه إليه وقال:

ـ اقرأ هذه الكلمات، فإن راقت لك تكون معنا، بإذن الله تعالى.

وقرأ الدكتور «خيري محفوظ» بصوت مسموع: «الفقير جوال الفكر، جوهري الذكر، جميل المنازعة، قريب المراجعة، لا يطلب

من الحق إلا الحق، ولا يتمذهب إلا بالصدق، وهو أوسع الناس صدرًا، وأذل الناس نفسًا، ضحكه تبسم، واستفهامه تعلم، مذكر للغافل، معلم للجاهل، لا يؤذي من يؤذيه، ولا يخوض فيما لا يعنيه، كثير العطاء، قليل الأذى، ورع من المحرمات، متوقف عن الشبهات، غوث للغريب، أب لليتيم، قلبه مشغول بفكره، مسرور بفقره، لا يكشف سرًّا، ولا يهتك سترًا، حليم إذا جهل عليه، صبور على من أساء إليه، حركاته أدب، وكلامه عجب، وقور، صبور، رضي، شكور، قليل الكلام، كثير الصلاة والصيام، له لسان مخزون، وقلب محزون، وقول موزون، وفكر يجول فيما كان وما يكون".

سحره الكلام فنسي أحزانه مؤقتًا، لكنها عادت وهاجمته بضراوة، فأراد أن يبوح للشيخ بما يريده منه، وقال في نفسه: «الصراحة راحة»، لكن الشيخ ربت كتفه، وقال له:

ـ أكمل يا دكتور، فإن أعجبتك البقية، وعاهدتني على أن تعمل بما عرفت، تكون منا.

رد عليه:

ـ ما قرأته يكفي يا شيخنا.

ما قرأته هو الديباجة وعليك أن تواصل قراءة البنود، فكل هذا هو مفتاح الوصول إلينا، والبقاء معنا.

أعاد الدكتور «خيري» عينيه إلى السطور، وواصل القراءة:

«يتعين على فقراء هذا الطريق أن يكون كل رجل منهم متعلمًا ممن فوقه في العلم، ومعلما لغيره. إن من فهم مسألة من العلم صار عالمًا بها. والمتعين على كل رجل أن يبدأ بنفسه حتى تسلم تسليمًا حقًّا لله تعالى في حكمه الشرعي، وحكمه القدري، وأن يدعو والديه وأهله وأولاده بالحكمة والموعظة الحسنة، فإن ذلك واجب عليه، كما يجب عليه السعي في معاشهم، وأن يدعو جيرانه وعشراءه إلى الحق بالحكمة واللين. والدعوة بالعمل فوق الدعوة بالقول. ويجب أن يحرص على صحة الإخوان الروحانية بالتواضع، وحفظ غيبتهم، وستر عوراتهم، وإيثارهم على نفسه؛ حتى يكون جسد فقراء آل العزائم صحيحًا سالمًا من الأمراض. ويجب على كل طالب لله في طريقنا أن ينافس في تحصيل العلم في أعمال يعملها في خلوته من صلاة بالليل، وصيام وتلاوة للقرآن، وصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم. ويتعين على آل العزائم من الأفراد أن يكون لكل فرد منهم سياحة روحانية. وليعلم كل راغب في رضوان الله، ومبتغ فضله ورضوانه أن كل علامة لقبول الله تعالى وإقباله سبحانه: هي ما يجمل الله به المريد من الأخلاق الروحانية، والأعمال السنية، والصفات الملكوتية، حتى يكون المريد صورة كاملة للمرشد الدال على الله تعالى".

ودخل شاب قصير القامة، ووقف عند الباب الموارب، وهز رأسه، فقال شيخ الطريقة للدكتور «خيري محفوظ»:

ـ الغداء جاهز، ولنأكل معًا، حتى يصبح عيشًا وملحًا.

كانت أحزانه قد جعلته في صد عن أي طعام، لكنه قام مع الشيخ، وصعدا إلى طابق علوي؛ ليجدا مائدة في انتظارهما، يجلس عليها رجلان متقابلان، جلس الدكتور «خيري» إلى جانب أحدهما، بينما جلس الشيخ في صدر المائدة، ثم شَمَّر كُمَّ جلبابه، وقال للدكتور، وهو يشير إليهما:

ـ «ماهر السعدي» عاهدنا وأخذته الدنيا فنسينا، لكن عودته مضمونة، و«عليوة المنياوي» يقترب ويبتعد، لكنه سيأتي في يوم من الأيام.

رفع الدكتور «خيري» عينيه وملأهما من وجه «عليوة» وسأله:

ـ هل أنت نسيب الأستاذ «مرتضى"؟

نظر إلى الشيخ وإلى «ماهر» ثم سأل الدكتور:

ـ هل أنت من «المنيا"؟

ـ لا، لكن نزلت ضيفًا على نسيبك، وعشت في بيته أيامًا، وكنت أعرفه منذ زمن طويل، وقت أن كنت طالبًا في جامعة «المنيا".

قطع الشيخ لقمة من رغيف وغمسها في طبق الفاصوليا، فأذن بهذا لهم بالبدء في الأكل، وقال للدكتور:

ـ طالما عرفت «مرتضى» فقد عرفت الكثير عنا.

ـ لهذه الدرجة يا مولانا.

ـ نعم، إنه من أخلص مريدي الطريقة، وأعلمهم.

وتدخل «ماهر السعدي»، الذي لم تنقطع نظراته المريبة إلى «خيري محفوظ»، وسأل الشيخ:

ـ لم تعرفنا على ضيفك يا مولانا.

ـ الدكتور .. الدكتور ..

ثم ابتسم وقال:

ـ دخل قلبي منذ رأيته، فلم أجد نفسي بحاجة إلى أن أسأله عن اسمه.

وأجابه هو:

ـ أنا الدكتور «خيري محفوظ».

وقف «عليوة» من فرط المفاجأة، وسأله:

ـ هل أنت الذي ..

قاطعه «خيري محفوظ»:

ـ نعم أنا الذي تخوض الصحف والفضائيات الآن بالباطل في سيرته، وتلوث سمعته.

نظر «ماهر» إلى هيئته، وقال:

ـ الدنيا أضيق من خرم إبرة، قبل ساعة كنا نتحدث عنك على المقهى، ولم يرد على بالنا أبدًا أن نقابلك بهذه السرعة.

وسأله «ماهر السعدي»:

ـ كيف تتحرك في شوارع «القاهرة» بلا حذر يا دكتور؟

نظر إلى وجه الشيخ الذي كان قد توقف عن مضغ الطعام مستغربًا ما يسمعه، وأجاب:

ـ تساورني شكوك بأنهم غير جادين في القبض عليَّ الآن.

تدخل «عليوة» قائلًا:

ـ أظن أن الأمر كذلك، قد يكتفون بتشويه صورتك، وينتهي الأمر.

ونظر شيخ الطريقة إلى «خيري محفوظ»، وسأله:

ـ ما الحكاية يا دكتور؟

فحكى له كل شيء، من الألف إلى الياء، فلما انتهى سأله:

ـ هل معك نسخة من هذا التقرير؟

ـ لا، طبعت نسختين فقط وسلمتهما إلى ناظر وقف البلد.

قهقه «ماهر» وقال:

ـ نسختان! أنت طيب يا دكتور، التقرير منشور كاملًا «بي دي إف» على الإنترنت.

وقفت اللقمة في زور الدكتور، وصرخ:

ـ منشور على الإنترنت؟! .. طبّقت فوق رأسي.

وقال «عليوة»:

ـ أعتقد أن جهاز أمن السلطة سرَّب التقرير.

هز الشيخ رأسه مستبعدًا هذا، وقال:

ـ لا .. لا، لا مصلحة للأمن في نشر تقرير سري مثل هذا.

تنهد الدكتور «خيري» بحرقة، وتساءل:

ـ من وراء هذا؟

وأجابه «ماهر»:

ـ ربما أحد في نظارة وقف البلد.

وتدخل الشيخ سائلًا:

ـ هل أرسلت التقرير إلى البريد الإلكتروني لناظر الوقف؟

ـ لا، سلَّمت له نسختين مطبوعتين.

ـ أين طبعتهما؟

ضرب «خيري محفوظ» جبهته براحة يده، وقال:

ـ ياااااااه، الآن فهمت، وربما لهذا تتم معاقبتي... لا. لا، المسألة ليست كذلك، عقابي لسبب أخطر من هذا بكثير.

سأله الشيخ:

ـ ماذا فهمت؟

ـ كتبت التقرير في مكتب طباعة، وغضب ناظر وقف البلد من فعلتي تلك، وتخوف من تسريب التقرير.

وقال «ماهر»:

ـ التقرير لم يتسرب إلي الإنترنت سوى قبل ساعات، بعدما نشرت الصحف وبثت الفضائيات حكايتك.

وسأل «خيري» في حيرة:

ـ وما مصلحة مكتب الطباعة في تسريبه؟

أجاب «عليوة»:

ـ وقع التقرير في يد أي شاب من العاملين في المكتب، فلما ثارت الضجة حولك، وضعه على مدونته، أو صفحته على «فيس بوك»، أو «تويتر» ليجذب إليها المتابعين، ومنها انتشر في المنتديات الإلكترونية، وصار الآن قصة مشوقة في كثير من المواقع الإخبارية، وقد يكون من سرَّبه ينتمي إلى شباب الثورة، وأراد أن يستغل تقريرك في توجيه ضربة إلى الجالس على الكرسي الكبير.

تدخل شيخ الطريقة:

ـ لا أعتقد أن الأمر كذلك، فكل الصفحات صارت تحت المراقبة، وأغلب الشباب سرى في نفوسهم الخوف، وليس بوسع أحدهم أن

يجرؤ على هذه الفعلة، وكثير من المدونين و«أدمن» صفحات «فيس بوك» صاروا في السجون.

رمى «ماهر» ملعقة أرز في فمه، وسأل الشيخ:

ـ من فعلها إذًا؟

صمت الشيخ قليلًا، وأرسل ناظريه إلى البعيد، وقال:

ـ هناك أجنحة متصارعة داخل السلطة، خصوصًا في الدائرة الضيقة حول الجالس على الكرسي الكبير، وكذلك في جهاز الأمن، ويبدو أن أحدها سرَّب التقرير.

زفر «خيري محفوظ» في ألم، وقال:

ـ وأنا ضحية هذه الصراعات.

ابتسم شيخ الطريقة وقال:

ـ كلنا ضحايا الطامعين في الكراسي والمال.

ومد «عليوة» بصره مليًا نحو آية الكرسي المعلقة على الجدار، شاردًا فيها، ثم عاد ليقول:

ـ أعتقد أن هناك خلفيات أخرى.

وسأله الشيخ:

ـ أي خلفيات يا فالح؟

اضطجَعَ إلى الخلف كثيرًا كعادته حين يشعر أنه قد أتى بما لم يأت به أحد، وأجاب:

ـ الصحف تتحدث عن وثائق أخرى ضائعة، غير تلك المتعلقة بالإمام «أبو العزائم» وأيامه، لم تسمها، لكن موقعًا إلكترونيًا يبث من خارج مصر يقول إنها وثائق، تخص حدود الدولة من أيام محمد علي الكبير.

ضرب شيخ الطريقة بيده على المنضدة وصرخ:

ـ أتقصد وثائق تخص ما يدور حاليًا عن رغبة الجالس على الكرسي الكبير في التنازل عن جزء من أرض البلاد؟

ـ الخبر يقول هذا، لكنه كلام في كلام، والحقيقة علمها عند ربي.

كان «خيري» يشعر أن الوقت يضيق به، وأنه لم يفاتح الشيخ حتى هذه اللحظة في أمر إخفائه عن عيون من يتعقبونه من أجل القبض عليه، وأراد أن يذيب أي حذر بينه وبين الشيخ، فجال ببصره حوله، وقال بصوت متهدج:

ـ في هذا المكان الذي حل محل سراي الحنفي كانت توجد مطبعة «المدينة المنورة» التي وضعها الشيخ الأكبر تحت تصرف «سعد زغلول» ورجاله، لتطبع فيها منشورات سرية، وقد أطلق عليها الثوار مطابع «اليد السوداء» .. أهل السلطة أول من يتنكر لمن ناضلوا، بل إنهم يخافون منهم، وهذا جزء مما يجري معك.

مصمص شيخ الطريقة شفتيه وقال:

ـ في هذا المكان أُعتقل الشيخ الكبير وابنه، بعد منشور قوي ضد الاحتلال الإنجليزي، ولكن كل هذا نسيته السلطة والناس الذين يظنون أننا مجموعة من الدراويش البلهاء.

اقترب «خيري محفوظ» مما يريده أكثر فقال:

ـ معاذ الله أن تكونوا كما يظنون، طول عمر العزميين لهم في النضال باع طويل، شاركوا في حرب فلسطين عام 1948، ومواقفهم الأخيرة خير شاهد على أن نضالهم لم ينقطع.

أراد الشيخ أن يخفف من طمع «خيري» الذي يغلفه بمجاملة وحماس، فقال:

ـ لم نكن سوى قطرة في بحر المصريين المنتفضين ضد الظلم والفساد في ثورة يناير.

لكن الدكتور «خيري» أعاد الأمر إلى ما يريد، فمال نحو شيخ الطريقة، وقال:

ـ لا أحد ينسى دورك، وسعيك لتأسيس حزب سياسي في وجه تجار الدين والمتشددين.

هنا تدخل «ماهر» وقال:

ـ بيننا من لا تروق لهم هذه الخطوة، ويرون أن دورنا هو تربية الروح ورعاية الأخلاق، فهذا ما ينقصنا.

نظر شيخ الطريقة إليه، وابتسم ثم قال:

ـ كأني لا أعرفك.

وقهقه «عليوة»، وقطع الشيخ ضحكاته، وتوجه إلى «خيري محفوظ» وقال:

ـ لم نفعل سوى الواجب.

لاحت الفرصة من جديد أمام «خيري»:

ـ طول عمرك صاحب واجب يا مولانا.

وواصل «خيري» بعد صمت قصير، لم تجرحه سوى صوت الملاعق، وهي تصطدم بأطباق الزجاج والميلامين:

ـ وواجبك يحتم عليك الآن أن تحميني.

توقف الشيخ عن مضغ لقمة كانت في فمه، وأرسل نظرات إلى «ماهر» و«عليوة»، ثم سأله:

ـ كيف أحميك؟

ـ كما حمى جدك من لاذوا به.

ـ هذا البيت أول مكان سيبحثون عنك فيه.

ـ ليس بيتك طبعًا، لكن مريديك في كل مكان، ولن يعصوا لك أمرًا.

نظر مرة أخرى إلى عيني «ماهر» و«عليوة»، وقال:

ـ لا يمكن أن أقرر شيئًا إلا بعد قراءة تقريرك.

وقال «عليوة» ساخراً:

ـ التقرير الذي ظن جهاز أمن السلطة أنه وحده، الذي سيطلع عليه صار متاحًا لجميع الناس.

مد الشيخ عينيه إلى عيني «خيري محفوظ» وسأله:

ـ هل لجهاز الأمن علاقة بتقريرك؟

ـ للأسف، نعم.

لوى الشيخ شفتيه وقال:

ـ هذا يزيد وضعك حرجًا، ويجعل قدرتي على تلبية طلبك محدودة.

ـ لماذا يا مولانا؟

ـ هذا الجهاز يعاديني فوق ما تتصور .. وقف ضدي فحرمني، وأنا الأحق، من أن أصبح شيخ مشايخ الطرق الصوفية، اتصل ضابط كبير فيه بشيوخ الطرق، الذين من حقهم قانونًا انتخابي، وضعط عليهم بكل الأساليب، فأجبرهم على التخلي عني. ولم يكتف بهذا، بل راح يروج شائعات، تزعم أن الطريقة «العزمية» باب لنشر التشيع في البلاد.

قال «خيري» وهو يحاول أن يخفي انزعاجه مما يسمعه:

ـ للأسف سمعت هذه الأقاويل من ناظر وقف البلد.

ـ هو يعرف الحقيقة، لكنه يجاري أسياده في جهاز أمن السلطة .. يعرف أن جدي وشيخنا الكبير كان ضد التعصب المذهبي، وكان يراه مقتلًا للأمة بأسرها، وها هي أيامنا تثبت أن نظرته كانت ثاقبة، وسابقة لأوانها.

ـ حدثني ناظر الوقف عن زيارات فضيلتك المتكررة إلى إيران.

ضحك الشيخ:

ـ لا أحد بوسعه أن يمنعني من الذهاب إلى أي مكان .. أنا أتواصل مع جهاز أمن السلطة قبل كل رحلة إلى إيران، وبعد عودتي، ليعرفوا أنني كتاب مفتوح، وليس لديّ ما أخفيه، ولم يمنعوني ولا مرة واحدة.

وصمت برهة، وواصل:

ـ ضباط الجهاز بارعون في إطلاق الشائعات ضدي؛ لأنني لست خاضعًا لهم كالآخرين، ونقدي الدائم لسلوكهم يغضبهم مني، حتى إنهم يستغلون زياراتي لأوروبا وأمريكا في إطلاق شائعات جديدة، هذه المرة يلمحون بتخاريف عن العمالة والخيانة، وكل هذه الكلمات البائسة، التي شاعت في أيامنا تلك بلا دليل، لإجبار كل صاحب لسان مختلف على الصمت.

وبينما كان الشيخ يتحدث، كان «ماهر» يضغط على أزرة هاتفه المحمول، ويدفن عينيه في شاشته، ثم قال فجأة:

ـ هنا نسخة من التقرير يا مولانا، تستطيع أن تقرأها الآن.

ابتسم الشيخ وقال:

ـ يصعب عليَّ هذا، لابد من نسخة ورقية.

وقال «عليوة»:

ـ نطبعه في أي من مكاتب الطباعة بشارع «خيرت".

هز الشيخ رأسه وأمره:

ـ اذهب أنت، وحاذر.

قام «عليوة» وهو يقلب في هاتفه، وقال:

ـ سأضع نسخة من التقرير على بريدي الإلكتروني، حتى نكسب وقتًا.

وعندها قال «ماهر» للشيخ:

ـ نتركك لستريح قليلًا يا مولانا حتى يعود «عليوة» وتقرأ التقرير.. أنا سأصطحب الدكتور إلى قاعة الاستقبال العلوية، وسننتظر ما تطلبه.

زحزح شيخ الطريقة كرسيه قليلًا ليقوم عن المائدة، وقال:

ـ أغلقها عليكما من الداخل، ولا تفتح لأحد أيًا كان.

4

وجد «خيري محفوظ» نفسه يهرع إلى المقعد الأخير في القاعة، لينزوي في الركن، مرسلًا بصرًا زائغًا إلى كل شيء حوله، بينما أحكم «ماهر» غلق الباب، وأسرع الخطى حتى جلس إلى جواره. راح يتطلع في هيئته الغريبة، وقال:

ـ أنا قرأت التقرير، فرغبتي في الوصول إلى الكنز تفوق رغبة الجالس على الكرسي الكبير.

بلع «خيري» ريقه، ولاذ بالصمت، لكن «ماهر» لاحقه:

ـ هل عرفت شيئًا وأخفيته؟

نظر إليه بعينين كسيرتين، وأجابه:

ـ لو كنت قرأت جيدًا ما سألتني.

ـ قرأت، لكن شكوكي زادت أكثر.

ـ أي شكوك؟ .. لا تزد همومي، ما بي يكفيني.

ـ إن كنت تتحدث عن القضية فبراءتك مضمونة في النهاية.

ـ أية براءة؟! .. يعادي القصر الكبير وجهاز أمن السلطة، وتتحدث عن براءة، يبدو أنك لا تعيش معنا في هذا البلد.

ـ وهل الجالس على الكرسي الكبير، ورئيس جهاز أمن السلطة، وناظر وقف البلد، سيبقون في مناصبهم إلى الأبد؟

ـ عاوز أضحك، لكن الضحك محجوز.

تاه «ماهر» قليلًا ثم عاد ليقول:

ـ رغم أن الإشارة التي جاءتني من رجل ظهر لي واختفي يطلب مني أن أبحث عن الكنز في صدري، فإن هذا لم ينطل عليَّ، وإن كنت قد أخذت به أيامًا؛ خاصة بعد أن كشفت لي أنت عن ساحر مغربي. من المؤكد أنه هو الذي استعاد روح «المهيلمي» لتضللني.

لم يفهم الدكتور «خيري» شيئًا مما سمعه، وبدا غير معني به، وواصل «ماهر»:

ـ لست وحدك ضحية كنز الشيخ الكبير يا دكتور ... أنا و«عليوة» سبقناك إلى التضحية.

ـ أنتما؟

ـ نعم، فقد حاولنا أن نعرف مكانه، واستدعانا جهاز أمن السلطة، فقضينا ساعات عصيبة، جعلتنا نعدل عن طريقنا.

ـ البعد عن ذوي السلطان غنيمة.

ـ لكن العثور على كنز غنائم.

ـ أي كنز؟! هل تصدق هذه الخرافات؟

ـ ليست خرافات، إنها حقيقة، لم يذهب التفكير فيها عن رأسي رغم التهديد والوعيد.

ضحك الدكتور «خيري» بقدر المرارة الناشبة في حلقه، وقال:

ـ يبدو أن الجنون قد نزل من القصر الكبير، وسرى في كل البلاد.

ـ ألا تعرف أن الناس في كل مكان مشغولون بمعجزة، تخرجهم من ذل الفقر؟

ـ الانشغال بالمستحيل يزيد الفقر ولا يبدده.

ـ كنز الشيخ الكبير واقع وليس مستحيلًا.

ـ أي واقع؟ لقد طفت البلاد من أجل إشارة أو أمارة أو عبارة تدل عليه دون جدوى.

ـ الطريق التي سرت فيها ليست هي الطريق.

ـ وهل هناك طريق أخرى ؟

ـ السحرة بوسعهم أن يصلوا أسرع.

ـ وهل تعتقد أنهم بعيدون عما تفكر فيه؟

ـ أتقصد ..؟

ـ نعم، الجالس على الكرسي الكبير يستعين بساحر مغربي عتيد، وهو من طلب السعي وراء الأمارات والإشارات، فبدأت مهمتي التعيسة في بلاد الناس.

صمت «ماهر» وراح يُقلِّب عينيه في المكان، ثم عاد ووضعهما في عينيَّ الدكتور «خيري»، وتزحزح حتى التصق به، وهمس في أذنه:

ـ نتغدى بهم قبل أن يتعشوا بنا .. وفي البلاد سحرة ومنجمون ومؤاخو جان، سنصل إليهم ويساعدوننا.

ـ ابعدني أنا عن هذا الموضوع الفارغ.

ـ صرت في قلبه، وتتحدث الآن عن الابتعاد.

ـ وهل كان بوسعي أن أرفض تكليف القصر الكبير، حتى ولو بطريقة غير مباشرة؟

ـ لا، لكن يمكنك الآن بعد ما غدروا بك أن تعمل لصالحك، وتُحوِّل خسارتك إلى مكسب.

ـ أنا غارق في الخسارة، وانتهى الأمر.

طوح «ماهر» يده في الهواء، ونظر إلى «خيري» نظرة شاملة، وقال:

ـ ظني أنك مجرد غطاء للعبة كبيرة، تخص وثائق عن حدود البلد أخفوها، ولن يكونوا جادين في مطاردتك .. لا أعتقد أنهم

سيسلمون أرضًا في النهاية لأحد، لكنهم يكسبون وقتًا، لحاجة في نفس يعقوب.

- وربما يحدث العكس .. وحتى لو كان الأمر كما تقول، فأنا خسرت وظيفتي، ووجودي مع أسرتي، والمنصب الكبير الذي منيت نفسي به، وقبل هذا سمعتي.

- حين نجد الكنز ستنسى كل هذا، وحتى لو قبضوا عليك بعدها، سيكون بوسعك أن توكل أكبر محام في البلد، ويخرجك من تهمتك كما تخرج الشعرة من العجين.

نظر «خيري محفوظ» طويلًا في عينيّ «ماهر"؛ ليستوثق من جديته فيما يقوله، ولكنه لم يتمالك نفسه، وقال له في غضب:

- أنت بعت عقلك .. تتحدث وكأن الأمر حقيقة لا تقبل الجدل.

- أنا أعقل مما تتصور، وأنا و«عليوة» نعرف أن ما نبحث عنه حقيقة .. حاولنا فمنعونا، ولو تركونا لكنا قد وصلنا إلى الكنز.

- حتى لو كان حقيقة، فعيونهم على المكان، ولن تتاح لكم الفرصة، وتهديد الأمن لكم لا يزال على حاله.

ابتسم «ماهر» في خبث وقال:

- أخافونا وتركونا، لا أعتقد أن أحدًا يراقبنا، اختبرنا هذا على مدار الأيام الفائتة، وتأكدنا .. بعد تقريرك سييأسون، وينصرفون عن

الموضوع كله، وساعتها سنبدأ نحن من جديد .. رتبنا لك كل شيء، فلا تخف، نحن معًا إلى النهاية.

- نحن؟!

- أنت وأنا و«عليوة» .. طريقنا واحدة.

أدار «خيري محفوظ» ما يسمعه في رأسه عميقًا، ولاحت له فكرة، لم يكن أمامه من سبيل سوى استغلالها على قدر استطاعته، فطمع «ماهر» و«عليوة» في الكنز المزعوم سيجعلهما حريصين على مساعدته في الاختباء، سواء وافق شيخ الطريقة على هذا أم رفض؛ لذا قال له، وهو يشد على يده:

- بدأت أقتنع بكلامك.

تهللت أسارير «ماهر»، وقال، بعد أن التصق أكثر بالدكتور «خيري»:

- أعتقد أن هناك أشياءً تعرفها ولم تذكرها في تقريرك.

صمت الدكتور برهة ثم أجابه:

- ربما...

- ونحن لا نريد منك سوى ما تحت ربما هذه.

ثم واصل:

- كان ظني أنا و«عليوة» في محله.

- يبدو أنكما لا تجيدان سوى الظن.

- حين بدأت الصحف في نشر قضيتك، قلنا إن السبب الحقيقي لخلافك معهم، هو أنك أردت أت تلعب لصالحك.

- ألعب! .. ولصالحي!

- أنت تأكدت من وجود الكنز، وعرفت مكانه، وأردت أن تبعد عيون الجالس على الكرسي الكبير عنه، ولما يصرف النظر، تبدأ مهمتك الحقيقية .. هكذا تصورنا.

لم يعلق «خيري» فواصل «ماهر»:

- لا يمكن أن تكون قد عدت من السودان بلا شيء، ففي الأماكن التي زرتها سحرة بارعون، وفي تقريرك إشارات خفية إلى ذلك.

- واضح أنك نبيه.

- أشكرك.

سمعا طرقات خفيفة على الباب، فامتقع لون الدكتور «خيري»، بينما قام «ماهر» متحسبًا، ومشى على أطراف أصابعه، متقدمًا نحو الباب، فسمع نداء خفيفًا:

- أنا «عليوة»، افتح.

قال فور دخوله:

- شيخ الطريقة يقرأ التقرير الآن، وننتظر القرار.

لكن «ماهر» تدخل:

- مهما كأن رأيه، فالحفاظ على الدكتور «خيري» مهمتنا من الآن.

- مهمتنا؟!

قالها وهو يضرب جبهته بيده، ونَقَّل عينيه بين الدكتور و«ماهر» الذي قال له:

- أعرف أنك أجرأ مني.

- سقطت مني جرأتي، وأنا خارج من مبني جهاز أمن السلطة أرتعش، وسروالي مبلل.

- لهذه الدرجة؟

- وكأنك أنت لم يجر لك هذا.

- جرى، لكن ولعي بالكنز أنساني كل شيء، وأعتقد أنك أكثر ولعًا به مني .. أنسيت أنك أنت الذي كنت تشجعني؟

- لم أنس، لكن الأمور تزداد تعقيدًا وخطورةً؛ خاصة بالنسبة لي.

- أنت تقول لي دومًا عش في خطر، والشيخ قرَّعك على هذا مرات ومرات، وقال لك يجب أن تنصح الناس بأن يعيشوا في سلام وسكينة ومحبة.

- وما المطلوب مني؟

ـ لو كنت قرأت التقرير بعناية مثلي لعرفت ما أقصد؟

ـ قل لي أنت يا فالح.

ـ أكثر من أحبهم الدكتور «خيري» من كل الذين قابلهم في رحلته، هو نسيبك العزيز.

ـ أتقصد الأستاذ «مرتضى»؟

سرى ارتياح في نفس الدكتور «خيري» حين سمع الاسم، وقال:

ـ أنت فعلًا «عليوة» الذي حدثني عنك نسيبك الطيب، وقال إنك مشغول بخبيئة الشيخ الكبير.

ـ نعم .. أنا من لم ترحمه في تقريرك، فذكرت اسمه لتُذكر جهاز أمن السلطة بي.

ـ لم أكن أقصد، أردت أن أكون أمينًا في نقل كل شيء، كما سمعت ورأيت.

ـ آخر خدمة الغُزّ علقة.

ـ لست نادمًا على شيء.

تدخل «ماهر»:

ـ الله .. الله يا دكتور، لكنك ستندم كثيرًا إن لم تكن معنا على الطريق.

ـ خلاص، أنا معكما، وليكن ما يكون.

وأشار «ماهر» إلى «عليوة» فانتحيا جانبًا، وتهامسا، ثم عادا إلى الدكتور، فقال الثاني:

ـ لا يوجد مكان آمن لك، غير بيت نسيبي «مرتضى».

ابتهج «خيري محفوظ» لما سمعه، وقال:

ـ هو أكثر الأماكن التي ارتحت لها في رحلتي الطويلة.

وساد صمت بينهم، قطعه الدكتور:

ـ لكن، الأمر الآن تغير، في المرة الأولى ذهبت إليها بوصفي صاحبًا قديمًا وأستاذًا جامعيًا، يؤلف كتابًا عن الشيخ الكبير.

رد «عليوة»:

ـ لن يتغير وضعك ولا صفتك، فصهري العزيز آخر من سيعرف أنك مطارد، هو لا يقرأ الصحف، ولا يشاهد التلفزيون، ويعيش في عالم خاص، من المؤكد أن لك مكانًا فيه.

ـ هل من المعقول أن هناك في هذا البلد من لم تصل فضيحتي إليه؟

ـ كثيرون، بدليل أنك جئت من بيتك إلى هنا، دون أن يعرفك أحد. أغلب الناس انصرفوا عن قراءة الصحف، ومتابعة البرامج السياسية في التلفزيون .. لقد نجحوا في تشويه كل شيء، وكل من يقول للقصر

الكبير: لا، هم ممن يطبلون ويزمرون للجالس على الكرسي الكبير؛ فقد مَلَّ الناس منهم، ويتمنون اختفاءهم اليوم قبل الغد.

واتفقا على أن يتصل «عليوة» بصهره، ويبلغه أن الدكتور «خيري» سيقضي برفقته وقتًا طويلًا، لأنه يريد أن يستفيد من مكتبته، والعزلة ببيته، في إكمال كتابه عن الشيخ «أبو العزائم»، ويأتنس به ويستفيد من النقاش معه في الوقت نفسه.

ونظر «ماهر» إلى «عليوة» وقال له:

ـ لا تتصل من تليفونك، أعتقد أنهم يراقبوننا.

فخرج يبحث عن هاتف وخرج «ماهر» خلفه، وتركا «خيري محفوظ» مع خوفه وترقبه. راح ينظر إلى الجدار، ثم أغمض عينيه، متمنيًا أن يفتحهما ليجد نفسه في مكان آخر، بعيدًا عن أعين كل الناس. لكنه حين فتحهما وجد أمامه رجلًا يتقدم على مهل، متوكئًا على عصا طويلة مستوية، وابتسامة عذبة ترفرف على شفتيه.

نظر «خيري» بسرعة إلى الباب فوجده مغلقًا، ولم يسمع صوت اصطكاكه، حتى يكون هذا الرجل، الذي يمشي نحوه بخطى وئيدة، قد دخل منه وأغلقه خلفه.

من أين أتى إذًا؟ .. سأل نفسه، وأخذ الخوف يزيد حتى سمع صوت ارتجاف قلبه، وارتعاش أطرافه. وزاغ بصره، وهمَّ أن يقف ليواجه الرجل، لكنه أشار إليه بيده أن يواصل الجلوس، فالتصق

بالمقعد أكثر، رافعًا عينيه باندهاش إلى اليد، التي امتدت إلى رأسه حتى حطت عليه، فتبدل خوفه إلى طمأنينة، وشعر بالسكينة تسري في أوصاله، وهو يسمع صوت الرجل:

ـ لا تخف.

ملأ عينيه من وجهه الوضيء، وقال له:

ـ ذهب عني خوفي يا عم.

ابتسم وقال له:

ـ ليس عليك من الآن سوى أن تعود إلى حيث بدأت، ثم تدير ظهرك للخطوات التي مشيتها، وتمضي على الطريق نفسها في الاتجاد المضاد، لتصل إلى ما تريد أنت، لا ما يريدونه هم.

حاول الدكتور «خيري محفوظ» أن يجمع الكلمات التي سمعها ليدرك مراميها، وبدا ذهنه مشتتًا، وهو غارق في الحيرة، لكن الرجل لم يدع حيرته تطول، حين مد يده إلى صدر «خيري» ووضعها فوقه، وقال له:

ـ احفر هنا.

سأله مندهشًا ومستريبًا:

ـ عمَّ أحفر؟

ـ ما يحمل الاسم الحقيقي لما تبحث عنه. هم يريدون العرض الزائل، فلتجد ما لا يعرفونه، وأنت مهيأ له، وليس عليك إلا أن تزيل

الغشاوة عن بصرك، وتنشغل ببصيرتك، وسيحدث لك هذا أقرب مما تتصور.

وضع يده على يد الرجل الراقدة فوق صدره، ولكنه لم يمسك بها، إنما أمسك قميصه هو، فعاد إليه خوفه، وسأل:

ـ من أنت يا عم؟

لكنه لم يجده أمامه، إنما سمع صوتًا يقول له:

ـ ستعرفني عما قريب، وتدرك معنى ما أخبرتك به.

قام من مكانه ذاهبًا في اتجاه الصوت، وتذكر في هذه اللحظة ما سمعه قبل ساعة من «ماهر» عن الرجل، الذي يأتي من الموت ليضلله، لكنه وجد الباب يُفتح ويطل وجها «ماهر» و«عليوة» ليقول له الأخير:

ـ رتبنا لك كل شيء ... «المنيا» في انتظارك.

5

حين طرق الدكتور «خيري» باب «مرتضى» كان منهكًا أشد الإنهاك، تكاد الأرض أن تميد من تحته، وعيناه زائغتان. أما حقيبته فلم يكن حالها أفضل منه، فقد علقت بها الأتربة، ونالت منها الأيدي، التي رفعتها فوق «الميكروباص» الذي ركبه من موقف «المنيب»، وأنزلتها في موقف «المنيا».

طيلة رحلته لم يغمض له جفن، رغم تعبه، إلا من سنة نوم غافلته على حرصه، رأى فيها الرجل الكبير الذي استضافه ذات ليلة ظلماء في قرية «محلة أبو علي»، كان وجهه صبوحًا أكثر مما لقيه، وقت أن كان في بيته، وكانت عيناه تفيضان بسماحة غامرة، ومن جبهته يشع نور عجيب. ورأى «خيري» نفسه في هذه اللحظة منكمشًا إلى جانب جدار حجري عال، ويضع كفيه على وجهه، فاقترب الرجل منه، وأزاح كفيه فبان وجهه وعليه آثار بكاء حار. أخذه في حضنه، فوجدها فرصة لمواصلة البكاء حتى يستريح، لكن الرجل أعاده إلى الخلف، وأمسك وجهه بكفيه، ونظر عميقًا في عينيه، وقال له:

ـ بعد الشدة يكون الفرج، ومهما كانت المتاعب فأنت على أول الطريق.

وسأله:

ـ أية طريق يا عمنا؟

فابتسم وقال:

ـ الطريق التي أبعدك الطامعون عن أن تمشي فيها مطمئنًا، فأسرعت عليها الخطى، ولم تعرفها.

بدا الأسى على وجه الدكتور «خيري» وقال له:

ـ لم أكن أريد سوى الكنز، لست أنا إنما هم، ولم يكن لي خيار سوى الطاعة، عمياء كانت أم مبصرة، لا فرق عندي.

لكن الرجل ربت كتفه، دون أن تفارقه ابتسامته، وقال له:

ـ على المتعجل أن يتمهل.

هز رأسه وقال له:

ـ حاضر .. حاضر يا عم.

عندها فتح عينيه ليجد الرجل المّسن، الذي يجلس بجواره، ينظر إليه باستغراب.

في البداية، ظن أنه قد تشكك فيه، فسقط قلبه في قدميه، ولكنه وجده يقول له:

ـ طوحت يدك وأنت نائم فوقعت نظارتي تحت المقعد، ولم أستطع التقاطها.

نظر إليه بعطف، وقال:

ـ آسف يا عم، كنت نائمًا، ولا أدري ما أفعل.

استعاد هذا وهو واقف بباب «مرتضى»، وابتسامة فاترة ترفرف على شفتيه، لكنها لم تكن قادرة على قتل المرارة التي ملأت حلقه، وسرت إلى أحشائه، حتى شعر بضيق شديد في التنفس.

كان جرس الباب معطلًا، إذ لم يسمع رنينه حين ضغط على زره، فراح يطرق بقبضة يده، خفيفًا في البداية ثم تصاعدت طرقاته، لكن لا مجيب.

«أين أنت يا مرتضى؟»

سأل نفسه، واحتار لأنه لم يكن وقت صلاة، ولا موعد الحضرة، التي تعقد كل أحد بعد صلاة العشاء. فكر في أن يذهب إلى الزاوية القريبة التي يصلي فيها، لكنه خاف، فإن كان «مرتضى» لا يقرأ الصحف ولا يعنيه التلفزيون، وتأخذه فلسفة التصوف إلى بحارها العميقة، فإن من بين إخوانه وأحبابه من لا يزال يقف على الشاطئ، فينشغل بكل ما يشغل سائر الناس، ويأتي إلى الحضرة؛ بحثًا عن ألفة وسكينة وصحبة، ويجدها فرصة للهروب، ولو قليلًا، من متاعب الدنيا.

فكر في أن يطرح حقيبته أرضًا ويجلس عليها في انتظاره أمام باب الشقة، لكن هذا كان سيلفت نظر الجيران، إن صعد أحدهم أو هبط، وربما وقف أحدهم أمامه وسأله من هو؟ وماذا يريد؟ ووقتها قد يكون

من الذين تابعوا ما بثه الإعلام حول فضيحة سرقة وثائق البلد، التي زعموها، وتقع الواقعة.

وفكر في أن يطرق باب الجيران، ويترك عندهم الحقيبة ثم يهبط إلى الشارع، يمشي إلى جانب الجدران حتى يغشيه الظلام، والليل ستار، ثم يعود بعد ساعة أو اثنتين فيكون من ينتظره على أحر من الجمر قد عاد.. لكنه لا يريد لأحد أن يعرف أن غريبًا يزور «مرتضى"؛ فهو في النهاية يشعر بحرج أخلاقي شديد حيال هذا الرجل، الذي يعرضه لخديعة بمشاركة «عليوة» و«ماهر»، وربما لو صارحه بحقيقة زيارته عنده، لرفض استقباله خوفًا من المساءلة، فمن ذا الذي بوسعه أن يعصي أمر القصر الكبير، في زمن أفرط جهاز أمن السلطة في اعتقال كثيرين وتعذيبهم بدنيًا ونفسيًا، لمجرد الاشتباه، أو لردع الناس عن الكلام المختلف والحركة في الاتجاه المضاد.

«ماذا أفعل يا ربي؟» ...

سأل نفسه مجددًا، وفكر في هذه اللحظة أن يفتح هاتفه الجديد، الذي زوده بخط اتصال مسجل باسم شخص مجهول أعطاه له «ماهر»، ليكلم «عليوة» فربما يكون قد عرف أين ذهب صهره؟ أو تكون لديه وسيلة للاتصال به وإبلاغه أنه بالباب. لكنه خاف إن كلمه أن يكون تليفونه مراقبًا، كما قال «ماهر".

واجتاح الدكتور «خيري» شعور غريب عليه، يمتزج فيه الخوف بالحرمان والضياع والأسى والاشتياق، لكن كان عليه أن يتجاسر

حتى يأتي «مرتضى» ليخفف عنه الكثير من المرارة الناشبة في حلقه، بطيبة معشره، وعمق معرفته، وقبل ذلك محبته، وعلمه الغزير.

مضت ساعة وهو واقف مكانه، لم تمر به سوى قطة، ظلت ترمقه من بعيد بعض الوقت، وعيناها تثقبان الظلام بضوء مخيف، إلى أن اطمأنت إلى أنه لا يقصدها بسوء، فجرت من جانبه بأقصى سرعتها، وهبطت إلى الشارع. تابعها وسخر من نفسه: «جاء اليوم الذي أحسد فيه قطة على حريتها».

بعد قليل سمع قرعة أقدام على السلالم المخربة مصابيحها. كانت بطيئة لكنها تقترب، ومعها يقترب ضوء مبهر، حتى لاح «مرتضى» خلف نور كشاف صغير، رفعه فرأى وجه الدكتور «خيري»، فاتسع وجهه بابتسامة مشرقة، وقال له:

ـ شرفتنا ونورتنا، آسف لم أعتقد أنك ستأتي بهذه السرعة، فذهبت إلى مكتبة في وسط «المنيا"؛ لأسأل عن كتاب جديد أريد قراءته.

فتح «خيري» ذراعيه، وقال له:

ـ أهلا بالأخ الحبيب.

تعانقا قبل أن يمد «مرتضى» المفتاح إلى الباب، لتطل صالة الشقة التي يعرف «خيري» كل ركن فيها، فدخل سريعًا، وسحب حقيبته خلفه، ثم رمى جسده على أول مقعد وصل إليه، ونظر إلى «مرتضى» وقال:

- أشعر في هذا المكان بارتياح عجيب .. إنه مكان مبروك.

ابتسم «مرتضى» وقال:

- إن كان مبروكاً فبفضل الصالحين من أمثالكم.

تمتم خيري في نفسه قائلًا لها: «الصالحون، هؤلاء أنا بعيد عنهم كل البعد»، ثم رفع عينيه إلى «مرتضى»، الذي كان يقول له:

- تلاقيك على لحم بطنك.

ابتسم وقال له:

- لا ..لا، طبعًا، مستحيل لواحد في مثل سني أن يظل كل هذا الوقت بلا طعام.

- خلاص، تلاقيك جوعان.. سأحضر شيئًا سريعًا نأكله.

- ليس الآن، وإن كان لابد، فأنا في حاجة شديدة إلى كوب شاي صعيدي.

ضحك «مرتضى» وقال، وهو يتوجه إلي المطبخ:

- أتذكر أنك أدمنت الشاي الثقيل، منذ أن كنت طالبًا هنا في «المنيا».

- وأدمنته أكثر من يدك في زيارتي السابقة.

- تعال لنتكلم ونتسلى في المطبخ.

- هل يمكنني دخول مكتبتك؟

- طبعًا، ادخل، وسآتي بالشاي لنشربه هناك.

ودخل المكتبة، وذهبت عيناه مباشرة إلى كتب «أبو العزائم»، ومدها إلى عناوينها المكتوبة على كعوبها، ولفت انتباهه كتاب عنوانه : «الجفر»، فسحبه ليجد تحت العنوان عبارة تقول: «هو علم الغيب الذي يكشف للأنبياء معجزة وللأولياء كرامة". بدأ قلبه يهتز، فهو يعرف ابتداء أنه مقبل على كتاب في النبوءات، لكنه لم يأت على ذكره في تقريره. وثار في رأسه سؤال: هل هذا هو سبب غضب جهاز أمن السلطة منه؟ هو مهتم بمثل هذه الأمور؛ لأن الجالس على الكرسي الكبير مغرم بها، لاسيما حين قال له بعض المنجمين إنه «صاحب مصر»، وأسندوا قولهم هذا إلى كتاب «الجفر» الأصلي المنسوب للإمام «علي بن أبي طالب». أيكون هذا حقًّا هو سر الغضب منه، وسبب عدم رفع التقرير إلى القصر الكبير؟ .. استسخف ما يشغله، وتذكر ما قاله له شيخ الطريقة من أن اتهامه مسألة مصطنعة للتغطية على سرقة وثائق، وربما يكون لسبب آخر، لم يكن يعلمه في هذه اللحظة التي يقف فيها شاردًا أمام المكتبة، وسيكشفه قابل الأيام.

تمنى لو كانت في الكتاب نبوءة بما سيجري له في قابل الأيام. زفر في ألم، وسخر من أمنيته الغريبة، فهل كان الشيخ الكبير يمكن أن يشغله رجل كلفه ذوو السلطان بتتبع خطاه، وعاد من رحلته الطويلة بخفي حنين؟ لا بد أنه انشغل بالمسائل الكبرى، والتي ليس من بينها بالطبع مؤرخ مطارد يُدعى «خيري محفوظ».

أعاد النظر في الكتاب وقرأ تعريفًا له يقول هو «نفحة من نفحات الإمام المجدد، وقبس من أنوار مشكاته، تلقاه قلبه السليم من الأغيار، في حال تجرده من القيوم الكونية، وغيبته عن نفسه وحسه. غيبة هي عين الحضور في حضرة السر والنور، فترجم به لسان بيانه، كاشفًا الأستار عن عيوب الأسفار بالإشارة في قالب العبارة»، ثم تبع هذا الكلام جزء من قصيدة يقول مطلعها:

«خذوا بالإشارة فالإشارة للقلب

وللروح في حال التجرد من ترب

وخل العبارة أو كنهها فإنها

تستر أسرارًا وتخفي ضيا الغيب»

بدا له هذا الكلام عجيبًا، والعجب الأكثر ما قرأه في الكتاب عن أن «أبو العزائم» كان يعرف في أسرار الحروف والأرقام، وأنه أملى قصائد تحمل نبوءات، ولهذا قال لـ «مرتضى»، وهو يضع كوبي الشاي على طاولة صغيرة واقفة في الركن:

ـ لم أكن أعرف أن الشيخ الكبير له معرفة بالجفر.

ردَّ مرتضى عليه:

ـ هذه أسرار لا أقدر عليها، ولهذا انشغلت أكثر بكلامه عن الإنسان والكون والله والطبيعة والمجتمع .. هذا ما بقي منه مفيدًا لي في أيامنا

تلك، فأمثل لما نصح به، وأوزع الناس على الشياطين والحيوانات والآدمية والملائكة، وأرى أن الإنسان مملكة الله العظيمة، وأن الكون الأكبر قد انطوى فيه.

سحب «خيري محفوظ» رشفة من الشاي الساخن وقال:

ـ أنت انشغلت بما يتماشى مع دورك ومهمتك.

رفع كوبه من على الطاولة وقال:

ـ لا، أنا قرأت كل كتبه، كما سبق أن أخبرتك، وأعرف آراءه في الاستعمار والخلافة والاشتراكية والماسونية، وجهوده في إصلاح الفرد والمجتمع، وتصوره عن الإصلاح الديني، ومقاومته للفساد، وما قاله عن الزراعة والصناعة والتجارة، وتفسيره للفقر وسبل التغلب عليه، ودعوته إلى إعادة الخلافة الإسلامية على أسس جديدة ... أجد فيما تركه ما يساعدني على فهم ما يجري الآن.

ضحك «خيري» وقال له:

ـ وهل تعلم ما يجري الآن .. أنت لا تقرأ الصحف، ولا تشاهد التلفزيون، وكلامك مع الناس قليل.

ابتسم وقال:

ـ ثرثرتهم في المكتب والشارع ووسائل المواصلات تقتحم أذني .. أسمع رغم أنفي.

ودعاه حين حلّ المساء إلى «الحضرة»، لكنه خشي أن يتعرف إليه أي من المريدين، فبينهم من يقرأ الصحف، ويشاهد التلفزيون، وربما يتابع قضيته. لهذا قال له:

ـ سأذهب معك، ولكن بعد أن أنتهي من قراءة كل كتب الشيخ «أبو العزائم».

ابتسم «مرتضى» وقال:

ـ هنا المعرفة، وهناك التذوق، ولا تعارض بينهما، فلتقرأ وأنت بيننا.

لم يكن لدى «خيري» حجة قوية للرفض، لكنه أصر عليه، وقال:

ـ أمثالي لا يتذوقون إلا إذا عرفوا.

قهقه «مرتضى» وقال له:

ـ تبدلت الأمور لديك، فنحن نقول: من ذاق عرف.

ضرب على يده، وقال:

ـ فلأجرب الوضع بالمقلوب، ربما أثبت العكس .. وكل شيخ وله طريقة.

وطلب منه أن يرتب له الكتب حسب أهميتها، لكن «مرتضى» قال له:

ـ الأفضل لمن هو مثلك أن يرتبها تاريخيًا، فلتبدأ بالأقدم تأليفًا.

هز رأسه وقال:

ـ لا بأس، ليكن كذلك.

ودفن رأسه شهرين كاملين، لا يكف ليلًا أو نهارًا عن القراءة، رافضًا أن يخرج من الشقة، وحين كان «مرتضى» يلح عليه في الخروج إلى أي مكان، كان يقول:

ـ اعتبرني في خلوة.

وطيلة هذه الأيام كان يتذكر جيدًا قول زوجته:

ـ أنت هارب من سجن إلى سجن أشد وأنكى.

لكن عزاءه كان في هذا البحر الزاخر من المعرفة، الذي أخذ يسبح فيه على مهل، فُتزال أمام عينيه الجدران، ويرى البراح في الأفق البعيد، والسماء الصافية العالية، والسكينة التي يتسع لها ما بين الجوانح، وتتهادى بها كل الطرق.

6

لم يتعامل «خيري محفوظ» مع كتب «أبو العزائم» وأشعاره على أنها مجرد ذريعة، لإطالة فترة اختبائه في شقة «مرتضى» بقدر المستطاع، حتى تتضح معالم قضيته، بل أخذ الأمر على محمل الجد، فغرق بين السطور إلى ناصيته، ورأى من الرجل الذي سعى خلف سيرته في البلاد، ما لم يره من قبل.

أحضر أوراقًا بيضاء، ليكتب فيها ملاحظاته وأفكاره عن ما يقرأ، وتأويلاته لبعض القصائد، وتفسيره لمغزى القصص التي كتبها الشيخ الكبير، ومحاولته الاقتراب من المواجيد والأذكار. وزادت هذه الأوراق تحت يده، ورأى أنها ستفيده كثيرًا، حين يشرع في تأليف كتابه الحقيقي عنه.

وفي بعض الليالي كان يجلس مع «مرتضى» في صالة البيت، يردد خلفه أورادًا وأذكارًا، في حضرة تقتصر عليهما. وتفانى في هذا حتى صار يغيب في حضوره، لدرجة أذهلت مستضيفه، الذي قال له ذات يوم مبتسمًا:

- جريت بعيدًا في مدارج السالكين.

كان «مرتضى» يترك له الحرية؛ كي يفعل ما يريد، يقرأ ويأكل وينام وينتظر الليل على نار، ليمد نظره من النافذة إلى الشارع الضيق، دون أن يراه أحد. وفي إحدى الليالي سمع صوتًا يقول:

«مددك كبير يا سِيييييد .. اوعى تتوه بين الرجال بكرة»

أصاخ السمع، فإذا هو الصوت نفسه الذي سمعه من قبل في «محلة أبو علي». إنه الدرويش الغريب، الذي يدور في البلاد؛ لينبه الخلق إلى يوم الزحام الأكبر.

حين سمعه في المرة السابقة كانت مهمته محددة، يخلص لها فقط؛ لذا لم يفكر طويلًا فيما سمعه، وسار في طريقه، متعاليًا على درويش تائه في شوارع متربة.. الآن، يشعر أن هذا الكلام البسيط يهز قلبه.

قال الرجل قولته، ومضى، وفي الليالي التالية انتظره لكنه لم يأت. بدا مقتنعًا بمرور الليالي أن الرجل ينادي الآن في بلدة أخرى، مدينة كانت أو قرية.

والليالي التي مرت بالدكتور «خيري محفوظ» أطالت لحيته وشاربه، فكان يشذب بياضهما الرائق بالمقص، ويضع وجهه أمام المرآة فيرى صورته تتغير إلى درجة تطمئنه تدريجيًّا إلى أن بوسعه أن يتخفى خلفها، وخلف ملابسه المختلفة، وفمه المنغلق على صمت لم يعتده، وشوارع لا تعرفه جيدًا.

ووجد صورته تقترب من صورة الشيخ الكبير في أواخر أيامه. تلك الصورة التي طالعها على أغلفة الكتب، وفي بعض الصفحات

الداخلية. في إحدى هذه الصور، رأى الرجل الذي همس في أذنه، قبل أن يبدأ رحلته الثانية إلى بيت «مرتضى». أمعن النظر في الصورة، ووضع العقلة الأمامية لسبابته على وجه، فغطت جزءًا منه، ثم زحزحها حتى ظهر أمامه كل وجهه. إنه هو، فهل أرسله الساحر المغربي فعلًا؟ أم هو رسول الشيخ الكبير من العالم الآخر إلى من يريد أن يعظه أو يوصيه أو يحذره؟ .. بدا حائرًا حتى عاد «مرتضى»، فمد إليه الصورة وسأله:

ـ من هذا؟

نظر إليه طويلًا، ثم قال:

ـ هذا «عامر المهيلمي» هو أخلصنا، هكذا سمعتهم يقولون عنه ويصفونه بأنه كان الأقرب إلى الشيخ الكبير.

في هذه الليلة رآه «خيري محفوظ» في المنام، فقام في الصباح منشرح الصدر، ووجد نفسه، يذهب إلى المكتبة، دون تناول إفطاره كالعادة، ويفتح الكتاب الذي يحوي صورة «المهيلمي» وهو واقف مع الواقفين، خلف الشيخ الكبير، الجالس على كرسيه بينهم، وعيناه ذاهبتان إلى البعيد.

وجد نفسه ينظر إلى الصورة، واضعًا يده على صدره، وانجلت أمامه السطور، فراح يقرأ بصوت مرتفع، أشعارًا ونثرًا، ناسيًا أين يكون؟ ومتخليًا عن حذره الذي اتسمت به كل تصرفاته طيلة الأيام السابقة. واستيقظ «مرتضى»، وكان يتثاءب في سريره مستسلمًا لعادة

ألفها كل يوم جمعة، حيث يفتح عينيه، ويظل شاخصًا ببصره إلى السقف، مستمتعًا بالكسل. هذا الصباح انتفض من سريره، ذاهبًا إلى المكتبة. وقف خلف الدكتور «خيري»، دون أن يشعر به، ووضع يده على كتفه، فانتبه إليه، وقال:

ـ أخذك شيخنا من كل شيء.

رفع رأسه إليه، وقال:

ـ كنت أظن من قبل أنني عرفت الكثير عنه، لكن الآن فقط أعتقد أنني سأظل غير عارف بكل ما تركه.

رفع «مرتضى» إصبعه إلى صف الكتب المتتابعة، وقال له:

ـ أراك اقتربت من قراءتها جميعًا.

ـ لكنني لم أفهمها على الوجه الذي أطمح إليه.

ضحك «مرتضى» وقال:

ـ المهم أن تتذوق.

نظر إليه، وسأله:

ـ كيف أتذوق؟

مد يده ووضعها على قلبه، مثلما سبق أن فعل «المهيلمي»، أو هكذا تخيل الدكتور «خيري»، وقال له:

ـ لا تترك كل الأمر لرأسك، وأخلص فيما تمضي خلفه.

كان يشعر أحيانًا أن «مرتضى» يعرف ما يدور في رأسه، بل يعرف لماذا هو الآن هنا، لكنه يتجاهل كل شيء، في سبيل أن يأخذه إلى شاطئ لم يصل إليه من قبل. نعم لم يأت إلى ذهنه أن «مرتضى» لديه خبر بالاتهام الذي يلاحقه، لكنه يشعر بأن حدسه يقول له إن ما يجري أمامه ليس طبيعيًا. فالدكتور «خيري» يعرف أنه كان بوسعه أن يحصل على كل كتب «أبو العزائم» من مكتبة «دار الكتاب الصوفي»، أو يطلبها من شيخ الطريقة نفسه، ولن يتأخر في إرسالها حتى شقته. وبعضها قد يجده في مكتبة الجامعة، أو أي من دور النشر. حتى الرسائل العلمية التي أُعدت عن مشروع الشيخ الكبير، والتي حرص «مرتضى» على اقتنائها، كان بوسعه أن يطلبها من الذين أعدوها، أو من مكتبات الجامعات التي أودعت فيها، وكل هؤلاء يتمنون أن يلبوا أي طلب لمؤرخ معروف، تثير مقالاته التي ينشرها في كبريات الصحف، بين حين وآخر، جدلًا واسعًا.

وكان «خيري» أيضًا يفهم أن «مرتضى» لن تنطلي عليه الحجة، التي ساقها «عليوة» و«ماهر» بأنه في خلاف حاد مع زوجته ويريد أن يمكث بعيدًا عنها بعض الوقت ليريح أعصابه، ويفكر في قابل الأيام بينهما، وفي الوقت نفسه يُكمل كتابه الذي بدأه عن الشيخ الكبير. كانت الشكوك تطل من عينيَّ «مرتضى»، ولكنه لم يترك لها تجرح معاملته الطيبة للدكتور «خيري»، بل كان يتعامل معه طيلة الوقت، ليس على أنه ضيف عابر، بل صاحب بيت، له كامل أعذاره، وهو في حل من ذكر أي منها.

ولم يكن الدكتور «خيري» ضيفًا ثقيلًا، فقد خرج من بيته، وفي جيبه مبلغ مناسب من المال، وأصر على أن يشارك في نفقات المعيشة، وتقبل «مرتضى» هذا، لرقة حاله؛ خاصة وأن «خيري» قال له منذ أن فتح له الباب:

ـ هذه المرة سيطول بقائي عندك، ولن تنفع معاملتك لي كضيف.

يومها ابتسم، وقال له في امتنان:

ـ بل أنا ضيفك يا دكتور.

وعند عصر اليوم السابع في الشهر الثالث، انكشف كل شيء أمام «مرتضى»، فقد جاء إلى مكتبه المتواضع في المدرسة رجل فارع الطول، عريض المنكبين، وجلس أمامه، وقال له في هدوء، وهو يقدم بطاقة هويته:

ـ «هاني عبد الوارث» من جهاز أمن السلطة.

وأفهمه أن الجالس على الكرسي الكبير، اهتم بغياب الدكتور «خيري»، وكلف جهاز الأمن بالبحث عنه، لإعادته إلى «القاهرة»، كي يسند إليه منصبًا رفيعًا.

وحين فتح «خيري» الباب وجد خلف «مرتضى» وجهًا صلبًا مستديرًا، على شفتيه ابتسامة طارئة، وفي عينيه قسوة شديدة. وقدمه «مرتضى» باسمه وصفته، فزاغ بصر الدكتور «خيري»، وارتجف قلبه، وتداعت ساقاه، وتفصَّد العرق من جبينه، واصفرَّ وجهه، وخرس لسانه.

وطلب «هاني عبد الوارث» أن يختلي بالدكتور «خيري» في غرفة الصالون، فتقدم أمامه، وهو يقول في نفسه: «جاءك الموت يا تارك الصلاة»، حتى إذا جلسا، كان «خيري» قد نزع نفسه من الخوف الذي اجتاحه من هول الصدمة، وأطلق في شرايينه طاقة من التجاسر والمقاومة، فوضع عينيه في عيني الضابط، وقال له، ليخفف من وطأة الموقف:

ـ وهل هذا اسمك الحقيقي أم الحركي؟

فابتسم في فتور، وقال له:

ـ ها أنت تعرف كل شيء يا دكتور.

هز رأسه وسأله من جديد:

ـ ألم تقرأ مقالاتي عن تاريخ العسس؟

انفجر ضاحكًا، ثم توقف فجأة، كأنه آلة انقطعت عنها الكهرباء، وقال بحروف ساخرة:

ـ قرأناها جميعًا، وتمتعنا بها.

ثم أشار إلى لحية الدكتور «خيري»، التي أصبحت كثة وتغطي أغلب وجهه، وقال:

ـ أنت كتبتها ونشرتها أيام كنت حليقًا، فما بالنا لو كتبتها الآن؟!

وأراد «خيري» أن يرفع نبرة التحدي لتزيده منعة في مواجهة ما سيجري له من كارثة محققة، هو يتوقع حدوثها قبل أن يرتد إليه طرفه،

فأعاد النظر في عينيّ الضابط وقال:

ـ المهم أن تكونوا قد تعلمتم منها شيئًا.

لم يرد عليه، إنما دخل في الموضوع مباشرة:

ـ جئت لك بعرض مغر من رئيس الجهاز، وستقبله.

شعر باشمئزاز شديد لهذه الطريقة في الحديث، ولكن لم يقض على رغبته في معرفة هذا العرض. أبعد عينيه بعيدًا، وسأله:

ـ أي عرض؟

أجابه مباشرة:

ـ تسقط عنك كل التهم، وتعود إلى بيتك وجامعتك، وتنال المنصب الذي تريده، مقابل أن تكتب سلسلة مقالات في أكبر صحيفة بالبلد، عن موضوع نختاره لك.

كان قد سمع هذا الكلام من قبل بلسان ناظر وقف البلد، وكانت النتيجة ما هو فيه الآن، فلم يهزه العرض مثلما كان يحدث، وقت أن كان يلهث وراء كل شيء.

«ماذا جرى لي؟» سأل نفسه في صمت، وتاه في الإجابة، فبدا شاردًا أمام الضابط، الذي كان ينتظر منه أن ينتفض واقفًا، ويقبل رأسه، أو يده. لكنه لم يفعل، جلس في مكانه، وكأنه لم يسمع شيئًا، فأدرك «هاني عبدالوارث» أن الدكتور تساوره شكوك فيما يسمع، وأنه ربما

يقول لنفسه الآن: «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين»، لذا اقترب منه، وقال له بصوت مفعم بالثقة:

ـ هذه المرة نحن من نكلمك، وليس ناظر وقف البلد.

ولم يرد، فأراد أن يطمئنه أكثر:

ـ نحن من منعنا تقريرك من أن يصل إلى الجالس على الكرسي الكبير، وأوصينا بمعاقبتك، وها نحن الذين نعدك بتصحيح كل شيء. الوعد هذه المرة منا، وليس من أي طرف آخر في هذا البلد.

كان عليه أن يجاريه إلى النهاية، فأغمض عينيه قليلًا، ثم فتحهما، وسأله:

ـ سلسلة مقالات عن ماذا؟

ابتسم الضابط، وقال له:

ـ ليس بعيدًا عن تهمتك، وبالتالي سنتيح لك أن تبرئ نفسك بيدك .. ألم تكن تريد هذه الفرصة؟

ـ طبعًا، وما هربت واختفيت إلا في انتظارها.

ـ جاءتك على طبق من ذهب، ويا بخت من نَفَّع واستنفع.

ـ ادخل في الموضوع، من فضلك.

ـ الوثائق التي تلاحقك اتهامات بسرقتها، عليك أن تكتب وتقول للناس إنها تبين صحة وجهة نظر الجالس على الكرسي الكبير في

حدود الدولة، وأن كل ما اعتزم إبرامه من اتفاقات ومعاهدات في هذا الشأن سليم، وليس فيه أي تنازل عن حقوق أو سيادة، وأن فخامته لا يمكنه أن يفرط في حبة رمل واحدة من تراب البلاد.

ضحك «خيري محفوظ»، وسأل في براءة:

ـ وأين هذه الوثائق؟

ـ هي التي ضاعت من دار الوثائق والمحفوظات.

ـ وهل كانت موجودة أصلًا؟

صمت الضابط برهة وقال:

ـ هذه مسألة أخرى.

لكن الدكتور «خيري» الذي كان شيء جديد قد سرى في أوصاله، منذ أن أبحر بين سطور «أبو العزائم» وغاب في جلسة الذكر، لم يقبل بهذه الإجابات المبتورة، التي كان يصمت حيالها في الماضي. فنظر إلى الضابط باستخفاف، وقال:

ـ هل تطلب مني أن أفعل ما تريدون وأنا أعمى؟

ردَّ في اقتضاب:

ـ هذه تفاصيل لا تفيدك كثيرًا.

صرخ في وجهه:

ـ أنا من يحدد ما يفيد وما يضر.

اتسعت عينا الضابط في غضب:

ـ أنسيت نفسك يا دكتور؟ .. ستفعل ما نريد شئت أم أبيت.

ابتسم في هدوء، وقال:

ـ يبدو أنك لم تدرك بعد أن من هو أمامك غير الذي كنت تعرفه، أو يعرفه جهازكم، وحتى من هم في القصر الكبير، يظنون أن كل الناس عبيد، ورهن إشارتهم.

قهقه الضابط، وقطع الضحك بسؤال:

ـ هل تغيرت في هذه المدة القصيرة؟

ـ محنة قاسية زلزلتني، فسقطت من رأسي كل حسابات الماضي، وبدأت مع كتب الشيخ «أبو العزائم» حسابات أخرى، أو بمعنى صريح، لا حسابات على الإطلاق.

قهقه من جديد، وقال:

ـ التقرير الذي كتبته عن الشيخ الكبير لا يقول هذا .. أنت كنت رجلًا يجري وراء الذهب.

ـ والآن أنا رجل يبحث عن الحقيقة.

ـ ألم تكن تبحث عن الحقيقة في تقريرك؟ لقد كررت هذا فيما كتبته، وبطريقة مملة.

ـ نعم، لكنها كانت حقيقة فارغة .. افتراض مجنون لشخص،

يخلط الجد بالهزل، ويتوهم أنه بالخرافات يستطيع التغلب على الأزمات الطاحنة، ويسحبنا كلنا خلفه كأننا نعاج. أما الآن، فأنا أسعى وراء حقيقة لا يعرفها جهازكم، ولا القصر الكبير.

نظر إليه مليًا، وقال:

ـ كأني أسمع رجلًا لا أعرفه.

ـ هي ملامحي التي تعرفها .. لكن ما بداخلي تغير، وإلى حد عميق لا تدركه، ولا تتصوره. كنت أعمى، أجري وراء المال والكراسي، والآن صار هذا لا يشغلني.

ابتسم الضابط، وقال في نفسه: «الدكتور يرفع ثمن شرائه»، وعاد إلى العرض، متكئًا هذه المرة على الحروف:

ـ سيُرد إليك اعتبارك، وتأخذ كل ما تحلم به.

دخل «مرتضى» يحمل صينية عليها كوبان من الشاي، وضعها على الطاولة، وقبل أن ينصرف، نظر إلى «خيري» وقال وهو يشير إلى الضابط:

ـ جاء إلى مكتبي بالمدرسة وأفهمني كل شيء، وطلب مقابلتك لأمر فيه مصلحتك.

نظر إليه «خيري» صامتًا، وتابعه حتى خرج، لكن الضابط أزال أي شكوك في رأسه، وقال له:

ـ «مرتضى» رجل طيب، قلت له إن القصر يريدك ليوليك منصبًا

كبيرًا، وأبلغته أننا نعرف أنك في بيته منذ هروبك، وأننا نتابع كل ما تفعله، وأفهمته أنه بحكم القانون يتستر على مجرم، ولم يكن لديه من خيار سوى أن يصطحبني إلى هنا؛ لاسيما بعد أن أخبرته بأن الجالس على الكرسي الكبير قد عفا عنك، وسيكافئك بمنصب رفيع.

امتلأ وجه «خيري» بالدهشة، ونظر إليه وقال:

ـ تعرفون كل شيء!

ـ نعم، فحتى وجودك في بيت «مرتضى» نحن الذين رتبناه لك.

ـ أنتم؟ كيف؟!

ـ الشخصان اللذان فتحا لك الطريق إلى هنا، يعملان لحسابنا.

ـ «ماهر» و«عليوة"؟

ـ نعم.

ـ الحقيران .. الـ ..

قاطعه:

ـ لا تلمهما، هما عبدان مأموران، فقدا قرارهما بعد ما جرى لهما في مقر جهاز أمن السلطة، واستسلما لنا.

ـ لكن تحاورهما معي أفهمني أنهما قد تمردا على ما جرى لهما، يوم القبض عليهما.

ـ هذا مرسوم لهما لخداعك، فحتى لو كان قد وصل إليك خبر ما

وقع لهما فإنك لن تشك فيهما .. كان الهدف أن تستقر في مكان آمن لك نعرفه؛ حتى يصدر قرار نهائي بشأنك. تابعناك منذ لحظة خروجك من بيتك، ونصيحة ناظر وقف البلد لك باللجوء إلى الشيخ هي تنفيذ لأوامرنا .. الرجل كان متعاطفًا معك، لكن ما بيده حيلة.

ـ قرار نهائي! وهل هناك قرار آخر، بعد كل هذا الاتهامات والتجريس والمطاردة؟

ـ طبعًا، ما جرى لك، حتى الآن، لا يعني أننا كنا قد اتخذنا قرارًا نهائيًا بشأنك .. القرار تم اتخاذه بالأمس، عفو وحرية ومنصب ورضا من الجالس على الكرسي الكبير، ولو أردت مكافأة مالية عما ستكتبه، لن نتأخر في الدفع لك، وبسخاء.

ـ وشيخ الطريقة، هل كان يعرف هذا؟

ـ لا، تم كل شيء من وراء ظهره، عرفنا أنه قرأ التقرير، وكتب ملاحظات عديدة على هامشه، وكان ينوي مناقشتك فيها، لكنه وجدك قد اختفيت. وضلله «ماهر» و«عليوة» فزعما أنك تسللت من القاعة العلوية؛ لتكمل رحلة هروبك.

ـ تمنيت لو قرأتها، وناقشته فيها.

ابتسم في هدوء، ومد يده إلى جيب جاكت بذلته، وأخرج ورقة مطوية، ومدها إلى الدكتور «خيري» وقال:

ـ صورنا لك نسخة منه.

وبينما كان «خيري» يفتح الورقة، ويبدأ في قراءتها، قال له الضباط:

- نعرف أنك أخذت العهد على يديه.

- فعلتها لأقترب منه، ويطمئن لي، ويساعدني في الهروب، لكن بعدها وجدت شيئًا عجيبًا يتحرك داخلي أبعد ما يكون عما قصدت .. يمكن أن تقول ببساطة إنها كانت لعبة وانقلبت إلى جد.

لوى الضابط بوزه، وتنهد في ضجر، وقال له:

- عموما سأتركك تقرأ التقرير، وسنواصل الكلام.

وقام من مكانه، ونادى «مرتضى» وسأله عن الطريق إلى الحمام.

7

فتح الدكتور «خيري» الورقة التي أعطاها له الضابط، وراح يقرأ بذهن، حاول أن يكون يقظًا طيلة الوقت، لكن الصور التي كانت تتراءى له من الرحلة الطويلة التي قطعها في سبيل كتابة تقريره، كانت تأخذه إلى شرود، فيهز رأسه كي يسقط هذه الصور تحت قدميه، وهو جالس في مقعد لين، وظهره مسنود إلى وجعه.

كانت الحروف تذهب وتعود، تروغ وتثبت، فأخذ يعيد قراءة السطور، حتى يستقر المعنى في رأسه:

«السيد الدكتور «خيري محفوظ» المحترم

تحية طيبة

لولا أنني عرفت أن ما كتبت كان بتكليف من جهة دفعتك إلى السير في طريق الوهم، لاتهمتك بأنك لا تعرف شيئًا عن التأريخ، بل لقلت إن كتبك ومقالاتك التي طلبتها من المكتبات وطالعتها، بعد قراءة تقريرك مباشرة، هي هراء في هراء؛ خاصة أنك اتبعت في تقريرك هذا الطريقة نفسها تقريبًا، التي ألفت بها كتبك، أو ما هو أقرب إليها.

سأقول لك باختصار إنك سرت وراء سراب، وأكثر ما يحزنني أن القائمين على الأمر في بلادنا يفكرون بهذه الطريقة، وبدلا من أن يطلبوا من العلماء أمثالكم أن يهدوهم إلي سواء السبيل، يأخذونكم هم إلى طريق الضلال. لا أقصد طبعًا، الابتعاد عن الإيمان، إنما الضلال هنا يعني بالنسبة لي، طريق الخرافة والخزعبلات والأوهام، التي ستودي بنا جميعًا إلى التهلكة.

يا عزيزي، أنت جريت كل هذه الأيام وراء رجل آخر، غير جدنا وشيخنا ومؤسس طريقتنا، وبدلًا من أن تنشغل بعلمه وجهاده، فإذا بك تنشغل بما قيل لك إنه كنز أو خبيئة مدفونة تحت جدران البيت الذي نسكنه، أو المسجد الذي نصلي فيه، وفي وسطه ضريح شيخنا وابنه، أو في أماكن المؤسسات، التي أنشأناها لنخدم بها الفقراء في بلدنا، وما أكثرهم.

كنت تلهث وراء معلومات تجمعها من أفواه من قابلتهم في البلاد، ورغم أنك قد أهديتني أنا شخصيًا طريقة جيدة في الكتابة عن شيخنا، فهي مختلفة عن تلك التي اعتدناها، فإنك أخطأت الكنز الحقيقي، الذي كان بين يديك، ولم يقع عليه بصرك، لكن لدي يقين أنك ستعرفه عما قريب، ووقتها ستجد نفسك الإنسان، الذي تحب أن تكونه، وضاع منك على مفارق الطرق، التي سلكتها بحثًا عن كل زائل.

وأود أن أقول لك شيئًا، يعز عليَّ قوله دائمًا، وهو أنك يجب ألا تعتقد أن أتباع الطريقة كلهم على شاكلة «ماهر»، فكما أن فينا

الأدعياء، ففينا الأولياء، ولعل الرجال الذين جاءوك من قلب الزمن البعيد ينبهونك في أحلامك، لكنك لم تنتبه، ليسوا هم فقط الذين تركهم شيخنا الكبير بين رجال الدنيا، سواء من رحلوا مثله، أو الذين يسعون في الأرض مثلنا.

هذه رسالة مختصرة كتبتها لك، وأرسلتها على عنوان منزلك في «القاهرة» ربما يكون لأهل بيتك طريقة في إيصالها لك. أما ملاحظاتي العديدة التي سجلتها على هامش تقريرك، فأنتظر أن نلتقي في يوم من الأيام لنناقشها بالتفصيل، وهو يوم ليس بالبعيد. ولتعلم أن سبب اهتمامي بالكتابة إليك، والرغبة في التحاور معك، هو أنك قد صرت مريدًا في طريقتنا منذ أن بايعتنا، وقلبك مشغول بغيرنا، وعقلك يفكر فيما لا يعنينا، لكنني كنت واثقًا، ويدك في يدي، من أنك ستعود إلينا سريعًا ..

تقبل خالص مودتي»

***

طوى الرسالة، وغاص أكثر في مقعده، وزاد شروده، وشعر أن شيئًا يدب في شرايينه، أشبه بنمل يزحف على مهل فوق رمل ناعم. وقام في وجهه السؤال، الذي كان لا بد أن يطرحه على نفسه في هذه اللحظة: لماذا جعلني الضابط أقرأ الرسالة، مع أن فيها ما قد يمنعني من أن أستجيب لما يريد؟ تمنى لو تمكن من الاختلاء بأخيه الجديد «مرتضى»، ليشاركه الحيرة والإجابة، لكن الضابط هو الذي صار معه. جاء ووقف فوق رأسه، وقال له، وهو يعدل من هندامه:

ـ لعلك تتساءل الآن عن السبب وراء تمكينك من قراءة هذه الرسالة.

رفع رأسه إليه، وقال:

ـ نعم، هذا ما يشغلني الآن، وأتعجب له.

ابتسم وقال في هدوء:

ـ ما كان يمكننا أن نفعل هذا لو لم نعدل عن التفكير، فيما تم تكليفك به من قبل .. لم يعد كنز «أبو العزائم» يهمنا، وإن استمر اهتمامنا به، فلنا طرق أخرى بعيدة عنك، أما أنت فنحتاجك في كنز آخر.

حاول الوقوف فزعًا، لكن جسده خانه، فارتفع قليلًا ثم سقط على المقعد، ومد بصره المفتوح عن آخره، وسأل:

ـ كنز آخر؟!

ـ نعم قضية حدود الدولة كنز، فمقالاتك ستمهد الناس لقبول ما ننوي فعله، وما سنفعله سيجلب لخزينة البلاد مالًا وفيرًا، نحن في حاجة ماسة إليه.

ـ وما علاقتي أنا بهذا؟

ـ سنقول إنك أخذت الوثائق بعلم موظف دار المحفوظات، كي تبحث في أمر الحدود، وأنه قد استقر في يقينك، بعد دراسة مستفيضة، أن ما أقدم عليه الجالس على الكرسي الكبير من تنازل عن هذا الجزء كان صائبًا.

فكر «خيري محفوظ» في هذه اللحظة أن يجاريه إلى النهاية؛ ليعرف حقيقة نواياه، فصمت برهة، وقال:

ـ لكن مدير الوثائق والمحفوظات شهد أمام النيابة، وكاميرات الشاشات، أنني سرقتها.

قهقه الضابط وقال:

ـ لا تقلق، كل شيء في أيدينا، سيغير أقواله أمام النيابة، والرأي العام، وسيقول إن الموظف الذي كلفه بمعاونتك أعطاها لك دون أن يدري، ضمن وثائق أخرى عن الشيخ «أبو العزائم»، وكان غائبًا وقت تفجر القضية، وعاد الآن، وأراد أن يرضي ضميره ويقول الحق.

ـ كان غائبًا؟

ـ نعم، سنقدم شهادة من مستشفى حكومي، تفيد بأن الموظف الذي عاونك، أصيب بجلطة دماغية، استمرت كل هذه المدة، ولم تذهب عنه إلا قبل يومين.

زاد اندهاش «خيري محفوظ» واشمئزازه، وقال بحروف خرجت نيئة من بين ثناياه:

ـ ياااااااه، فعلًا، كل شيء في أيديكم.

ـ طبعًا.

ابتسم «خيري» وقال له:

ـ لـن يصدق أحد هـذا، فالفاهمون في هذا البلـد يعرفون أن وثائق الدولة لا تخرج هكذا.

ـ هذا صحيح، لكن هذه لم تفتنا، وبها سنجعل منك بطلًا في نظر الناس، وكذلك الموظف الذي عاد من الغيبوبة.

ـ كيف؟

ـ أنـت أخذت الوثائق باتفاق معه؛ كي تتصدى لقرار الجالس على الكرسـي الكبير بتسـليم الأرض لجيراننـا .. أردت أن تقاوم كعادتك، وتكشـف الحقائق للناس، لكنك حين درسـت الوثائق جيدًا، وجدتها تثبت وجهة نظر فخامته، ولم يكن بوسعك أن تكتم الحقيقة .. والناس سيصدقونك لأنك مؤرخ كبير، وبعض مقالاتك الأخيرة في الصحف، قبـل تكليفـك بمهمـة البحث عـن كنز «أبـو العزائـم»، كان فيها بعض المعارضة للسياسات القائمة. وحتى لو لم تكن معارضًا فجًّا ككثيرين مـن الحنجوريين والإيثاريين، الذين نعرفهم، فأنـت، على الأقل، لم تتـورط في الدفاع عن السـلطة، وكثير مـن المعارضين يقدرونك على كل حـال. وحتى لو لـم يصدقك الكل، سـيصدقك البعض، وهذا في حد ذاته جيد بالنسـبة لنا، نريد للناس أن يتجادلوا وينقسـموا، لأننا لن نقدر عليهم إن توحدوا ضدنا. وهنا سـتكون قد أديت مهمتك بنجاح، وسـيغفر لك رئيس جهاز أمن السـلطة إخفاقك فـي مهمة البحث عن الكنز، وتحصل على كل ما كنت تطمح إليه.

أراد خيري أن يطيل أمد الجدل معه، حتى يشـرق في رأسـه مخرج من المأزق، الذي وقع فيه. فصمت مرة أخرى ثم قال:

ـ لكـن كل مـا قلتـه لا يبرئني من سـرقة الوثائق، ومعـي الموظف المغلوب على أمره.

وجاءه الرد أسرع مما تصور:

ـ سـتخضع لتحقيق شكلي، وسـتكون محاكمتك شكلية، والبراءة في يدنا.

ثم اقترب منه وقال:

ـ هذا طبعًا إن كتبت ما نريده، أما إذا رفضت، سـنكون معنين بتبرئة الموظف فقط، إن شرعنا في الإجراءات التي أفهمتك إياها.

بلع ريقه، وغاص من جديد في مقعده، وقال في هدوء:

ـ لكن الوثائق تثبت عكس ما تريدون.

قهقه الضابط، وقال:

ـ هذه لم تسـقط من حساباتنا، فالوثائق الحقيقية لن يراها أحد، فقد أعدمناها، وسـنمدك بأخرى جهزناها لـك، وكلها ستنشـر منها صورًا مع مقالاتك، التي علينا نحن تسـويقها على نطاق واسـع، في الصحف والمواقع الإلكترونية وشاشات الفضائيات، وسنودع نسخًا منها في دار الوثائق والمحفوظات، وسنرسلها إلى كل الجهات المعنية في البلاد.

ثم ابتسم الضابط في خبث، وقال:

ـ شيخك «أبو العزائم» يقول إن «الإسلام وطن»، وبهذا فالأرض لا تهم لديه أن تكون تابعة لنا، أم لجيراننا من المسلمين.

تلقى نظرة فاحصة من «خيري محفوظ»، وقال له:

ـ لديكم تبرير لكل شيء، لكنه ضعيف ومعوج .. ألم تقرأ مقالات «أبو العزائم» عن «الأمة المصرية»، وهجومه البالغ على أي من يفرط في أرضه من الفلسطينيين.

ـ الفلسطينيون لهم وضع خاص.

ـ لا، الشيخ الكبير لم يكن يفرق بين أرض وأرض، فتراب الوطن عزيز أيا كان مكانه.

ثم انتفض واقفًا وهرول نحو المكتبة وأتى بكتاب، راح يقلب صفحاته على عجل، حتى وصل إلى ما يريد، ومده إلى الضابط وقال:

ـ اقرأ نص رسالة الشيخ «أبو العزائم» إلى «سعد زغلول»، ففيها رد عليك.

وبدا الضجر على وجه الضابط حين رأى الصفحة مزدحمة بسطور متتابعة، فمد الدكتور «خيري» إصبعه إلى الجملة التي يقصدها، وراح يقرأ:

«وأشكركم يا دولة الرئيس على الحجة التي أقمتموها لأنفسكم بالمسارعة إلى ما به صحة الجسد المصري، وأرجوكم بعد أن ظهرت لكم نتيجة جمع كلمة الأمة أن تداووا بقية أعضاء هذا الجسد المبارك حتى تعم المسرة كل بيت بوادي النيل، بل يسري السرور إلى كل أمة إسلامية وشرقية».

ثم نظر إلى الضابط وقال:

ـ معنى هذا أن الشيخ «أبو العزائم» كان ينظر إلى مصر على أنها أمة قائمة بذاتها، حتى وإن آمن برابطة روحية ورمزية بين كل المسلمين، فلا تلوي عنق الحقائق لتبرير ما تنوي السلطة الإقدام عليه، وتتخذ من الشيخ، الذي أراه الآن غير ما رأيته في أول رحلتي، طُعمًا لاصطيادي.

اغتصب الضابط ابتسامة، وقال:

ـ لا بأس، بوسعك أن تُضمِّن هذه العبارة أحد مقالاتك التي ننتظرها، وكما قلت لك، ستكتبها في كل الأحوال، بعد أن تأتي إلى مقر الجهاز، وتقابل رئيسه، ويطلعك على أمور خافية عنك، فوقتها ستعرف أن ما طلبناه منك لصالح البلاد.

ضاق الخناق على الدكتور «خيري محفوظ»، فلم يجد سوى أن يطلب مهلة للتفكير، وظن أنه لن يُمكَّن من هذا، لكن الضابط هز رأسه وقال له:

- الأوامر التي أعطيت لي تقول إن أمامك يومين فقط.

- يومان؟

- هذا كثير في عُرفنا، لكنك لست أي أحد عندنا.

وقام الضابط، دون أن يرفع عينيه من عينيَّ «خيري محفوظ»، وقال له:

- سأبقى في «المنيا» على مقربة منك .. ورجالنا حول البيت، وملكك ثمانية وأربعون ساعة لتفكر، ليس في أن تقبل أم ترفض، ولكن في الطريقة التي ستكتب بها مقالاتك.

امتلأ وجه «خيري محفوظ» بالغضب، وسأله:

- هل أنتم جادون في تسليم الأرض لجيراننا؟

ابتسم الضابط في هدوء، وأجاب:

- القول الفصل ليس عندي بالطبع، ولكنني أظنها مناورة لأهداف لا أعرفها.

لاذ «خيري محفوظ» بالصمت، غارقًا في حيرته، بينما خرج الضابط، وأغلق الباب وراءه، ولحظتها جاءه «مرتضى» وعلى وجهه أسى وأسف شديدان، وقال له:

- لقد سمعت كل شيء.

8

في الوقت الذي كان «هاني عبد الوارث» يجلس مع الدكتور «خيري محفوظ» ليقنعه بالتعاون مع جهاز أمن السلطة في مهمة جديدة كان زميل آخر له يجلس مع رجل ربعة تصل لحيته إلى سرته، رأسه حليق، وعيناه ساجيتان بسكينة عابرة، أشبه برماد تحته نار. كان يجلس إلى مكتبه، وهو يضغط على ملامحه؛ لتبدو أكثر قسوة وصرامة، وينظر في عينيَّ الرجل الملتحي، ويقول له:

- هات ما عندك يا شيخ «سعدواي».

زحزح جسده الثقيل في مقعده إلى الأمام، ومد رأسه، وقال وعيناه تجوبان المكان، كأنه يتأكد من أن أحدًا لا يراه، وقال:

- يعتزمون تفجير ضريح «أبو العزائم».

ابتسم وقال له:

- هل كتبت معلوماتك في تقرير كالعادة؟

انكسرت عيناه على زجاج المكتب، وقال بصوت خفيض:

- لا، جئت سريعًا إلى هنا بمجرد أن عرفت المعلومة.

- وما الذي جعلهم يفكرون الآن في هذا؟

- تعرف سيادتك أنهم يستهدفون المساجد التي بها أضرحة، ويزيد على هذا أن شيخ الطريقة تحمس في السنوات الأخيرة لنشر كتب، تهاجم السلفيين والمتشددين، وعقد ندوات لهذا .. إنه يتحداهم بشكل ظاهر، وهم محتقنون منه إلى أبعد حد.

صمت الضابط برهة، وسأله:

- ومتى ينوون فعل ذلك؟

- بعد أسبوع.

- لدينا وقت .. أسبوع يكفي لنتحرك، ونمنع ما يجري.

ابتسم «سعدواي» وسأله:

- هل ستتحركون فعلًا؟

اكتسى وجه الضابط بغضب شديد، ونهره:

- سؤالك غير مقبول.

هبَّ مذعورًا، وانحنى قليلًا، ثم انسحب في هدوء، وهو مشغول بما يدور في رأسه، فقد كان قد وصل إليه من مصدر آخر خبر الكنز المدفون تحت بيت «أبو العزائم»، وكان بالطبع تلاحقه، كغيره من الناس، أخبار تفجير الكنائس بأيدي إرهابيين، وما يتبعها من غضب في كل مكان، ولهذا فسَّر الهدوء الذي قابله به الضابط الكبير، وهو

ينصت إليه، على نحو جعله يظن أن ما يدبره المتطرفون يروق لجهاز أمن السلطة، ومن ثم طرح على الضابط سؤاله هذا.

خرج «سعداوي» ورفع الضابط السماعة إلى رئيس جهاز أمن السلطة، الذي تلقى الخبر وهو غارق في الحيرة والتساؤل، وكان عليه أن يتواصل مع القصر الكبير؛ لأنه يعرف مدى انشغاله بهذا المكان. وشرد في هذه اللحظة، فسمع صوت المذيع الذي ينتظر أوامره يصرخ: ليست الكنائس فقط، إنهم يقصدون المساجد التي تحوي أضرحة لأولياء الله، كما رأى جدران بيت آل العزائم تطير في الهواء، وتحط على غبار وذعر وصراخ ودماء وأشلاء، ثم تنجلي الأرض، ويبرق في جوفها شيء أصفر، يخطف الأبصار، ويسيل له لعاب اللاهثين خلفه، والمتلهفين عليه.

9

امتلأت عينا «مرتضى» دهشة، وهو ينصت إلى كلمات، خرجت من فم «خيري محفوظ» ممعنة في التحدي. لم يكن بوسعه أن يثنيه عما اعتزم فعله، وإن كان قد بدا خائفًا عليه. قال وهو يربت كتفه:

ـ لكنك لم تجرب هذه الطريق.

تنهد خيري، ومد بصره إلى الفراغ، وقال:

ـ لا سبيل أمامي إلا هذا، ولو أخفقت فيكفيني أنني حاولت.

وصمت برهة وواصل:

ـ قضيت عمري أتنظر، في لهفة يسيل لها لعابي، ثمن صمتي ورضوخي الطويل، ولا تشفع لي فترات متقطعة، كنت أخالفهم فيها بحذر، وآن الأوان أن أجرب ما أجنيه من الرفض والإباء.

نظر إليه بإشفاق شديد، وسأله:

ـ ومتى سترحل؟

أجاب من فوره:

ـ الليلة القادمة.

ثم أشار إلى «مرتضى» كي يتبعه إلى المكتبة، ووصل إليها، ودفع يده بين كتابين من كتب «أبو العزائم»، وأخرج أوراقًا مطوية، وفردها أمام عينيه، ثم مدها نحو «مرتضى»، وقال:

ـ لتصل هذه إلى شيخ الطريقة، وهو سيجد طريقة لنشرها.

نظر «مرتضى» إلى السطور، وسأله:

ـ وما هذه؟

أجاب بثقة

ـ دراسة غير مسبوقة عن شيخكم الكبير، الذي لم تعرفوا بعد قيمة ما قال وكتب وفعل.

ـ هل تتهمنا بأننا لا نعرف شيخنا؟!

ـ تتحدثون عنه وتكتبون فيه على أنه رجل مبروك، له كرامات، وله مأثورات وحكم وأوراد وأشعار، يمكن حفظها وترديدها، لكنكم لم تصلوا إلى قلب ما أراده، وهو ما نحتاجه اليوم في أيامنا هذه .. نحتاجه أشد مما تتصور.

ـ وما الذي كان خافيًا علينا واكتشفته أنت؟

ـ لا تتعجل، بعد أن أذهب، يمكنك أن تصور نسخة من هذه الأوراق، وتقرأها على مهل.

وضع الأوراق جانبًا وقال له:

ـ هل الرحيل قرارك الأخير؟

أشار خيري إلى كتب الشيخ الكبير، التي انتهى من قراءتها كاملة طيلة فترة بقائه في بيت «مرتضى»، وقال:

- تعلمت هنا كيف يهون كل شيء في سبيل أن يكون الإنسان ما يريد.

- لكن الرحلة ستكون طويلة وشاقة.

ابتسم «خيري محفوظ»، وقال:

- لا بأس، ربما تكون الأخيرة.

حين انغلق على كل منهما باب غرفته، لم يطق «مرتضى» الصبر على الأوراق، التي استقرت في غلاف من البلاستيك الشفاف، وضعه على طاولة صغيرة عليها علب الأدوية وزجاجة ماء. مد أطراف أصابعه، ورفعه من مكانه وفتحه تحت ضوء الأباجورة المبهر، وراح يقرأ بتركيز شديد، وهو مندهش مما تجود به السطور.

وكاد من احتفائه بما قرأ أن يقوم ويطرق غرفة الدكتور ليناقشه فيه، ولكنه آثر ألا يقلقه، فربما يكون قد وقع في سبات عميق، وراح يفكر فيما وجده، حتى ذهب عنه النوم.

كان -بالفعل- كلامًا مختلفًا عن الشيخ الكبير، وإجابة عن سؤال لم يطرأ يومًا على ذهن «مرتضى»، الذي راح يضحك من نفسه على أنه لم يفكر، ولو مرة واحدة، في هذه المسألة.

تمنى في هذه اللحظة لو أشرقت الشمس؛ ليهاتف شيخ الطريقة ويطلعه على ملخص ما قرأه، قبل أن يرسله إليه، أو يأتي موعد

الحضرة بين غمضة عين وانتباهتها، ليقول لإخوانه أحبائه كل شيء، ويجعلهم يتفكرون فيه، وكل منهم يقول ما يريد بشأن ما انتهى إليه الدكتور «خيري محفوظ».

كان المقال يجيب عن سؤال مهم: لماذا حوصر الشيخ الكبير، رغم كل ما كتبه وقاله وفعله، بينما فتح الطريق أمام من هم أقل منه علمًا وأتباعًا وهمة، كي يصنعوا تنظيمات، ساحت في كل أرجاء البلد، ثم خرجت منه لتسيح في الأرض؟

وأجاب الدكتور «خيري» بوضوح: «لقد كان أبو العزائم عصيًا على الاستخدام من قبل الإنجليز وأحزاب الأقلية الموالية لهم، لذا ضيقوا عليه الخناق، ووضعوا في طريقه الأشواك، وتركوا مشروعه يدمي ويذبل ويخبو، بينما صنعوا هم العملاء الذين شقوا لهم مسارات محددة ليمضوا فيها، وكان عليهم أن يمروا طيلة الوقت من باب الخدم».

وراح الدكتور يقارن بين «أبو العزائم» و«حسن البنا» مؤسس جماعة «الإخوان المسلمين» من زاوية مستوى الفكر، ونقطة الانطلاق، وعدد المريدين في لحظة البداية، ومصلحة الناس، ثم ترك الجميع معلقين على باب السؤال: أيهما كان جديرًا بالاتباع؟

وكتب جملة في نهاية مقاله، كأنه يصرخ: «استعيدوا ما قاله أبو العزائم في رفض المذهبية، وإصلاح أحوال الناس، ومقاومة الظلم والاستعباد والفساد، والتصدي للغزاة أيًا كان نوعهم ولونهم، ونصرة المستضعفين أينما وجدوا».

كان كلامًا غريبًا على ذهن «مرتضى» لذا فرح به، وأراد في هذه اللحظة، لو تمكن من الاتصال بكل المريدين ليبلغهم بهذا، ويطلب منهم ألا يكتفوا منه بالأوراد والأذكار.

وفي هذه اللحظة أيضا كان الدكتور «خيري» يشرد في أمر آخر، غير الذي يأخذ ذهن صاحبه. كان مؤرقًا لكن لأسباب تختلف عن تلك، التي جعلت النوم يذهب عن عيني «مرتضى".

رأى في شروده دروبًا وبلادًا ووجوهًا تطل من خلف النوافذ والمشربيات، ومن فوق السطوح الخفيضة، وشبابًا وكهولًا وشيوخًا، ملفوفين في جلابيب بيض جالسين في صحون المساجد، وأركان الزوايا، وساحات الحضرات الغارقة في دخان البخور وحمحمات الذاكرين. ورأى قططًا صغيرة تمر في حذر إلى جانب الجدر، وعيالًا صغارًا يمدون أيديهم إلي أفواهها الجائعة، بأطباق صدئة بها ذيول السمك وزعانفه وأحشائه، وبقايا لحم، إلى جانب سلاسل أشواكها.

لم يكن يرد على ذهنه أبدًا، في رحلته الأولى، أنه سيعود إليها بمهمة جديدة، وأشواق أخرى. سيجلس بين المريدين محاولًا أن يخلي كل شيء يشغله وراء ظهره، سيحاول أن ينسى مخاوفه، ووجوه مطارديه، لينعم بالسكينة.

في المرة السابقة كانت بحوزته نقود كثيرة، فالذين أرسلوه لم يكن يشغلهم ما ينفقه، لأنه ليس من جيوبهم على أي حال، أما هذه المرة فليس معه سوى ما يكفيه؛ لقطع الطريق البري إلى «سواكن».

رشوة غير كبيرة إلى أي من رجال القبائل وأولاد الطريق، ستكفي ليسلك الصحراء والجبال غير الوعرة بمحاذاة البحر، أو أبعد بقليل عبر أي من المدقات، التي عبّدها السابلة والمهربون والرعاة والفارون من الظلم والجوع على مدى زمن طويل. لكنه وجد نفسه يأبى أن يرشي أحدًا، وقرر أن يمضي في طريقه المعتادة فيركب الباخرة من «أسوان» إلى «وادي حلفا»، ومن هناك يركب سيارة إلى سواكن. يعرف من أيام رحلته الأولى أن المسافة بين البلدتين تزيد على ألف وثلاثمائة كيلومتر، وتستغرق نحو خمس عشرة ساعة.

كان عليه في هذه الليلة الفارقة، في حياته، أن يرى نفسه محمولًا فوق جمل، يسترق النظر إلى الخلاء حين يوارب ستائر الهودج السميكة، أو غالبًا في الطل عاريًا إلا من ملابسه، التي تقيه بعض الريح، والتي أدرك أن عليه أن يبدلها، ويعيد دقنه حليقًا.

كان الضابط قد أبلغه أن العيون تحاصره من حيث لا يدري. إلا أن عيون المطمئنين بالقوة والغرور كثيرًا ما تنام أو تتغافل، فجميعهم يدركون أن أستاذًا جامعيًا عاش حياة ناعمة في سنواته الأخيرة، على الأقل، ليس بوسعه أن يخاطر على هذا النحو.

وجد أنه من المفيد له أن يكتب رسالة أخيرة لتضليل الضابط ورجاله، رسالة تجعلهم يسلكون الطريق المضاد. وما أكثر الأوراق الفارغة والأقلام في بيت رجل، ينشغل بالتصوف والفلسفة. تسلل إلى المكتبة في هدوء حتى لا يقلق صاحبه، الذي كان يظن أنه نائم،

بينما هو مؤرق مثله، وسحب ورقة وأجرى عليها قلمه السيّال، لكنه وجد نفسه عاجزًا عن إطلاق الحروف سخية.

«عليك أن تختار كلمات بعناية، وتحاذر» .. قال لنفسه بصوت مسموع، ثم كتب على مهل:

«عزيزي مرتضى .. قبل أن أبدأ مهمتي الجديدة بكتابة مقالات عن حدود بلدنا، وجدت أنه من المناسب أن آخذ رأي صديق قديم يعيش بالقاهرة وأثق فيه ثقة عمياء. وإذا وجدت لدي وقتًا سأقف أيضًا على رأي شيخ الطريقة. وفي كل الأحوال سأمر على زوجتي؛ لهذا ذهبت في صمت، ولم أشأ أن أبلغك أو أقلقك، خاصة أنني وجدتك غائبًا في نوم عميق، فأرجو أن تتقبل عذري، وسنلتقي قريبًا، بمشيئة الله».

وكان قد اتفق مع «مرتضى» على هذا، بحيث يبعده عن شك جهاز أمن السلطة وإيذائه، كما هاتف زوجته وأبلغها أنه سيزورها عما قريب.. حاولت أن تعرف موعد عودته بالضبط، ولكنه قال لها:

ـ هناك أمور يجب أن أرتبها، ولا أعرف متى ستنتهي.

وحين بكت ولسعته دموعها الساخنة على ما بينهما من مسافات، طمأنها بأن كل شيء على ما يرام. كان يعلم، أو على الأقل يشك، أن هاتفها مراقب، ولذا فحين يأتي الضابط، ويقرأ رسالته، فلن يشك أبدًا في أن «مرتضى» يضلله.

وكان عليه أن ينام جيدًا، فغدا سيكون اللقاء الأخير مع «مرتضى»، ويتمنى هو ألا يكون كذلك.. نعم ربما يقضي هو بقية حياته مطاردًا،

لكنه لم يفقد الأمل في أن يذهب الجالس على الكرسي الكبير عن القصر سريعًا، وبأية طريقة من تلك التي تداعب خياله، الذي نسجه من حصيلة اطلاعه على التاريخ. فقد تعلم منه أن من هم مثل فخامته لا يدومون في كراسيهم طويلًا. وراح يقول لنفسه:

«حتى الإفك له أصول، والحياة أخذ ورد، وهذا التوحش الناعم لا بد أن تذروه ريح الغضب. فالخداع لن يستمر كل الوقت، والضغط يولد الانفجار. ليس المهم من ينفجر؟ لكن الاحتمال الأكبر أنه سيأتي سريعًا».

ورغم علمه بأن هروبه يعني إعطاء فرصة لضباط جهاز أمن السلطة كي يُثبِّت التهمة عليه، وربما يطلقون من يأتمرون بأمرهم على الشاشات وصفحات الجرائد؛ ليمعنوا في وصلة تشويه جديدة، لكنه كان واثقًا من استرداد كرامته وسمعته وإثبات براءته؛ حين يعود بعد ذهاب من يطاردونه، من أكبرهم إلى أصغرهم، بل كان يحلم بأن بعض هؤلاء سيعترفون للناس أن الدكتور «خيري محفوظ» كان مظلومًا.

كان يعرف أن طريقه في البر أو في النهر صعبة، في كل الأحوال، ولكنه شعر باطمئنان شديد بأن الطريق في قلبه صارت يسيرة. في المرة الأولى سافر، وكل السبل أمامه مذللة.. لكن كان ثمة شيء يحيك في صدره، يملؤه بالظنون والمخاوف والإحساس بالضآلة أمام مهمة ليس للعلم، الذي يعشق السير في دروبه، أي نصيب فيها، سوى صورة خارجية باهتة مزيفة، كانت جوانبها تتساقط تحت قدميه، في كل خطوة يخطوها، إلا إنه لم يجرؤ على أن يطأها، ولو مرة واحدة.

كل شيء اتفق عليه مع «مرتضى»، وسيفعله في الليلة القادمة. يحفظ الخطوات جيدًا: الصعود إلى سطح البيت الخفيض، ثم القفز الهادئ المضمون إلى البيت المجاور الذي يلتصق به تمامًا، فالهبوط على السلالم الضيقة التي ليس فيها ما يعرقله سوى قطة قد تكون رابضة، وقد لا تكون. والباب مفتوح على حارة خلفية، سرعان ما ستسلمه إلى شارع ضيق، يلتف ليخرجه إلى مكان لا يتصور من يراقبونه أنه سيمشي فيه، ومنه إلى موقف السيارات الذاهبة إلى مدينة «أسيوط»، ومنها إلى «أسوان»؛ ليركب باخرة إلى «وادي حلفا».

كان مطمئنًا إلى ما سيقوله لكل من ينظر في جواز سفره ويتعجب، حين يقرأ ما هو مكتوب أمام مهنته، ويسأله:

ـ لماذا لم تركب طائرة؟

ـ قررت أن أقوم بنزهة نيلية .. أريدها رحلة مختلفة.

وإذا زادوا في السؤال، سيقول لهم:

ـ أؤلف كتابًا عن تاريخ السودان، وأريد أن أرى الناس والبلاد عن قرب.

وكان مطمئنًا أيضًا إلى أن أيًا من هؤلاء لن يعرفه، فالواقفون على الحدود صلاتهم واهية، بما يجري في الداخل، والأغلب أن أيًا منهم لم يقرأ حكايته، وإن قرأها وقتها فالاسم لن يستقر في رأسه، إلا إذا كان يعرف صاحبه من قبل. والدكتور «خيري محفوظ» كان معروفًا لمن يجيدون قراءة الكتب والمقالات التاريخية المطولة، وهؤلاء ليسوا كثيرين.

وفكر في أنه حتى لو عرفه أحدهم، فلن يخسر كثيرًا. سيقوم بتسليمه، ويكون عليه في هذه الحالة أن يعود إلى المهمة الجديدة التي كلفوه بها، وبوسعه وقتها أن يريح ضميره قليلًا حين يصور الأمر لنفسه على أنه مجبر عليه، ومغلوب على أمره، و«لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها»، ويكفيه شرف محاولة الهروب من كتابة شيء لا يطيقه.

ووقتها قد يلتف على المهمة ويدس ما يريد بين السطور، بحيث لا يحقق لمن يجبرونه على الكتابة كل ما يريدونه. ولكن هذا يجب أن يتم بحذر وبراعة في التحايل.

قبل أن يغمض عينيه، كان قد قرر أنه لن يفعل هذا في كل الأحوال، وإن سجنوه، فسيجعل من زنزانته خلوة، وسيستعيد، على مهل، كل ما قرأه من كتب وأشعار الشيخ الكبير، وقد يكتشف فيها وبها ما لم يرد إلى ذهنه من قبل، ويصرخ في فرح طفولي غامر، مثلما صرخ من قبل، حين وقف أمام مكتبة مرتضى، ناظرًا إلى اسم «أبو العزائم» المطبوع على كعوب الكتب والدواوين، قائلًا:

«أخيرًا وجدت الكنز».

لكنه كان كنزًا غير الذي كلفوه بالبحث عنه، وظنوه بعيدًا تحت الأرض، ويمكن أن يستدل عليه من أصوات عجلى تجري على ألسنة العجائز، أو إشارات يديها السائرون في شوارع القرى المترية، وساحات المدن المنهكة، أو كلمات غامضة في وثائق وأوراق كتب تآكلت حوافها، بينما هو بين أيديهم، بل بين عيونهم، وأقرب إليهم من حبل الوريد.

صدر للمؤلف

- روايات: «بيت السناري» و«جبل الطير» و«باب رزق» و«السلفي» و«سقوط الصمت» و«شجرة العابد» و«زهر الخريف» و«جدران المدى» و«حكاية شمردل».

- مجموعات قصصية: «عطر الليل» و«حكايات الحب الأول» و«التي هي أحزن» و«أحلام منسية» و«عرب العطيات».

- قصة للأطفال: «الأبطال والجائزة».

- دراسات أدبية: «النص والسلطة والمجتمع: القيم السياسية في الرواية العربية» و«بهجة الحكايا: على خطى نجيب محفوظ» و«أقلام وتجارب».

- تراجم: «فرسان العشق الإلهي».

- كتب في الاجتماع السياسي: «التنشئة السياسية للطرق الصوفية في مصر» و«التغيير الآمن» و«تقريب البعيد» و«القرية والقارة» و«شبه دولة: القصة الكاملة لداعش» و«ممرات غير آمنة» و«المجتمع العميق» و«التحديث ومسار البنى الاجتماعية التقليدية» و«أصناف أهل الفكر» و«الفريضة الواجبة»

و«العلاقات المصرية ـ الخليجية» و«عشت ما جرى: شهادة على ثورة يناير» و«انتحار الإخوان» و«الطريق إلى الثورة» و«أمة في أزمة» و«حناجر وخناجر» و«وزارة العدل .. سيرة مؤسسية» و«الأيديولوجيا: المعنى والمبنى» و«العودة إلى المجهول» و«الخيال السياسي».

ـ له تحت الطبع: روايتا «غرفة في جهنم» و«جرى في قبري»، ومجموعة قصصية «أخت روحي».